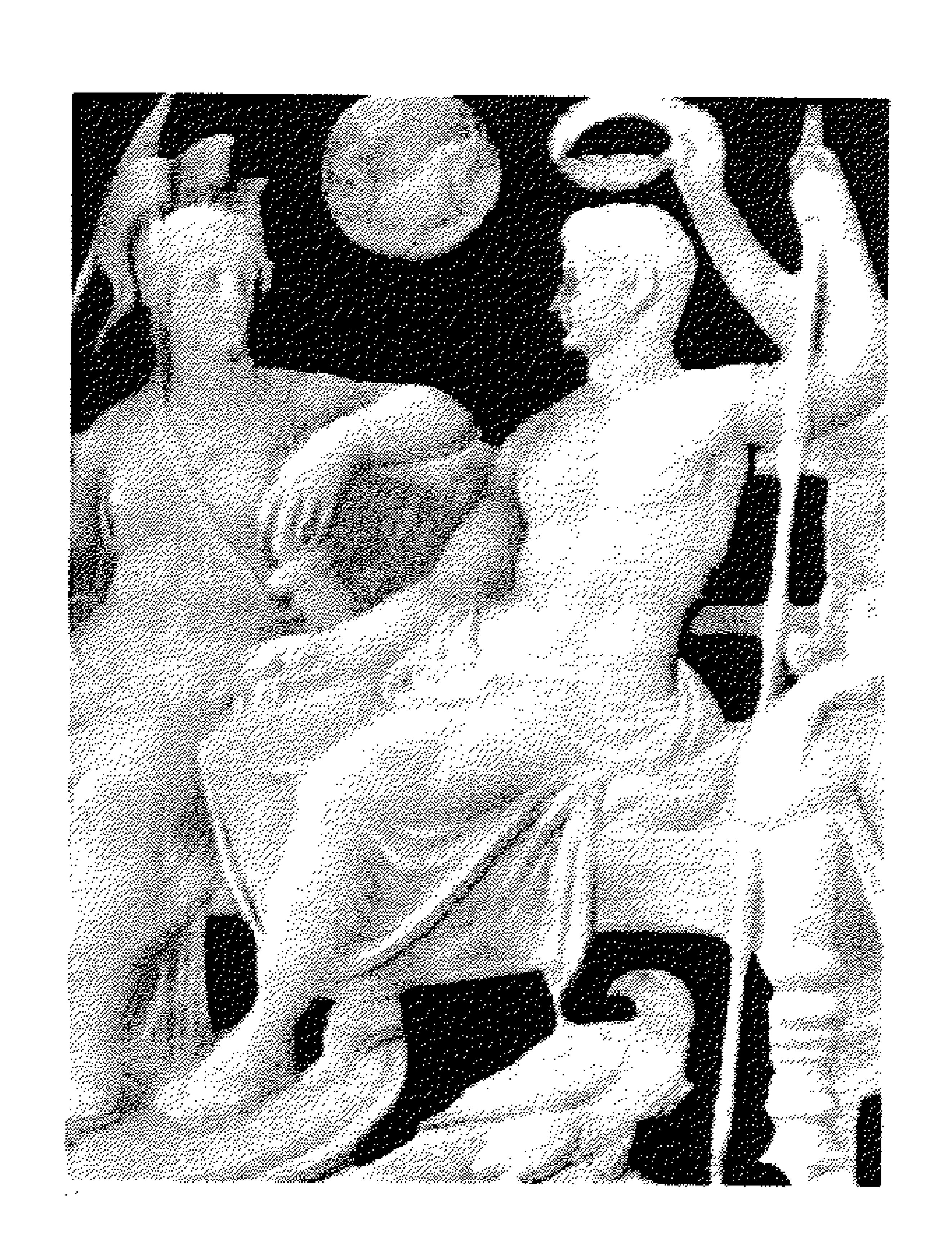
أحمد سراج

في التاريخ الرّوماني

نشأة الجمهورية



أفريقيا الشرق

في التاريخ الروماني

نشأة الجمهورية

المؤلف ــ أحمد سراج

عنوان الكتاب

في التاريخ الروماني

نشأة الجمهورية

رقم الإيداع القانوني 1999- 1098

ردمك 1-163-25-9981

أفريقيا الشرق ــ المغرب

159، مكرر شارع يعقوب المنصور ــ الدار البيضاء

الهاتف 022.25.95.04 - 022.25.98.13 ــ فاكس 80 022.44.00

البريد الإلكتروني : E-Mail : **afriqueorient@iam.net.ma**

أفريقيا الشرق ــ بيروت ــ لبنان

ص ب 3176 - 11

أحمد سراج

في التاريخ الروماني

نشأة الجمهورية

أفريقيا الشرق

إهداء

إلى كل الذين شاركوني هموم نشر هذا الكتاب . . .

في انتظار أن أقرأ لهم . . .

تقديم

إن دراسة فترة تاريخية قديمة تعني لدى الكثير من الطلاب الدخول في عالم مجهول. فالغوص في تاريخ الاغريق أوالرومان يخلق لديهم احساسا بالغربة. لا يقتصر الأمر على الطلاب المغاربة فقط، فلقد بينت لي تجربتي في التعليم الجامعي بفرنسا أن النفور من تاريخ الفترات القديمة ظاهرة عامة بالرغم من كون المحيط الحضاري الحالي بأوروبا لم يتغير جذريا بالمقارنة مع المحيط الروماني. الأمر يختلف طبعا عندنا. فمحيطنا الحضاري هومزيج من حضارات متعددة بعضها شرقي وبعضها غربي التقت جميعا فوق التراب المغربي لتخلق تلك الحضارة التي طبعت تاريخ المتوسط والتي تدعى ب«الحضارة المغربية». لا يجب أن ننسى أن العنصر الروماني ساهم في بلورة هذه الحضارة. فلقد استقر الرومان مدة تقارب الثلاثة قرون في شمال المغرب، وكانت لاستقرارهم آثار ومخلفات يمكن رصد بعضها اليوم في مختلف مجالات الحياة وفي التطور السياسي والاجتماعي والثقافي. . .

ومع ذلك فان تاريخ روما هو عالم جديد، يحيل إلى حضارة غريبة انقرضت منذ عدة قرون لا يمكن أن تتجاوب بالضرورة مع طرق عيشنا أوتفكيرنا. بيد أنه بالرغم من النفور الذي قد تولده لدى الطالب أو القارئ فإن دراستها تكتسي أهمية قصوى باعتبارها أحد المداخل الأساسية التي يستحيل بدونها فهم التطور الحالي لدول الحوض المتوسط أوبعض الظواهر التاريخية، سياسية كانت أو اجتماعية أو ثقافية، التي ميزت مسيرته. فالمهتم بتاريخ هذه «البحيرة» يلاحظ ولا شك أنها شكلت عبر التاريخ أحد المجالات الأساسية التي التقت فيها حضارات الشمال والجنوب، وحضارات الشرق والغرب. إنها قنطرة سهلت مرور الأشخاص والبضائع والأفكار أكثر مما عاقته. . . ولذلك فهي تعتبر عامل تكامل وتواصل في الحضارة المتوسطية أكثر منها عامل تعارض وقطيعة. . .

ولا تقتصر أهمية دراسة تاريخ روما على تكوين الطالب في قسم التاريخ فحسب، اذ أن ازدياد وتيرة العلاقات وتشابكها وتغير أشكالها بين العالم العربي عموما، وقسمه المتوسطي على الخصوص، وبين الغرب الأوروبي اليوم يفرض على المهتم بهذه العلاقات وبدور الغرب المتزايد في كل المجالات أن يعود إلى جذور تاريخه ليتسنى له فهم مكوناته وأسس

تشكيل قيمه الحضارية. ولذلك كان لهذا الكتاب بعد آخر يسعى من خلاله إلى تقديم بعض جوانب الحضارة التي انطلقت من شبه الجزيرة الإيطالية خلال القرن الثامن قبل الميلاد وانتشرت على ضفاف الحوض المتوسطي مؤثرة بذلك في مجريات تاريخه للجمهور العريض من القراء العرب. ولو أننا دأبنا منذ وقت مبكر في رحاب جامعاتنا ومراكز بحوثنا على الاهتمام بما فيه الكفاية بتاريخ ضفة البحر المتوسط الشمالية لتمكنا من التواصل بصورة أفضل وأعمق مع جيراننا في الشمال، ولما حدثت قطائع وتراجعات في علاقاتنا بهم. ولا شك أن المتتبع لتاريخ البحث والانتاج العلمي المتوسطيين يلاحظ -حتى وإن لم يكن من المتخصصين- أن هناك عدم توازن عميقا يطبع الاهتمامات العلمية بشكل عام والبحث في حقل التاريخ والحضارات بشكل خاص. فمنذ ما يزيد عن قرن نشأت بأوروبا مدارس تخصصت في الدراسات الشرقية وأفرزت عددا من المتخصصين الذين تمكنوا من تجاوز عوائق اللغة والاختلاف الثقافي ليقدموا مساهمات في تاريخنا لا يجادل أحد في قيمتها العلمية. في حين لم نسمع قط بباحث عربي تألق أو اهتم بتاريخ دولة غربية أو قدم مساهمة في دراسة حضارتها باستثناء بعض الأطروحات التي أنجزها بعض الطلاب الباحثين العرب في الجامعات الأوروبية. والغريب في الأمر أن هؤلاء الباحثين يجدون أنفسهم بعد عودتهم إلى أوطانهم وكأنهم شجرات أرز في غابات صنوبر، فيراجعون أنفسهم، وسرعان ما يهتدون إلى التخلي عن تخصصاتهم للالتحاق بالركب المحلي باستبدالهم موضوعا في البحث يهتم بتاريخ أو تواريخ أهلكتها الأقلام. . .

ومن انعكاسات هذا الوضع على مكتباتنا ندرة المراجع العربية حول تاريخ شعوب المتوسط غير العربية. فالطالب من طلابنا أو القارئ الذي لم يعر اهتماما لدراسة لغة أجنبية تراه مجبرا على اللجوء إلى كتب أو دراسات مكتوبة بلغة غير تلك التي يرتاح لها. وهو في ذلك يعاني الأمرين : اذ عليه أولا أن يجد الكتاب وهو أمر أصبح غير يسير، وثانيا أن يكون على استعداد لقضاء ساعات طوال أمامه محاولا قراءته مستعينا في ذلك بمعجم أو معجمين. . .

لذلك كله راودتني فكرة اصدار هذا الكتاب حول التجربة الرومانية والذي أردت من خلاله كموضوع أن أساهم في سد فراغ في مكتبتنا العربية التي لا تتوفر على تاريخ لروما بالشكل الذي قصدنا تقديمه، وكمبادرة لأدعو كافة زملائي المؤرخين إلى الاهتمام أكثر فأكثر بتاريخ الآخرين الذي يشكل في بعض الأحيان جزءا من تاريخنا. . .

هذا إذن هو الجزء الأول من التجربة الرومانية. وهو يتناول بالدراسة نشأة روما والمشاكل المرتبطة بالفترة الملكية في قسم أول، ثم نشأة الجمهورية ومؤسساتها في قسم ثان. وستتلوه ان شاء الله أجزاء أخرى تسعى إلى تقديم عرض واف عن التاريخ والحضارة الرومانيتين

من خلال اعتماد تقسيم يسمح للقارئ باختيار الفترة أو الموضوع اللذين يهمانه واللذين سيجدهما مجتمعين في جزء واحد.

وإني اذ أتمنى لنفسي التوفيق في هذه المحاولة لأرجو أن تتلوها محاولات أخرى حتى نتمكن من سد الثغرات التي تعاني منها مكتباتنا العربية ومن ارساء قواعد بحث تاريخي سليم وشامل. . . ولأصحابها أتمنى التوفيق والسداد.

المؤلف

الباب الأول

في أصول الحضارة الرومانية



الفصل الأول

مصادر التاريخ الروماني

1 . أصول الإسطوغرافيا الرومانية

إن اهتمام الرومان بتاريخهم كان متأخرا. فاذا كانت نشأة روما تؤرخ بالقرن الثامن قبل الميلاد فان أولى بوادر الأدب التاريخي أخذت في الظهور في أواخر القرن الثالث قبل الميلاد. ومنذ ذلك التاريخ وحتى نهاية العصر الجمهوري اشتهر العديد من المؤرخين الذين كتبوا باللغة الإغريقية أولا ثم باللاتينية والذين يشكلون مدرسة الحوليات (l'école anlistıque). من أبرز ممثلي هذه المدرسة بيكتور Q. Fabius Pictor الذي كان عضوا في مجلس الشيوخ في نهاية القرن الثالث ق. م. والذي عاصر واشترك في الحرب البونية الثانية والذي يعتبر عميد مدرسة الحوليات لكونه أول مؤرخ روماني كتب باللغة الإغريقية. ويمكن أن نضيف إليه أسماء أخرى كأليمنتوس L. Cıncıus Alımentus وكاتو M. Porcius Cato (234-149) وكوادريجريوس Q. Claudius Quadrıgarius وهمينا L. Cassıus Hemina وأنتياس Valerius Antıas وماكر C. Licınius Macer وغيرهم من الذين اشتهروا بكتابة تاريخ روما خلال هذه الفترة. ولقد ضاعت كل الكتابات التي خلفها هؤلاء ولم يبق منها سوى بعض الشذرات التي احتفظ بها المؤرخون اللاحقون. ولقد تابع ممثلو الإسطوغرافيا الرومانية في بداية العصر الأمبراطوري (كتيتوس ليفيوس T. Livius وديونيسيوس الهاليكرناسي Dionysius Halicarnassius وديودور الصقلي Diodorus Siculus) عمل الأوائل وهم يمثلون برأي المؤرخين المعاصرين نقطة الوصول الطبيعية لمدرسة الحوليات. وسواء تعلق الأمر بالمؤرخين السابقين أوالمتأخرين فإنهم جميعا لم يكونوا معاصرين للفترة الأولى لروما التي ينقلون أخبارها. ولذلك وجب التساؤل عن المصادر التي اعتمدوها في سرد الأحداث.

يمكن تقسيم هذه المصادر إلى نوعين حسب هويتها :

— *مصادر خارجية (غير رومانية)*

يمثلها الأدب الإغريقي الذي سبق بقرون عديدة نشأة الأدب اللاتيني والذي اهتم بدرجات متفاوتة الأهمية بوقائع ايطالية. في البداية كانت المعلومات الجغرافية التي يتوفر

عليها الإغريق حول بلاد إيطالية لا تزال متسمة بالغموض. فمثلا كان هؤلاء يجهلون أن اتروريا واللاتيوم يقعان في شبه جزيرة واحدة، أي إيطالية. وما زلنا نتوفر على بعض الإشارات المحدودة المتعلقة ببعض الأساطير الإيطالية عند هيزيود وستيسيكور. وقد استمر الأمر على ذلك إلى حدود 500 ق. م. حيث أعطى هيكاتيوس Hécatée de Milet أول وصف لبلاد إيطالية وبعده بنصف قرن تقريبا ذكر المؤرخ هيرودوت في كتاب التواريخ ميناء أجيلا ومدينة كرتون الأتروسكيين.

على أي، فلن تظهر إيطالية جليا في الكتابات الإغريقية إلا مع نشأة الاسطوغرافيا الإغريقية الغربية على الرغم من كون هذه الأخيرة قد كرست اهتمامها بالخصوص لجزيرة صقلية وجنوب أيطالية. وكما هو الأمر بالنسبة لكتب الحوليات فان كل الكتابات الإغريقية التي استفاد منها المؤرخون الرومان قد ضاعت ولم يبق سوى أسماء المؤرخين الذين اشتهروا في المستوطنات الإغريقية بصقلية وجنوب إيطالية. يمكن أن نذكر منهم :

هبيس من ريجيوم : الذي يعتبر شيخ مؤرخي الغرب. والذي يبدوأنه تناول ولوبشكل مقتضب في كتاباته الأحداث التي شهدتها إيطالية الوسطى والتي عاصرها.

أنتيوكوس من سركوزة : مؤرخ صقلي عاش حوالي 423 ق. م. كتب تاريخا لصقلية في 9 أجزاء وتاريخا لإيطالية يذكره سترابون غير ما مرة. ولقد ورد في كتاباته أول اشارة لروما.

فيلست من سركوزة : أحد أشهر المؤرخين القدماء. ويستفاد من بلوتارك أنه كتب في أواخر القرن الخامس وبداية الرابع ق. م. تاريخا لصقلية وإيطالية. وقد بقي من كتبه بعض الشذرات التي جمعها المؤرخ الألماني المعاصر مولير في كتابه المسمى «شذرات تاريخية اغريقية».

ليكوس من ريجيوم : كتب تاريخا لصقلية وكتابا آخر حول حملة الإسكندر الأكبر ضد إيطالية.

كالياس أغاتوكل :معاصر للمستبد أغاتوكل من سركوزة. كتب كتابا كبيرا حول تاريخ صقلية في نهاية القرن الرابع وبداية الثالث ق. م. والذي حاول فيه أن يقدم قراءة عن أصل الشعب الروماني.

تيمي من تورومنيوم (340 -250) : ألف كتابا ضخما عن تاريخ صقلية في 42 مجلدا والذي ينطلق فيه من الأصول إلى الحرب البونية الأولى حيث جمع فيه كل الروايات القديمة المتعلقة بشبه الجزيرة الإيطالية.

باستثناء بعض الشذرات القليلة التي احتفظ بها المؤرخون المتأخرون فان هذه التاريخية الإسطوغرافيا الإغريقية الغربية قد اندثرت بشكل نهائي كما هو الشأن بالنسبة للكتابات التاريخية الأتروسكية التي نجهل عنها كل شيء. لكن المؤرخين اللاتنيين كان بإمكانهم استغلال هاته الكتابات بحرية واستقاء المعلومات التي تسمح لهم بكتابة تاريخ دولتهم وحضارتهم خصوصا في عهودها الأولى.

هذه إذن هي المصادر الخارجية التي ساعدت على نشأة الكتابة التاريخية عند الرومان. لكنها لم تكن كافية لكتابة تاريخ روما ما دام أن هذا الأخير لم يشكل محورها الأساسي بل موضوعا هامشيا. ثم إن هذه الكتابات كانت تقدم تاريخ روما من وجهة نظر أجنبية قد تختلف عن تصور أصحاب مدرسة الحوليات لتاريخهم الوطني. ولذلك كان لا بد من الاعتماد على نوع آخر من المصادر التي يمكن أن نصفها بالوطنية :

_ *مصادر قومية رومانية*

يمكن التمييز ضمن هذه المجموعة بين نوعين من الوثائق : الوثائق الرسمية والوثائق الخاصة :

الوثائق الرسمية : وفيها نميز أيضا بين سلسلتين من الوثائق :

الوثائق الدينية : كان لكل جماعة كهنوتية في روما وثائقها الخاصة والمتنوعة. يمكن أن نذكر منها على سبيل المثال :

الصلوات Carmina كأناشيد الساليين[1] والأرفاليس[2] التي وصلتنا منها بعض الشذرات.

كتب الطقوس (indigitamenta)

كتب التفاسير (commentarii)

محاضر أومجموع القرارات التي اتخذتها الجماعة والتي تعتبر كأحكام قضائية يتم الأخذ بها في حالة نشوب صراع ما.

---

[1] - هم كهان يشكلون جماعة دينية مكرسة لعبادة الإله مارس. وكانت وظيفتهم الأساسية تتمثل في الإشراف على افتتاح واغلاق فصل الحرب (اكتوبر إلى مارس). وكان هؤلاء الكهان خلال مختلف المراسيم الدينية يقومون بالتجول في روما حاملين الدروع المقدسة (Ancilia) وهم يشدون الصلوات السالينية (carmen saliane) ويرقصون رقصة دينية تعرف بالتريبوديوم (tripudium).

[2] - Arvales : هم اثنا عشر راهبا كانوا يكرسون حياتهم لعبادة ديا الاهة الحقول Dea Dia التي كانت تقام لها الإحتفالات السنوية في شهر ماي.

غير ان أهم هذه الوثائق على الإطلاق، تلك التي كانت تتوحد فيها كل الجماعات الكهنوتية والتي كانت تنجز من طرف أهم جماعة وأعلاها شأنا الكهنة العظام (Pontifices maximi)[3] هو التقويم. لقد اكتسى هذا الأخير في البداية طابعا عمليا على الخصوص. فهو يفرق أولا بين الأيام السعيدة أي الأيام التي يمكن خلالها ممارسة العمل والأيام المشؤومة التي تكرس للعبادات وبالتالي تصبح أيام عطلة. ومع الزمن أضيفت إلى التقويم أسماء القناصل الذين باشروا إدارة شؤون الدولة وهي الأسماء التي كانت تستعمل للتفريق بين السنوات (السجل القنصلي)، ثم أهم الأحداث التي ميزت السنة خصوصا الانتصارات العسكرية (سجلات النصر). وبذلك أصبح للسجل أوالتقويم معنى الحوليات الشيء الذي جعله يتطور تدريجيا لكي يولد منه «التاريخ».

لقد كان الكاهن الأعظم يشرف على كتابة التقويم وتنظيمه على لوحة (Tabula dealbata) تعلق في الريغيا (Regia)، أي مقر إقامة الملك في القديم الذي أصبح منزل الكاهن الأعظم باعتباره الوارث النظري لامتيازات الملك وسلطاته الدينية. وحينما تشرف السنة على الانتهاء تصنف اللوحة ضمن الأرشيف الكهنوتي وتترك المكان للوحة جديدة. ولقد حافظ الرومان على هذا العرف إلى حدود سنة 123ق. م. حيث قام الكاهن الأعظم سكايفولا (P. Mucius Scaevola) بجمع اللوحات ونشرها وهي التي أخذت تعرف فيما بعد بالحوليات العظام (Annales Maximi). فهذه الحوليات تشكل أقدم وثيقة تأريخية لروما. غير انه في الوقت الذي بدأ فيه أوائل المؤرخين الرومان في الكتابة لم تكن هذه الحوليات قد نشرت بعد.

ـــ **الوثائق السياسية** : لم يكن الرومان في العصر الجمهوري يتوفرون على وثيقة شبيهة بجريدتنا الرسمية. أما محاضر جلسات مجلس الشيوخ ومجلس الشعب فإنها نشرت لأول مرة في فترة متأخرة بمبادرة من قيصر خلال القرن الأول قبل الميلاد. غير ان المؤرخين أشاروا إلى مجموعة من الوثائق السياسية التي تخص القرون الأولى من التاريخ الروماني. يمكن أن نذكر منها :

اتفاقيات التحالفات الموقعة في عهد الملك سيرفيوس توليوس بين روما والمدن اللاتينية الأخرى والتي كانت محفوظة في معبد الإلهة ديانا.

اتفاقية أحد الطركيين (طاركان القديم أو طاركان القوي) مع غابان والتي كانت محفوظة في أحد المعابد بحي الكيرينال.

[3] - أهم جماعة كهنوتية في روما. تنسب الرواية فترة انشائها إلى العهد الملكي بمبادرة من الملك نوما. كانت هذه الجماعة مكونة في البداية من 3 أو 5 أعضاء ثم أصبحوا ستة عشر في عهد قيصر. كما كانت تحتل مكانة متميزة في التنظيم الديني لروما. لقد كان الكاهن الأعظم مكلف أساسا بمراقبة بالعبادات العامة والخاصة وتنظيم التقويم.

أول اتفاقية بين روما وقرطاج التي ذكرها بوليبيوس[4].

اتفاقية سبوريوس كاسيوس مع اللاتينيين سنة 493 ق. م. والتي يبدومن خلال بعض الشهادات أنها كانت لا تزال بادية للعيان في روما في نهاية العهد الجمهوري حيث كانت موضوعة في الكوميتيوم الذي كانت تعقد فيه اجتماعات مجلس الكوريات ومجلس القبائل.

قانون اللوحات الإثنتى عشرة التي يرجع تاريخها إلى سنة 450 ق. م. الخ. . .

بالاضافة إلى ذلك كانت هناك وثائق أخرى متفاوتة الأهمية محفوظة في مجامع الحكام كالقنصورات والقناصل وأمناء المال وهي وثائق تضم الحسابات والقرارات وغيرها من الأمور التي لها ارتباط بمهام الحاكم.

الوثائق الخاصة

فكل عائلة كبرى (Claudii, Cornelii, Fabii. . .) كانت تملك وثائقها العائلية التي تحافظ عليها وتتوارثها أجيالها. وهذه الوثائق متعددة ومتنوعة نذكر منها على سبيل المثال :

ـــ شجرات النسب

ـــ التقاريظ المنقوشة أو المصبوغة تحت صور الأجداد والتي تتحدث عن حياتهم السياسية وتذكر بأعمالهم الكبرى.

ـــ الرثاءات التي تلقى أثناء مراسيم الجنائز والتي كانت سلسلتها الكاملة تشكل تاريخا للأسرة كلها الخ. . .

تلك إذن هي العناصر المتعددة والمتنوعة المكتوبة أو الشفهية التي كان الحوليون يتوفرون عليها لكتابة تاريخ روما.

لكن إلى أي تاريخ تعود هذه الوثائق؟

في الواقع هناك حد كرونولوجي يفرض نفسه : يتعلق الأمر بادخال الكتابة إلى روما. ورغم اختلاف المؤرخين في الطريقة التي تم بها إدخال الكتابة إلى روما (هل عن طريق الأتروسكيين أو عن طريق مستعمرة كوماي؟) فانهم متفقون على القول بأن ذلك قد تم في نهاية القرن الثامن أو خلال النصف الأول من القرن السابع قبل الميلاد. غير أن أول وثيقة كتبت بصيغة مطولة نوعا ما كانت هي قانون اللوحات الاثنتى عشرة في منتصف القرن

---

4 - Polybe, III, 22-23

الخامس قبل الميلاد. ويبدو أنه انطلاقا من هذه الفترة شُرِعَ في تعميم استعمال الكتابة. وقد أدى ذلك ببعض العلماء إلى القول بأن الوثائق الرسمية أو العمومية لا يمكنها أن تعود إلى فترة سابقة عن القرن الخامس وأن الوثائق التي كتبت خلال القرن السادس كانت جد محدودة. ولا شك أن ندرة هذه الوثائق قد زاد من حدتها الحريق الذي عرفته روما أثناء الغزو الغالي سنة 390 ق. م. والذي أدى إلى إتلاف العديد من الوثائق.

أما الوثائق التي ترجع إلى الفترة القديمة، أي تلك التي سبقت الغزو، والتي احتفظت بها بعض العائلات الرومانية في وقت لاحق فإنه كان مشكوكا في صحتها. وقد اعترف العديد من المؤرخين القدامى[٩] بأن هذه الوثائق لا تعدو أن تكون مزورة. وفي الواقع، بالنسبة للفترات القديمة، وبالنسبة للقسم الأكبر من القرن الخامس، لم تكن روما تتوفر على لائحة رسمية للسجلات القنصلية أو الديكتاتورية. أما اللائحة التي وصلت إلينا فقد تم اعدادها في وقت متأخر انطلاقا من المعلومات التي تم استقاؤها من الوثائق الرسمية، وفي حالة انعدامها من الوثائق العائلية، وهو الشيء الذي ترك الباب مفتوحا للمغالطات والتزوير. . .

وفي النصف الثاني من القرن الرابع، أصبحت روما قوة كبرى في إيطالية، وكان عليها أن تربط علاقات مع العالم الاغريقي في انتظار أن تستولي على مراكزه. وقد كان عليها أن تواجه الاغريق ليس عسكريا فقط ولكن ثقافيا أيضا. فقد كان لهؤلاء تاريخ عريق يتباهون به أمام «البرابرة». فأصبح مفروضا على الرومان أن يكونوا لأنفسهم تاريخا يخلد أمجادهم التليدة وإن كانت الوثائق تعوزهم. . . وستستمر عملية كتابة التاريخ الروماني إلى نهاية العهد الجمهوري وبداية الأمبراطورية، وستبدأ بمحاولة وضع كرونولوجية للتاريخ الروماني التي سيلعب فيها مؤرخو مدرسة الحوليات دورا رائدا.

بعد أن تم اعداد الإطار الكرونولوجي كان يجب تحضير الأحداث والوقائع التاريخية التي سيحتضنها. لكن حصيلة القرون الأولى لروما كانت هزيلة. وكانت مهمة المؤرخين صعبة للغاية بالنسبة للفترة التي سبقت سيطرة الكلتيين على روما : فالوثائق كانت نادرة وتحوم الشكوك حول صحتها، والروايات الشفهية حول العهد الملكي كانت جد مضطربة، في حين كانت المعلومات التي تقدمها المصادر الاغريقية مقتضبة ومتقطعة. فاتجه المؤرخون نحو الأسطورة التي لعبت الأدبيات الاغريقية الغربية دورا هاما في تشكيلها ونشرها.

---

٩ - «لقد ضاعت السجلات القديمة أثناء عمليات النهب التي تعرضت لها روما من طرف الغاليين، أما العقود التي يقدمها البعض اليوم فهي وثائق مزورة» (بلوتاركوس، حياة نوما). «آه !. . . فالتآبين مثلا، عندنا منها [الكثير] ! فالعائلات تحفظها كشواهد شرفية وكوثائق لكي تستعملها اذا توفي أحد أعضائها، أو لكي تخلد ذكريات المجد العائلي، أو لكي تثبت مدى نبلها. زد على ذلك أن هذه التآبين قد حرفت تاريخنا. اذ نجد مدونة فيها أشياء كثيرة لم تقع، انتصارات مزورة، وقنصليات صحح عددها، وشجرات أنساب غير حقيقية. . » (Cicéron, Brutus, XV, 62).

لنأخذ مثلا أسطورة التأسيس التي ستتعرض لها فيما بعد، ولنحاول أن نتتبع مختلف مراحل تشكيلها :

ــ منذ النصف الثاني للقرن الخامس قبل الميلاد كان النسب الطروادي للمؤسسين معروفا عند كل من هيلانيكوس Hellanicos de Lesbos ودماستيس Damastes de Sigée.

ــ وعندما قام الرومان في أعقاب ثورة 509 ق. م. برفع تمثال الذئبة الشهيرة فوق تل الكابتول كرمز وطني يبدو أنهم لم يعرفوا بعد أسطورة التوأمين التي ستلقى انتشارا واسعا فيما بعد.

ــ وفي نهاية القرن الرابع قبل الميلاد كانت قصة الملوك السبعة قد تكونت.

ــ في نفس الوقت سيظهر النسب الطروادي للمؤسسين عند أرسطو.

ــ وفي بداية القرن الثالث نجد المؤرخ الاغريقي كلياس من سركوزة يذكر أسماء التوأمين رومس ورملوس.

ــ وفي سنة 296ق. م. قام الاخوان أوغولني Ogulnii بوضع تمثال آخر للذئبة مضيفين اليها هذه المرة تجسيدا للتوأمين وهو الرمز الذي سيصبح من ذلك الوقت فصاعدا كلاسيكيا ورسميا في روما.

ــ وفي سنة 239ق. م. قام مجلس الشيوخ الروماني، حسب ما ينقله جوستان[6] بمنح الحماية للأرنانيين في صراعهم ضد الايتوليين لأن هذا الشعب لم يساهم مع الإغريق في حربهم ضد الطرواديين، أجداد الرومان.

ــ وبعد بضع سنوات سيظهر انياس في قصائد الشعراء أمثال نايفيوس Naevius واينيوس Ennius الذين سيتغنون برحلته البحرية ويجعلون منه أبا لروملوس.

وهكذا ستتكون أسطورة التأسيس ابتداء من نهاية القرن الرابع قبل الميلاد، أي في وقت كانت فيه روما قد ظهرت كقوة سياسية في إيطالية وبدأت مسيرتها التوسعية في المتوسط.

وأخيرا، لا بد من الاشارة إلى ملاحظتين أساسيتين :

1. إن عملية كتابة تاريخ روما القديم قد دامت فترة طويلة. فقد استمرت طيلة ثلاثة قرون ولم تنته إلا في بداية العهد الأمبراطوري. وقد لعبت مدرسة الحوليات الجديدة في

---

[6] - Justin XVIII, 5, 1

النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد دورا هاما في انجاز هذا المشروع. غير أنها لم تستطع تجاوز الأخطاء المنهجية التقليدية كنشر الأساطير، وعدم تحقيقها والتأثر بالتوجهات السياسية، وغياب النقد، بل واللجوء إلى التزوير. . .

2. إن مفهوم التاريخ عند الرومان لا يمكن مقارنته بمفهومنا الذي يريد أن يجعل منه علما موضوعيا. فقد كان الرومان يرون فيه مشروعا وطنيا، ومدرسة لتعليم الوطنية، وأداة للحكم. ولا أدل على ذلك من كون التاريخ الروماني بالشكل الذي كتب به في هذه الفترة يعكس الصراعات السياسية للجمهورية حيث أنه أضحى سلاحا في يد الأحزاب. . .

2 . مصادر تاريخ روما

إذا كنا نعتبر التاريخ الروماني تاريخ حضارة منقرضة فإنه في الواقع تاريخ حي. نقصد بذلك أنه ما زال في تطور مستمر. فمن الخطأ الاعتقاد أن مظاهره كلها معروفة بشكل يمكن معه القول إن البحث في هذا التاريخ لم يعد مجديا. فلا توجد رواية لتاريخ روما مثبتة بشكل نهائي. وفي العديد من الأحيان يجد المؤرخ نفسه مجبرا على الاعتراف بجهله لهذا العنصر أوذاك، أوبعدم تمكنه من شرح هذه الظاهرة أوتلك. ذلك شأن الحضارة الأتروسكية مثلا التي تعتبر إحدى أهم الحضارات التي أثرت مباشرة في الحضارة الرومانية إن لم نقل إنها شكلت العامل الأساسي في قيامها، والتي لا تزال الكثير من مظاهرها غامضة اليوم[7] . وذلك شأن بلاد الغال التي لا يزال تاريخها في الفترة التي سبقت دخول الرومان مجهولا. وذلك شأن التطور الذي عرفه المغرب سواء في الفترة التي سبقت قدوم الرومان أوالفترة التي تلته أوحتى بعض الوقائع والأحداث التي شهدها خلال فترة الاحتلال. يمكن أن نضيف إلى ذلك كله المشاكل التي تحيط بالفترة الملكية في روما والغموض الذي يحيط ببداية العهد الجمهوري. . . ففي العديد من الأخيان يصبح المؤرخ عاجزا عن العمل ومرغما على انتظار نتائج البحوث التي يقوم بها علماء الآثار والتي قد تعطي معلومات جديدة بامكانها ابراز معالم حضارة أوتاريخ أوحدث ظل مجهولا.

من الممكن إذن مقارنة التاريخ القديم بشكل عام، والتاريخ الروماني بصورة خاصة بورشة كبيرة تعرف أشغالها تطورا مستمرا وذلك بفضل المساهمات الجديدة التي تقدمها العلوم المساعدة كعلم دراسة النقوش، وعلم المسكوكات وعلم الآثار. . . ووسط كل ذلك يبقى النص الأدبي أهم مصدر يبني عليه المؤرخ عمله. هذا الأخير الذي يتجسد أساسا في مقاربة ومقابلة ومقارنة النصوص الأدبية بغيرها من المصادر الأخرى.

[7] - حتى ان دراستها التي ما زالت تعاني من مشاكل متعددة ولدت تخصصا جديدا Etrusquologie علم الأتروسكيات الذي يهتم متخصصوه بالكشف عن مظاهر هذه الحضارة البائدة.

ما هي هذه المصادر التي يستعملها مؤرخ الفترة الرومانية؟

من البديهي أنه كلما حاولنا الرجوع إلى الوراء أكثر فأكثر إلا وقلت مصادرنا. بمعنى آخر فالمصادر التي بامكانها مساعدة الباحث على كتابة التاريخ الروماني هي أكثر ندرة بالمقارنة مع مصادر الفترات اللاحقة. وإذا كان المشكل المطروح بالنسبة لمؤرخ الفترة الحديثة أوالمعاصرة هو التمكن من الاطلاع على الوثائق والكشف عنها فان المشكلة بالنسبة لدارس الفترة الرومانية تتجلى في قلة تلك الوثائق وفي بعض الأحيان انعدامها. . . غير انه تجدر الاشارة إلى أن بعض المجالات الجغرافية أوالكرونولوجية هي في الواقع أكثر حظا من غيرها (العصر الأمبراطوري الأعلى في مركزه إيطالية مثلا) وبالمقابل فان ثغرات كثيرة في مجالات عديدة كالفترة الملكية أوبداية النظام الجمهوري ما زالت قائمة. أضف إلى ذلك أن ضعف المصادر بالنسبة للعالم الروماني يجعل العديد من الأحداث والوقائع التي شهدتها أقاليم الجمهورية لاتزال مجهولة.

إن قلة المصادر المتعلقة بالتاريخ الروماني قد ساهمت في اعطاء قيمة أكبر للمعلومات التي وصلت الينا. فالمؤرخ المهتم بهذه الفترة يجب عليه بالضرورة أن يولي أهمية كبرى لدراسة مصادره، وأن يحرص على عدم اهمال أية معلومة من شأنها أن تساعده في تقصيه للحقيقة. فكل وثيقة مهما كانت متواضعة تعتبر حاملة لإشارات يمكن استغلالها من قبل المؤرخ.

هذه المادة التاريخية المستقاة من المصادر القديمة يجب اخضاعها للتأويل. وهنا يجب التحلي بالحيطة والحذر. فالتأويل في حد ذاته هوتدخل للمؤرخ المعاصر في الوثيقة القديمة في محاولة منه لاستنطاقها. هنا يكمن دور المؤرخ الأساسي. غير أنه لا يجب أن يجبرها على اعطاء معلومات أكثر مما تستطيع الادلاء به. أقصد بذلك أن يتجنب« الافراط في التحليل» بتقويله للمصدر ما لم يقله. فالعلاقة بين الوثيقة باعتبارها شاهدا على أحداث فترة قديمة ما والمؤرخ كمؤول أوكمحلل يجب أن تكون مبنية على قواعد منهجية ثابتة.

إن مصادر التاريخ الروماني جد متنوعة. وكتابة هذا التاريخ تعتمد أساسا على مقارنة ومقابلة هذه المصادر. وهذه هي المهمة الأساسية لدارس الفترة القديمة. لنتعرف على هذه المصادر.

أ. المصادر الأدبية

يتبين من خلال ما ذكرناه آنفا أن المصادر الأدبية لاتمثل المادة الوحيدة للمؤرخ رغم أنها تظل أهم مصدر يستقي منه المؤرخ معلوماته بشكل مستمر. فهذا النوع من المصادر هو الأكثر شهرة واستعمالا وذلك بفضل الأعمال الفيلولوجية التي تضع رهن اشارة الباحثين نصوصا محققة بعناية فائقة وبجدية نادرة، وفي غالب الأحيان مترجمة إلى لغات حية الشيء الذي يجعلها سهلة المنال.

ماذا نقصد بالمصدر الأدبي؟

إنه عبارة عن وثيقة مكتوبة خلال الفترة القديمة احتفظ بها الزمن لنا. لا شك أن القارئ سيتساءل عن الكيفية التي تمكنت بها وثيقة كتبت في القرن الرابع أوالثالث قبل الميلاد من البقاء حتى عصرنا. إن هذا السؤال يطرح بالطبع قضية النقل أوالنسخ. إذا ما اطلعت على أي مصدر لاتيني أواغريقي محقق تحقيقا نقديا فإنك ستجد لامحالة في مقدمته معلومات عن تاريخ النص وعن الطريقة التي انتقل بها الكتاب عبر مئات السنين حتى وصل الينا. ولا شك أنك ستتعجب عندما تلاحظ أن تاريخ المخطوطات التي تم الاعتماد عليها في التحقيق هي حديثة العهد نسبيا بالمقارنة مع تواريخ انجازها. معنى ذلك انه بين المؤلَف الأصلي وأقدم نسخة مخطوطة له عثر عليها هناك العديد من القرون التي خضع خلالها الكتاب الأصلي لعمليات نقل متوالية. هذه العمليات كان يقوم بها نقلة هم في الغالب رهبان انطلاقا من مخطوطات قديمة. ولاداعي إلى التذكير بأن هذه الطريقة كانت هي الوسيلة الوحيدة التي سمحت بتداول المعرفة قبل اختراع المطبعة. غير أن هؤلاء النقلة أوالنساخ لم يكونوا دوما على قدر كبير من الثقافة ولم يكن مستواهم الفكري راقيا. ولذلك كانت تحيط بعملية النسخ التي يقومون بها مخاطر عدة تتعلق بارتكاب أخطاء لغوية أوبقراءات خاطئة، أوباضافة جمل أوكلمات لايحملها الأصل أوبمحاولة القيام بتصحيحات. . . لهذا السبب تكتسي مهمة عالم الفيلولوجيا أو المحقق أهمية قصوى. فانطلاقا من دراسة مقارنة للمخطوطات الموجودة بكبريات المكتبات العالمية يحاول هذا الأخير أن يصل إلى وضع رواية قريبة من النص الأصلي. وعمل كهذا قد يدوم سنين عديدة ويتطلب من صاحبه التحلي بالصبر الجميل.

ويجب التنبيه إلى أن المصادر التي كتبت خلال الفترة القديمة لم تصلنا كلها. فلقد ساهمت نكبات الزمن في اضاعة كتب قيمة. من بين الأحداث الهامة التي ساهمت مساهمة فعالة في فقدان هذه الوثائق عمليات الهدم والتدمير والاتلاف التي تعرضت لها كبريات مكتبات العالم القديم كمكتبات أثينا وقرطاج والقسطنطينية والاسكندرية وروما. فكل هذه المكتبات التي كان غناها شبه أسطوري[8] تم تدميرها بسبب الآفات التي نتجت عن العمليات العسكرية : الفتح الروماني، الهجومات البربرية، المد المنغولي، الحروب الصليبية. . .

وعلى أي، فالمصادر التي نتوفر عليها تشكل المادة الأساسية لتاريخ الفترة التي تهمنا. غير أنها ليست كلها متساوية القيمة. فكل مصدر يجب أن يفحص بدقة وأن يدرس من مختلف الجوانب التي بامكانها أن تعيننا على تحديد قيمته العلمية. من الضروري إذن

[8] - مكتبة الاسكندرية كانت تحتوي حسب ما يروى على ما ينا هر سعمائة الف كتاب ووثيقة

معرفة المؤلف ومختلف الأحداث التي ميزت حياته والوسط الذي عاش فيه وميولاته السياسية. . . وباختصار يجب القيام ببحث شامل حول الاطار التاريخي للمؤلف والمؤلف. فهذه أول خطوة يجب مباشرتها عندما نكون أمام نص أووثيقة قديمة.

تشمل هذه المصادر مؤلفات المؤرخين والشعراء وفقهاء القانون والرسائل والمنشورات الامبراطورية وغيرها من الكتابات التي تركها الرومان أواليونان والتي تشتمل على معلومات تخص الأحداث والوقائع التي شهدتها روما أو إيطالية أوالولايات الرومانية.

ب. المصادر المنقوشة

لا تقل أهمية هذا النوع من المصادر عن السابق. فبفضل كثرة الكتابات المنقوشة القديمة تطور علم يختص بدراستها ومحاولة تحليلها : إنه علم النقائش épigraphie. ولقد ساهم هذا الأخير ولا يزال في إغناء وتجديد معارفنا عن العديد من مظاهر الحياة عند الرومان.

يتعلق الأمر بكتابات نقشت على أحجار أوعلى لوحات برونزية أورخامية. هذا التقليد الذي من خلاله كان القدماء يخلدون ذكر الأشخاص والوقائع والأماكن الهامة لم ينقرض اليوم. غير أن إقامة نصب منقوش كانت عادة جد منتشرة في العالم القديم وتحتل أهمية قصوى لدى شعوبه. فقلما تخلو المقابر والشوارع والأسواق والمباني العامة من مثل هذه النقوش التي عادة ما تكون نصوصها قصيرة وكلماتها مختزلة. فلا يوجد في العالم الروماني بناية لا تحمل لوحة منقوشة ذكرت فيها الظروف التي تم فيها تشييد البناء، وأسماء الحكام والولاة الذين بادروا بانشائه والتاريخ الذي بني فيه فضلا عن أسماء الآلهة أو الأباطرة الذين باسمهم أولتكريمهم تمت اقامة المبنى أوالنصب. ثم إن كل الآثار الجنائزية تذكر بمجرى حياة الموتى، وتاريخ وفاتهم بالاضافة إلى أسماء الأبوين أوالأصدقاء الذين بادروا بنقش تلك الجمل. وقد تكون هذه اللوحة فاخرة أومتواضعة تبعا لموقع الميت في الهرم الاجتماعي. غير أنها تتميز كلها بأسلوب الاختزال.

ويمكن تقسيم هذه النقوش إلى أنواع حسب طبيعة النصوص التي تحملها :

ــ **القوانين والمراسيم** : مثل اتفاقيات السلم ونصوص التحكيم بين جماعتين متصارعتين. ويمكن أن نضيف إلى هذا الصنف من الوثائق الرسمية كل نقيشة تحمل نصا له قيمة قانونية والمراسيم التكريمية.

ــ **الوثائق الدينية** : تتميز أيضا بتنوع كبير. فمنها الإهداءات التي تخصص لإله ما أوتلك التي تنص على اقامة أعياد دينية جديدة وكل النقائش التي تتوفر عليها الأماكن

الدينية. ويمكن أن نضيف إلى ذلك النقائش الجنائزية funéraires التي تكتب لتخليد ذكرى الأموات.

ـــ **الوثائق الخاصة** : وأهمها تلك التي تتعلق بتحرير رقاب العبيد. غير أن هذه الأخيرة غالبا ما تصنف ضمن الوثائق الدينية باعتبارها تعلق في المعابد الشيء الذي كان يزيد من مصداقية القرار الذي اتخذه السيد. ونصنف ضمن هذا النوع أيضا المنقوشات المتعلقة بالحسابات وأشهرها اللوحات التي اكتشفت في القصور الميسينية. . .

ـــ **الوثائق العسكرية** : كتلك التي ينقشها أفراد فرقة عسكرية ما للأباطرة تخليدا لانتصاراتهم ضد الأعداء.

هذه الكتابات المنقوشة ليست قابلة للاستعمال مباشرة بعد اكتشافها. اذ يجب أن تحلل وتفك رموزها قبل أن تؤول وتستعمل كشواهد تاريخية حاملة لمعلومات مفيدة. واذا كانت بعض المنقوشات سهلة القراءة فان أغلبها يتطلب من المختص بذل جهود كبيرة قبل التوصل إلى فك رموزها. فالمواد التي كتبت عليها (حجر، برونز، رخام) كثيرا ما تتعرض لآفات الزمن والتقادم حيث ينكسر بعضها وتمحى حروف البعض الآخر. ولذلك كانت مهمة عالم الكتابات المنقوشة أساسية بالنسبة لمؤرخ الفترة القديمة ؛ فهويحاول الرجوع بالنص المنكوب إلى أصله الأول باستعادة ما ضاع من حروف أو من أجزاء قبل تقديم قراءة له.

أين يمكن العثور على هذه الكتابات المنقوشة؟

إن أهم مشكلة تعترض سبيل الباحث هي كون هذه المنقوشات مبعثرة في العديد من الدوريات والنشرات الأثرية، بل العديد منها تظل دفينة مدة طويلة بعد اكتشافها. ولقد قام رواد المدرسة الألمانية خلال القرنُ الماضي بجمع الكتابات اللاتينية في مدونة مشهورة[9] أحصت كل الكتابات التي كانت معروفة ساعة نشره وصنفتها حسب الولايات الرومانية[10]. ورغم انه ما زال يعتبر المرجع الأساسي بالنسبة للإبيغرافيا اللاتينية فإن العديد من الكتابات المنقوشة تم العثور عليها في العديد من المواقع المتوسطية خلال هذا القرن الشيء الذي أدى بالمتخصصين إلى خلق دورية خاصة بمتابعة الانشطة والمستجدات التي تطرأ على العلوم الإبيغرافية في العالم[11].

[9] - *Corpus des Inscriptions latines*

[10] - مثلا الجزء السادس من المدونة خصص لروما و الجزء الثامن للولايات الإفريقية. يمكن أن نضيف إلى هذه المدونة H. Dessau, Inscriptiones Latinae Selectae, Berlin, 1962, 5 vol الذي نشر جملة مختارة من النقوش اللاتينية حسب المواضيع.

[11] - *Année Epigraphique*, Paris, PUF

ج. علم البرديات (Papyrologie)

لورق البردي أيضا مختصوه الذين يهتمون بدراسة النصوص المكتوبة بلغات أولهجات مختلفة (الهيروغليفية، الآرامية، اللهجات القبطية، العربية. . .). غير أن جزءا كبيرا منها كتب باللاتينية أو الإغريقية وهي التي تهم دارس التاريخ الروماني. وعادة ما تقسم هذه المصادر إلى قسمين :

ـــ أوراق البردي الحاملة لنصوص أدبية : وهي تلك التي تقدم أجزاء من مؤلفات قديمة تمتد من الأشعار الهوميرية إلى كتابات ديموسطين وأفلاطون. . . ورغم أن هذه البرديات هي أقل جودة من مخطوطات العصر الوسيط فإنها احتفظت لنا في بعض الأحيان بأعمال كاملة كانت تعتبر إلى وقت قريب مفقودة، نذكر منها على سبيل المثال كتاب «دستور أثينا» لأرسطو الذي اكتشف سنة 1891 بعد نشر أوراق البردي التي كانت محفوظة بالمتحف البريطاني.

ـــ أوراق البردي الحاملة لنصوص وثائقية : ويحتوي هذا النوع على العديد من المعلومات التي ترتبط بمختلف أوجه الحياة اليومية عند القدماء خصوصا في العهود المتأخرة. نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر وثائق زينون المصري خلال القرن الثالث قبل الميلاد أوملف فلافيوس أبيناوس Flavius Abınnaeus، قائد الحامية العسكرية البيزنطية بديونيزياس Dıonysıas على الحدود الشمالية الغربية للفيوم في منتصف القرن السادس.

د. المصادر الأثرية

هذه التسمية تجمع باقي أنواع العلوم الأخرى التي يستند عليها دارس الفترات القديمة. وللتذكير فقط نشير إلى أن لفظ أركيولوجيا ليس حديث العهد بل استعمله المؤرخون منذ الفترة القديمة (مثل ثوسيديدThucydıde وديونيسوس الهاليكرناسي) وكان مفهومه الإيتيمولوجي ينطبق آنئذ على «معرفة الماضي أوالأزمنة الغابرة» سواء تعلق الأمر بتاريخ الإغريق قبل الحروب الميدية أوبتاريخ روما من النشأة إلى الحروب البونيقية. أما اليوم، وبالرغم من تعدد مفاهيم الأركيولوجيا بتعدد مضامينها، فيمكن تعريفها بكونها العلم الذي يهتم بدراسة المصادر المادية للتاريخ القديم بالمقارنة مع الفيلولوجيا التي تهتم بدراسة مصادره الأدبية. ومع ذلك فالعلاقة بين العلمين وطيدة جدا. فإذا كانت دراسة النصوص المنقوشة على الحجر أوالمكتوبة على ورق البردي تدخل ضمن اختصاص عالم الفيلولوجيا فإن اكتشاف هذه الأخيرة هو من مهام عالم الآثار.

وإذا كان عمل المؤرخ أوعالم الفيلولوجيا يتم داخل أروقة المكتبات فإن عالم الآثار يبقى سيد الميدان الخارجي الذي جرت فيه الوقائع والأحداث والذي يحتفظ باطنه بشواهد

مدفونه تختلف قيمتها باختلاف المواقع والتي تحتاج كلها إلى عمل دؤوب وتقنيات خاصة لاستكشافها. ولهذا اكتست مهمة الأثري طابعا خاصا باعتباره يسعى إلى تحديد المواقع الأثرية والقيام بحفريات قصد استخراج الشواهد المادية التي احتفظ بها الزمن منذ عهود قديمة. أما المواقع فهي تختلف حسب أهميتها. فمنها تلك التي اشتهرت منذ الفترة القديمة نظرا للدور الذي لعبته في التطور الذي شهدته احدى الحضارات أواحدى الدول (روما، قرطاج، وليلي، صور. . .). ومنها تلك التي تقل عنها أهمية، بل تلك التي لم تسجل لنا المصادر المكتوبة اسمها -وما أكثرها-. غير أن اهتمام عالم الآثار لا يجب أن ينصب فقط على المواقع المعروفة، ذلك أن أي موقع، مهما كان متواضعا، يمكن أن تؤدي الأبحاث فيه إلى نتائج هامة. إلا أن هذه المواقع نادرا ما تكون ظاهرة للعيان. وهنا تكمن أهمية عمليات الاستكشاف والجرد الأثري للمنطقة الخاضعة للدراسة باستعمال المناهج والتقنيات الحديثة وعلى رأسها تحليل الصور الجوية أو تلك التي تؤخذ بالأقمار الاصطناعية من أجل تحديد نقط على الخريطة أواستخدام تقنيات الرصد الجيوفيزيائي لمحاولة تحديد مدى أهمية الآثار المدفونة.

وبعد تحديد الموقع تبدأ عملية الحفر التي يجب أن تكون منظمة وخاضعة لمنهج دقيق هدفه سبر أغوار الموقع مع المحافظة على الطبقات. ذلك أن المنهج الإستراتيغرافي يسمح بتمييز مختلف الطبقات وتحديد تراتبها بشكل يؤدي إلى تحديد تسلسل زمني دقيق لمختلف مراحل وخصوصيات التعمير الذي عرفه الموقع. كما يجب أن تسجل كل النتائج التي تم التوصل اليها باستعمال التقنيات الحديثة (التسجيل، التصوير، الإعلاميات. . .) والاحتفاظ بالمواد التي عثر عليها مهما بدت قليلة الأهمية. ولتوثيق كل هذه المعطيات أهمية خاصة ذلك أن الأثري يقوم أثناء حفرياته بتدمير الطبقات الأثرية بالتدريج بشكل يستحيل معه الرجوع إلى الطبقة الواحدة مرتين. ولهذا فالملف الذي جمعت فيه المعطيات المتعلقة بتطور أعمال الحفر يبقى المرجع الوحيد للموقع ومن ثم ضرورة الاعتناء به. وطبعا فالعمل الأثري في موقع ما يسير ببطء شديد قد يستغرق عدة سنوات.

وبعد عملية الحفر تأتي عملية استغلال المعطيات المسجلة ودراستها في أفق نشر النتائج. وتختلف المناهج المتبعة حسب اختلاف المواد المدروسة ؛ ذلك أن كلا منها يحتاج إلى طريقة خاصة في المعالجة (تحاليل فيزيوكيميائية للأواني الطينية، صور راديوغرافية للصور المصبوغة، معالجة القطع النقدية في مختبرات خاصة. . .) بشكل يسمح بتحديد تاريخ دقيق لكل منها. . . بعدئذ على الأثري أن يهتم بعملية الاصلاح والتَّرميم والمحافظة على الموقع وعلى المواد التي عثر عليها وهي عملية لا تقل أهمية عن الأولى لأنها الشاهد الأساسي على الموقع وعلى التحاليل والاستنتاجات التي نشرت. كما أن هذه المواد الأثرية تصبح جزءا من تراث المنطقة التي اكتشفت فيها بحيث يمكن أن توضع في المتاحف للعرض.

وأخيرا تجدر الإشارة إلى أن علم الآثار قد قدم في العقود الأخيرة معلومات هامة ساعدت على تطوير معارفنا حول مختلف أوجه الحضارات القديمة بشكل أضحى معه هذا العلم مصدرا أساساً للتاريخ القديم.

هـ علم المسكوكات النقدية

للنقود أهميتها الخاصة في الكشف عن بعض مظاهر الحياة في العصور القديمة. فالقطعة النقدية تحمل عموما كتابة منقوشة وصورة. وكلاهما مصدران لمعلومات قد لا توفرها العلوم الأخرى. لا بد من التنبيه إلى كون أهمية القطعة النقدية يمكن رصدها على مستويين : الأول يتمثل في المعلومات التي تحملها على وجهيها والثاني يتجسد في إمكانية التعامل معها كعنصر يسمح بالتأريخ الدقيق إذا ما أخذ بعين الاعتبار الإطار الأركيولوجي الذي اكتشفت فيه.

لكن مساهمة النقود في معرفة بعض مظاهر الحياة القديمة تأخذ أبعادا أخرى. فغالبا ما تقدم القطع النقدية معلومات هامة عن الحياة في الدول أوالمدن التي استعملتها. فقد تثير مواضيع دينية تتجسد في صور الآلهة الحامية للمدينة أحد المؤسسين الخرافيين أوبعض المنشآت الدينية. . . وقد تثير مواضيع اقتصادية إذ أن بعض النقود تحمل صورا لبعض المنتحات الفلاحية أو رموزا لبعض الأنشطة الاقتصادية. أما النقود الرومانية فهي تحمل صورا لبعض الساسة في العهد الجمهوري ثم صور الأباطرة انطلاقا من عهد أغسطس. . .

أما الكتابات التي تحملها النقود فهي تسمح بتتبع التاريخ السياسي لدولة ما : فمن خلالها يمكن معرفة تاريخ تولي هذا الأمبراطور أوذاك والمدة الزمنية التي قضاها في الحكم. كما أن تحليل القطعة النقدية يمكن من التعرف على أهمية اقتصاد الدولة في هذه الفترة أوتلك بالنظر إلى نوعية وطبيعة المواد التي استعملت في سكها.

وضعا فبامكان الوثيقة النقدية أن تكون أكثر ايحاء ودلالة إذا ما تم وضعها في اطار تاريخي معين. فلو أخذنا مثلا قطعة نقدية قديمة فهي في حد ذاتها تحمل معلومات هامة ترتبط بوزنها وبنوعية المعادن التي تشكلها وبجودة السك وبالنقوش التي تحملها. وقد تسمح في بعض الأحيان بالاطلاع على صورة هذا الإمبراطور أوذاك أوالأشخاص الذين يلعبون دورا طلائعيا في الميدان السياسي. وقد تسمح أيضا في بعض الحالات باعطاء معلومات عن الحياة الدينية في المدن أو الدول القديمة إذا كانت تحمل صورا لهذا الاله أوذك أورسما لمعبد ما. وقد تسمح أيضا بمعرفة بعض الوقائع التي تكون مجهولة من طرف المؤرخ. فالعملة النقدية التي تحمل اسم حاكم مدينة مجاورة غالبا ما تحيل إلى فترة عرفت فيها المدينة التي ضربت العملة احتلالا أوتبعية سياسية لجارتها. غير أن هذه القطعة النقدية المعزولة (في متحف مثلا) لايمكنها أن تقول أكثر من ذلك للمؤرخ. في حين أنه إذا تم

العثور على نفس العملة في موقع أثري، داخل قبر معين أوفي وحدة استراتيغرافية معينة في سبر ما فبامكانها آنئذ أن تصبح شهادة ذات قيمة كبرى، حيث انها ستسمح بتأريخ المقبرة أو الوحدة الاستراتيغرافية مع كل ما يرافقها من مواد أثرية.

و. الصورة

يمكن أن نجمع تحت هذه التسمية كل الأشكال المرسومة سواء كانت مصبوغة على المزهريات أوالجدران أوفضاءات أوسع أوكانت تأخذ شكل فسيفساء. إن أهمية الصورة القديمة تكمن في كونها تشكل تعبيرا فنيا عن خطاب تاريخي أوديني أوخرافي. . . أولنقل حضاري عموما ولكونها تقدم أحيانا معلومات عن الحياة اليومية للقدماء. فمن خلالها يمكن أن نتعرف على أنواع الملابس المستعملة، والأسلحة والأثاث المنزلي وغير ذلك من الأشياء التي قد لا تخبرنا بها المصادر الأخرى. كما أن هذه الصور تسمح للمؤرخ بالتعرف على بعض جوانب الثقافة والفنون في فترة تاريخية ما، ولربما استطاع تتبع تطورها. بمعنى آخر باستطاعته أن يستشف من خلال دراسة هذا النوع من الوثائق تاريخا فنيا لعصر من العصور.

تلك إذن هي جملة المصادر والوثائق التي يعتمد عليها مؤرخ الفترة القديمة.

الفصل الثاني

الإطار الطبيعي والبشري

1 . الإطار الطبيعي

أ. روما والحوض المتوسطي

لقد كان للعامل الجغرافي دور حاسم في التطور الذي عرفته روما. فامتداد الامبراطورية الرومانية وعلاقاتها مع باقي مناطق البحر الأبيض المتوسط وتحويل هذا الأخير إلى بحيرة لاتينية كل ذلك يعود أساسا إلى عوامل ايجابية وفرها الموقع. فقد جعلها هذا الأخير تتوسط البحر الأبيض المتوسط. ورغم كونها أكثر شبه جزره (اليونانية والإيبيرية) توغلا في البحر إلا أنها أيضا ملتحمة بالقارة الأوروبية عبر سهل البو. كما أنها تقترب من الساحل الإفريقي عبر جزيرة صقلية التي تعتبر امتدادا طبيعيا لإيطالية.

إن شبه جزيرة إيطالية هي بمثابة حد فاصل بين الحوضين الغربي والشرقي للمتوسط. وقد خول لها هذا الموقع المتميز أن تقوم بدور نقطة تواصل ولقاء لمختلف التيارات الثقافية التي عرفها حوض المتوسط بالاضافة إلى الثقافات الأوروبية القادمة من الشمال والإفريقية الآتية من الجنوب. فمنذ آلاف السنين شهد الحوض الشرقي للمتوسط قيام عدة حضارات وامبراطوريات عظمى كانت تتنافس من أجل السيطرة على مياهه واحتكار طرق تجارته : امبراطورية الفراعنة في الجنوب، ودويلات المدن الفينيقية على السواحل الشرقية إضافة إلى المملكة الميسينية في اليونان وكريت وبحر ايجه. ومنذ النصف الثاني للألف الثانية قبل الميلاد تمكن بعض المغامرين الميسينيين من الوصول إلى سواحل صقلية وجنوب إيطالية ودخلوا البحر الأدرياتيكي. وانطلاقا من القرن الحادي عشر قبل الميلاد أخذ الفينيقيون يجوبون البحر الأبيض المتوسط من شرقه إلى غربه وأسسوا بعض المستوطنات والمراكز التجارية بسواحله. ثم تبعهم الإغريق الذين استقروا انطلاقا من القرن الثامن قبل الميلاد في الجنوب الإيطالي وفي جزيرة صقلية.

أما سواحل الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط فقد احتلتها منذ أزمنة غابرة شعوب وقبائل مختلفة كانت تعتمد على اقتصاديات رعوية أو زراعية وثقافات دينية قريبة من

اهتماماتها اليومية وهمومها المحلية. ورغم أن حضاراتها لم ترق إلى مستوى الحضارات الشرقية فإنها كانت تعرف تنظيمات مختلفة تؤطر حياة أفرادها. فالمناطق الساحلية لإفريقيا كانت تتقاسمها ثلاثة شعوب كبرى : اللوبيون والنواميذ والموريون. وعلى العكس من الاعتقاد السائد لدى العديد من المؤرخين بكون هذه الشعوب ظلت تعيش على هامش التاريخ فإن البحوث قد أثبتت أنها ربطت علاقات متنوعة الأشكال منذ فترة مبكرة مع مصر الفرعونية وصقلية وشبه الجزيرة الإيبيرية وخصوصا مع الفينيقيين. ولعل أكبر شاهد على هذه الروابط التي جمعت ساكنة إفريقيا مع الشعوب الشرقية هو قيام تلك الحضارة الراقية التي اصطلح على تسميتها بالحضارة البونيقية والتي كانت عاصمتها قرطاج.

وفي شبه جزيرة إيبيريا كانت تعيش جملة من الشعوب ذات الثقافات المتنوعة والتي غلب عليها الطابع العسكري (الكلتوإيبيريين). وقد اتجهت أنظار الفينيقيين أيضا منذ فترة مبكرة إلى هذه المنطقة التي تتوفر على مناجم المعادن الثمينة. أما بلاد الغال فقد كانت تشكل مجالا لعنصرين هامين : اللوغوريون والكلتولوغوريون في الشرق، والإيبيريون والكلتوليبيريون في الغرب. وكانت قبائل هذه الشعوب تجتمع أحيانا ضمن كونفدراليات تحكمها أرستقراطية مشكلة من كبار القادة وشيوخ القبائل. وقد ربط بعضهم منذ القرن السابع قبل الميلاد علاقات تجارية مع الإغريق الذين أسسوا بعض المستوطنات في هذه المناطق[12].

ذلك إذن هو المجال المتوسطي الذي سيشهد ميلاد روما والذي سيلقى تأثيراتها فيما بعد.

ب. إيطالية : جغرافية التجزؤ الإقليمي

إيطالية عبارة عن شبه جزيرة ضيقة تخترقها جبال الأبنين التي تفصلها إلى عدة أقاليم. كما أن هذه القمم الجبلية تقف حاجزا فاصلا بين الساحل الشرقي والساحل الغربي لشبه الجزيرة. إن تنوع التضاريس وتجزأها قد سمح بتقوية عزلة العديد من المناطق والشعوب التي اعتادت على المقاومة من أجل الحفاظ على استقلالها. وهكذا فتجزؤ التضاريس قد ساهم بفعالية كبيرة في ارساء قواعد الاختلافات العرقية في عدة مناطق إيطالية وفي استمرارية الخصوصيات المحلية التي منعت قيام وحدة وطنية مبكرة. في الشمال كانت جبال الألب تشكل حاجزا بين شبه الجزيرة الإيطالية والقارة الأوروبية. غير أن هذه الكتلة الجبلية تتضمن في قسمها الشرقي على الخصوص بعض الممرات والأودية التي سمحت لبعض الشعوب المهاجرة أو المهاجمة القادمة من الشمال باختراقها منذ عصور ما قبل التاريخ والاستقرار في بعض مناطق إيطالية.

---

[12] - كمساليا Massalia (مرسيليا) و أنتيبوليس Antipolis (الأنتيب) و نيكويا Nicoia (نيس) . .

ونظرا لكون المناخ الإيطالي يطغى عليه طابع الجفاف فإن الامكانيات الفلاحية لشبه الجزيرة كانت غير متساوية. فرغم وجود بعض السهول التي يمكن أن تساعد على إقامة أنظمة زراعية (كسهل البوPô في الشمال والكامبانيا Campania في الوسط الغربي وأبوليا Apulia في الجنوب) فإن المناخ السائد كان يشجع الاقتصاد الرعوي. وهذه الخصوصية المناخية هي التي تفسر جاذبية المناطق السهلية التي تتمتع بامكانيات زراعية هائلة – كسهل الكامبانيا – التي أصبحت محط نزاعات مستمرة بين شعوب المنطقة.

ورغم مميزات موقع شبه الجزيرة الذي منحها ثلاث واجهات بحرية[13]، فإنه لم يقدر لها أن تصبح قوة بحرية يمكن مقارنتها بالإغريق أوبالفينيقيين. إن السبب في ذلك يعود أساسا إلى كون طبيعة السواحل الإيطالية لا توفر الظروف المواتية لإقامة موانئ. فالساحل الشرقي مثلا الذي تتاخمه سلسلة الأبنين لا يتوفر على نقط بحرية يمكن أن تصلح لإقامة موانئ طبيعية. في حين أن السواحل الغربية مجزأة بشكل سمح لها بالتوفر على بعض الخلجان ولكنها في نفس الوقت لا تعرف تواكب كل الظروف المناخية والطبيعية التي تسهل حياة بحرية. يضاف إلى ذلك أن ثقافات الشعوب الإيطالية الرعوية والمنطوية على نفسها لم تساعد على توجيه الأنظار إلى استغلال الموارد البحرية أو إلى تشجيع العلاقات مع العالم الخارجي. رغم ذلك فإن هذه السواحل (خصوصا منها الجنوبية والغربية) هي التي استقبلت مهاجرين بحارة قادمين من بلاد الإغريق سيقيمون العديد من المراكز البحرية التي أدت إلى خلق مجتمعات بحرية مختلفة تماما عن التجمعات القبلية الداخلية.

ج. سهل اللاتيوم : Latium

في هذا المحيط الإيطالي ستنشأ روما. وكان ميلادها في سهل صغير لا تتجاوز مساحته 2000 كلم^2 مفتوح على البحر التيريني ويحتل موقعا وسطا في شبه الجزيرة. إنه سهل اللاتيوم الذي يحد في الشمال والشمال الغربي بالمجرى الأسفل لنهر التبر وفي الشرق بجبال الأبنين الصابينية وفي الجنوب والجنوب الشرقي بالساحل التيريني. وقد كان هذا السهل في أصله عبارة عن خليج بحري امتلأ في نهاية العصر الجيولوجي الثالث وبداية الرابع بالمواد البركانية التي نفثتها جبال الأبنين والتي أدت إلى تكوين قشرة من الصخور البركانية. واذا كان هذا السهل بفعل تكوينه لا يمثل مجالا مثاليا يساعد على تطوير النشاط الزراعي فانه بسبب الرطوبة التي يعرفها – نظرا لانفتاحه على البحر– قد ساعد على توفير الظروف الملائمة لقيام نشاط رعوي.

إن أهم عنصر طبيعي في منطقة اللاتيوم هو نهر التبر الذي يخترق السهل في قسمه الشمالي من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي. ويعرف هذا النهر الذي يبلغ طوله 400

[13] – الساحل التيريني في الغرب و الساحل الإيوني في الجنوب و الساحل الأدرياتيكي في الشرق.

كلم نظاما متوسطيا (أي فيضانات موسمية قوية). وهو يفتقر إلى نقط العبور الشيء الذي زاد من أهمية موقع روما الذي يعتبر من أهم النقط الاستراتيجية التي تسهل الاتصالات بين الشمال والجنوب. وقد كان مستوى مياه نهر التبر في القديم أكثر انتظاما من اليوم الشيء الذي مكنه من استقبال المراكب البحرية وبالتالي فقد شكل خطا للمواصلات النهرية يربط بين جبال الأبنين وسهل اللاتيوم.

على الضفة اليسرى لهذا النهر نشأت روما في موقع كانت التعرية قد عملت على نحت صخوره البركانية بشكل ظهرت معه سبعة تلال استغلها الانسان الروماني للتحصن فوقها خوفا من الاعتداءات الخارجية. أما جزيرة التيبيرية التي تنتصب وسط مجرى النهر فقد استغلت لتسهيل العبور بين ضفتي الوادي. إن هذا الموقع الاستراتيجي قد ساهم في توجيه خط التطور الذي ستعرفه روما والذي سيجعلها تلعب دور المركز التجاري الذي يضمن استمرارية العلاقات بين المنطقتين الأكثر تقدما في إيطالية : البلاد الأتروسكية في الشمال والمستوطنات الإغريقية في الجنوب. وكانت تلك هي الخطوة الأولى التي ستدفع بروما في اتجاه القيام بدور القوة الموحدة للمناطق والشعوب الإيطالية.

2- شعوب إيطالية ما قبل الرومانية

في منتصف القرن الثامن قبل الميلاد (أي في الوقت الذي تحدد فيه الأسطورة بناء روما) كانت شبه الجزيرة الإيطالية تحتضن مجموعة من الشعوب بعضها استقر منذ فترة قديمة وبعضها الآخر كان في طريقه نحو الاستقرار. وسرعان ما ستحتل حضارتان مركز الصدارة في هذا الفضاء الإيطالي : الحضارة الأتروسكية في الشمال وحضارة المستوطنات الإغريقية في الجنوب وهما الحضارتان اللتان سيكون لهما أكبر الأثر على حضارة روما الناشئة.

أ. شعوب إيطالية البدائية:

عرفت إيطالية منذ عهد قديم وكباقي المناطق المتوسطية استقرار الانسان. ولكن على الرغم من التقدم الكبير الذي حققته البحوث الخاصة بفترة ما قبل التاريخ فان الأحداث التي عرفتها هذه الفترة ما زالت عسيرة المنال. ودون الدخول في تفاصيل هذه الفترات التي غالبا ما تختلف فيها آراء الباحثين نكتفي بالاشارة إلى أن العرق الذي سكن إيطالية قبل وصول الشعوب الهندوأوروبية والذي اصطلح على تسميته بالسلالة المتوسطية ظلت بقاياه المكونة من بعض القبائل المحلية وبعض المهاجرين الذين عبروا البحار متواجدة بشبه الجزيرة. ومن أهم تلك الشعوب الليغوريون Ligures الذين كانوا يقطنون الجبال شمال إتروريا على ضفاف خليج جنوة والسيكانيين Sicanes وهم سكان جزيرة صقلية الذين تم إبعادهم إلى

جنوب غرب الجزيرة [14] من طرف شعب السيكول Sicules القادم من إيطالية في القرن الثالث عشر قبل الميلاد[15]. ويعتقد أغلب المتخصصين أن السيكول ينتمون إلى العرق المتوسطي باعتبار أن عاداتهم المبنية على سيادة المجتمع الأمومي غريبة تماما عن عادات وتقاليد الشعوب الهندوأوروبية. كما أنهم يفترضون وجود علاقات قرابة بينهم وبين عناصر بشرية أخرى في جنوب إيطالية [16].

يتفق مؤرخو عصور ما قبل التاريخ إذن على القول بوجود بقايا متوسطية سبقت الهجرات الهندوأوروبية تفتقر إلى وحدة ثقافية رغم أن علماء اللسنيات يزعمون أنهم توصلوا إلى الكشف عن آثار وحدة لسنية. غير أن هذه المشاكل المرتبطة بعصور ما قبل التاريخ ما زالت محل شكوك وتساؤلات. فبالنسبة لبعض المؤرخين كل هذه الشعوب التي ذكرناها كانت توحد بينها قرابة خرافية يجب البحث عن أصولها في منطقة أركاديا Arcadie. وهم يعتمدون في هذا القول على نصوص الشاعر فرجيليوس الذي ذهب إلى حد اعتبار روما نفسها من تأسيس الأركاديين. ولا شك أن هذه الخرافة تجد تفسيرها في الدور الهام الذي لعبه الأركاديون في عملية تأسيس المستعمرات الإغريقية في الجنوب الإيطالي بل يمكن أن يكونوا وراء نشر هذه الخرافة.

وفي نهاية الألف الثانية قبل الميلاد وبعد هجومات الشعوب الهندوأوروبية التي اكتسحت جزءا هاما من القارتين الأوروبية والأسيوية[17] استقرت بإيطالية أمم عبرت جبال الألب واستطاعت بقوتها وكثافتها أن تغطي القبائل الأصلية. وكان لهذا الحدث أثره البالغ في تشكيل الخريطة الاثنوغرافية لإيطالية. فخلال القرن الثامن قبل الميلاد كانت هذه الخريطة مشكلة من عدة شعوب أهمها :

ـــ الفينيت Vénètes: ترجع أصولهم حسب رواية هيرودوت إلى ايليغيا Illyrie. ولا شك أن استقرارهم في أقصى الشمال الشرقي لشبه جزيرة إيطالية قرب مصب نهر البو Pô

---

[14] - منطقة جيلا Géla و أكريجونت Agrigente

[15]- حسب بعض الروايات فان هدا الحدث وقع خلال القرن الحادي عشر قبل الميلاد.

[16]- كقبائل Oenâtres و Chônes و Morgètes و Itales و جدير بالذكر أن هده الأسماء أطلقها الإغريق على هذه الشعوب و غالبا ما كانوا يجمعونهم تحت اسم واحد : Pélasges

[17] - هي خليط من شعوب ومجموعات قبلية لا تجمع بينها روابط عرقية ولم تعرف وحدة سياسية أو ثقافية. غير أنها عرفت ثورة ثقافية هامة خلال الألف الخامسة أو الرابعة قبل الميلاد تجلت في ظهور اللغة الهندوأوروبية. ويتفق رأي الباحثين على المجال الأصلي لهذه الشعوب في منطقتين متباعدتين نسبيا : سهوب روسيا الجنوبية وسواحل البحر الأسود من جهة ثم ضفاف نهر الدانوب من جهة أخرى. و قبل 2000 قبل الميلاد تفككت وحدة هذه الشعوب الهشة وانطلقت آنئذ العديد من الجماعات الهندوأوروبية في سلسلة من الهجرات التي اتجهت نحو الجنوب إلى آسيا وأوروبا والتي ساهمت بشكل فعال خلال ما يقرب من 3000 سنة في تعمير القارتين (نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر :الحتيون، الهندإيرانيون، الأرمينيون، الإغريق، الكلتيون، الجرمانيون. . .).

قد ساهم في تدعيم علاقاتهم مع المناطق المتاخمة للساحل الأدرياتيكي. ولقد أثبتت العديد من النقوش التي اكتشفت في موقع إستي Este وماغري Magré وبادوPadoue أن هذا الشعب كان يستعمل لغة هندوأوروبية بدائية. وفي غضون القرنين السادس والخامس قبل الميلاد ستصل إلى سهل البو مجموعة من القبائل الكلتية عن طريق تسربات بطيئة في البداية تلتها هجرة كثيفة كانت السبب في اطلاق اسم بلاد الغال ماقبل الألبية Gaule Cisalpine على أقصى الشمال الإيطالي. وستعرف ثقافتهم انتشارا وصل إلى حدود البلاد الأتروسكية.

ــ أما الأمبريون فقد شكلوا في الفترة التي سبقت قيام الحضارة الأتروسكية أحد أهم الشعوب الإيطالية. وكان مجالهم الجغرافي يمتد من المنطقة الخلفية للساحل الأدرياتيكي إلى مجرى نهر التبر الأعلى. وقد تمكن العلماء من التعرف على لغتهم بعد اكتشاف لوحات برونزية (Tables Eugubines) تحمل نصوصا تتعلق بالآلهة والطقوس التي كانت تعبد في مدينة أيغوفيوم[18] الواقعة على نهر الميطور.

ــ يتاخمهم على الساحل الأدرياتيكي شعب البيكينيين في منطقة أنكون ثم في الجنوب نجد قبائل السابان والسامنيت التي تتاخم اللاتينيين في جهة الشرق والجنوب الشرقي. وتطلق على هذه القبائل تسمية موحدة هي السابيليين التي تضم أيضا شعوب الماسيس والأوسك والفولسك والكومبانيين المستقرين بمنطقة نابلي Naples والذين اختلطوا بالأوسك والأوزون الذين استقروا قبلهم.

ــ وبعيدا في الجنوب، على الساحل الأدرياتيكي، نجد الفرانتيين والأبوليين ثم الياباج والميسابيين حول مدينة تارونتا Tarente وهي كلها شعوب من أصل إيليغي كما سبق وأخبرتنا به الكتابات القديمة ثم أقرته الأبحاث الحديثة.

ــ أما في الجانب الآخر من الحذاء الإيطالي فنجد الشعوب اللوكينية والبروتية التي اختلطت بالقبائل المحلية التي يعتبرها الباحثون من أصل متوسطي.

ــ وسط تلك الشعوب كلها احتل اللاتينيون السهل الوحيد بإيطالية الوسطى الواقع بين نهر التبر وجبال الألبان : سهل اللاتيوم. ولقد أثبتت البحوث الأثرية أن هذا الأخير عرف استقرار الانسان في وقت متأخر نسبيا. فيجب انتظار العصر الحجري الحديث كي تظهر آثار ساكنة كانت تدفن موتاها وتنتمي إلى بقايا العرق المتوسطي. ومع العصر الحديدي برزت حضارة أخرى اصطلح على تسميتها باللاتيال[19] civilisation latiale تعتبر جزءا من

---

[18] - Gubbio الحالية

[19] - اسم مشتق من اللاتيوم. وقد سميت كذلك لأن حدود انتشار هذه الحضارة تطابق حدود السهل.

الحضارة الفيلانوفية التي انتقلت في نهاية الألف الأولى قبل الميلاد من أوروبا واستطاعت أن تغطي الشمال الإيطالي. وقد تميزت هذه الحضارة باعتماد عادة حرق الأموات عوض دفنهم. وقد كانت المقابر التي تم اكتشافها في اللاتيوم (مقابر ألبا واردي مثلا) تتشكل من مرمدات على شكل أكواخ كان السكان يضعون فيها رفات الأموات بعد حرقهم. وابتداء من القرن السابع قبل الميلاد يميز المتخصصون مرحلة ثانية في هذه الحضارة يعكسها ظهور بعض القبور التي تشهد ببداية عادة انتشار الدفن. في حين أن الفترة الثالثة التي تلت مباشرة هذه الأخيرة تميزت على الخصوص بالانفتاح على الحضارة الأتروسكية في الشمال. ورغم هذه الاختلافات التي نرصدها في حضارة اللاتيال فانها توحي بنوع من الاستقرار والاستمرارية وقد استطاعت بالفعل أن تتميز عن الحضارة الفيلانوفية التي عاصرتها في أمبريا واترووريا وأيميليا.

ويحاول علماء اللسنيات تأكيد أصالة اللاتينيين عن طريق دراسة لغتهم التي اكتشف أقدم أثر لها في مدينة برينيست والذي يعود تاريخه إلى القرن السابع قبل الميلاد. إنهم يقولون إن اللاتينية هي لغة هندوأوروبية مختلفة تمام الاختلاف عن اللغة الأتروسكية التي انتشرت على الضفة اليمنى لنهر التبر. وتختلف أيضا عن اللغتين الإيطاليتين الأومبرية والأوسكية المنتشرتين في وسط وجنوب شبه الجزيرة باعتبار أن اللاتينية تبدو أكثر بدائية منهما. وقد قادتهم هذه الملاحظات إلى افتراض أن اللاتينية قد انبثقت عن الأرومة الهندوأوروبية المشتركة. أي أنهم يميلون إلى الرجوع بهذه اللغة إلى موجة أولى من الشعوب الهند وأوروبية التي قد تكون سبقت غيرها إلى الاستقرار في إيطالية منذ بداية الألف الأولى قبل الميلاد والتي استطاعت أن تتغلب على العرق المتوسطي قبل أن تتلوها موجات أخرى من المهاجمين الهندوأوروبيين.

غير أن هذه الرؤية لا تلقى إقبالا كبيرا لدى المؤرخين. ذلك أنهم لا يتصورون إمكانية حدوث هجرة كثيفة للشعب اللاتيني عبر سهل البو قبل استقراره في اللاتيوم. ورغم أنهم لا ينفون حدوث هجرة من الشمال إلى الجنوب الا أنهم يعتبرون أنها كانت ذات كثافة محدودة بحيث أنها لم تستطع القضاء نهائيا على بقايا السلالة المتوسطية. وكل ما يلاحظونه هو انتشار عادات وتقاليد لسنية وثقافية لدى بقايا هذه السلالة. وهم بهذه الأطروحة يؤكدون أن البقايا المتوسطية هي العنصر الأساسي الذي ساهم في وحدة إيطالية.

ــ **الأتروسكيون** : في شمال نهر التبر كان يمتد مجال الشعوب الأتروسكية الذي يبدأ من نهر الأرنو في الشمال إلى نهر التبر في الجنوب. وقد كان لهذا الشعب أثره الحاسم في التطور الذي عرفته روما منذ نشأتها.

لقد ظلت أصول الشعب الأتروسكي تشكل لغزا يحير العلماء منذ فترة طويلة. فانطلاقا من القرن الثامن قبل الميلاد أخذت منطقة طسكانة التي كانت مهدا للحضارة الفيلانوفية

تشهد تحولات عميقة تجلت في ظهور العديد من المظاهر الجديدة التي تنم عن دخول عناصر غريبة غيرت مجرى الحياة وأدت إلى ابراز معالم حضارة جديدة (ظهور المدن، انتشار عادة دفن الأموات، تبني الكتابة. . .). هل معنى ذلك أن الأتروسكيين هم من الشعوب الهندوأوروبية التي حلت في القرن الثامن بطوسكانة؟ رغم ان بعض العلماء حاولوا ربطهم بالهجرات القادمة من اوروبا الوسطى فإن هذه النظرية تبدو متجاوزة اليوم باعتبار أن اللغة الأتروسكية لا تنتمي -بإجماع العلماء- إلى فصيلة اللغات الهندوأوروبية. بقي الجدل قائما حول نظريتين يعود تاريخهما إلى الفترة القديمة. فالمؤرخ هيرودوت يعتبرهم من المهاجرين القادمين من آسيا الصغرى، في حين يؤكد ديونيسيوس الهاليكارناسي أنهم سكان محليون تكونت حضارتهم وتطورت في اترورريا.

وقد أثارت كلتا النظريتين جدلا واسعا بين المؤرخين المحدثين. وكان لأصحاب كل من النظريتين بالطبع ما يؤيد آراءهم وما يعارضها من حجج. وكيفما كان الحال فقد أصبحت نظريات الأصل الأتروسكي هذه متجاوزة اليوم. اذ أن الاتجاه الجديد الذي لقي ترحيبا واسعا لدى المهتمين يعتبر الأتروسكيين من الشعوب المتوسطية القديمة التي تنتمي إلى هذا المجال الجغرافي والاثنوغر افي الإيطالي الذي عرف عدة قطائع متتالية ومتفاوتة الأهمية نتيجة الهجومات الكاسحة للشعوب الهندوأوروبية. غير أن أترورريا عرفت ازدهار الحضارة الفيلانوفية شأنها في ذلك شأن أمبريا. وهذا التناقض هو الذي عقد مشكلة الأصل الأتروسكي. وكحل لهذه الإشكالية دعا البعض إلى عدم الربط بين الحضارة الجديدة التي تطورت خلال القرن السابع قبل الميلاد وبين الشعب الذي تطورت لديه. أي أن الأمر لا يتعلق بهجرة شعب جديد دخيل على المنطقة بقدر ما يعكس حضارة عرفت ازدهارا كبيرا تبعا لميكانزمات تطورمحلي. وسواء أكانت هذه الرؤية صائبة أم كانت مجرد محاولة للتوفيق بين دعاة الأصل الأهلي ودعاة الأصل الأجنبي فانه من الصعب جدا نفي المؤثرات الشرقية التي برزت آثارها واضحة في الحضارة الأتروسكية. وتفسير هذه التأثيرات يكمن في تزامن وصول جماعات جديدة قادمة من بلاد الأناضول مع ظهور أنماط ثقافية جديدة في منطقة طوسكانة. غير ان هذه الهجرة لم تكن كثيفة ولا عنيفة باعتبار أن علماء الأتروسكيات يؤكدون أن المرور من الفترة الفيلانوفية إلى الفترة الأتروسكية يتم بشكل مباشر في المواقع الطوسكانية رغم وجود بعض المشاكل الكرونولوجية التي لا نرى ان المجال مناسب لطرحها هنا.

ب.ثقافات إيطالية البدائية

رغم التنوع الكبير لشعوب شبه الجزيرة فإن ثقافاتها تبقى أقل اختلافا من شعوبها. ومن الخطأ الاعتقاد بامكانية وضع خط فاصل بين ثقافة الشعوب المتوسطية والشعوب الهندوأوروبية، ذلك أن الباحثين لا يؤمنون بفكرة وجود قطيعة بينهما. فمثلا، رغم أن

الأولى كانت تعرف عادة دفن الأموات في حين أن الثانية كانت تقوم بحرقهم وهي تقاليد تبدو واضحة في حقل الآثار فإنه لا يمكن اعتمادها في التمييز بين الثقافة المحلية والثقافات الدخيلة. فكما يحدث عادة في تطور العلاقة بين شعب منتصر وآخر منهزم، فان بعض الأهالي قد تبنوا عادات الدخلاء أو العكس. فالأجدر بنا إذن أن نتحدث عن ثقافة سائدة أوعادة طاغية مادام أن العلاقات قد تشابكت منذ أمد بعيد بين شعوب المنطقة على اختلاف أنواعها وتبادلت التأثير والتأثر.

باستثناء جبال الأبنين حيث تعيش قبائل على النمط الجبلي المتسم بالقسوة تعرف باقي المناطق الأخرى نمط عيش يجمع بين حياة الترحال والزراعة مع بقايا الأنشطة القديمة كالصيد والقنص. وكنتيجة حتمية للظروف الطبيعية (سدس الأراضي الإيطالية تغطيها الجبال) فقد احتل الرعي موقعا أساسيا في الاقتصاد البدوي حيث يطغى على النشاط الفلاحي. ولهذا كانت العديد من الشعوب الإيطالية تعتمد على الرعي وحياة الترحال. فسكان اللاتيوم مثلا كانوا يرحلون كل سنة إلى أمبريا، ومن هنا نشطت المبادلات وولدت معها النزاعات والخلافات الجهوية. . .

وبالمقابل فقد تعددت في إيطالية اللغات واللهجات المحلية التي تنتمي في غالبيتها إلى اللغات الهندوأوروبية. فقد أثبت علماء اللسنيات وجود لغة هندوأوروبية بدائية تشكل عنصرا أساسيا في الثقافة الإيطالية. وجدير بالذكر أن اللاتينية التي كانت لغة روما الرسمية قد احتفظت بالعديد من الكلمات الهندوأوروبية التي تنطبق على العديد من مظاهر وأشكال الحياة الدينية والدستورية وحتى العائلية البدائية[20] . وبالاضافة إلى اللاتينية كانت هناك لغات ولهجات أخرى كاللغة الفينيتية والأومبرية ولغات السابينيين والمارسيز والفولسك وغيرها. . .

في هذا الفضاء الإيطالي المتنوع تميزت منطقة طوسكانة منذ نهاية القرن الثامن وبداية القرن السابع قبل الميلاد بتطور حضارة أصيلة سيكون لها أكبر الأثر على التطور السياسي والحضاري الذي ستعرفه إيطالية فيما بعد : إنها الحضارة الأتروسكية.

[20] - يمكن أن نضرب مثلا لذلك : rex, flamen, credo, pater

الفصل الثالث

الحضارات المؤثرة

I . الحضارة الأتروسكية

كتب تيتوس ليفوس يقول : «**قبل ظهور القوة الرومانية كان الأترسكيون قد تمكنوا من توسيع منطقة نفوذهم في البر والبحر حتى أن أسماء البحرين ، البحر الأعلى والبحر الأسفل ، اللذين يتاخمان إيطالية ويحولانها إلى جزيرة تشهد على قوة هذا الشعب . فقد أطلقت شعوب إيطالية على أحدهما اسم البحر الأتروسكي نسبة إلى الأمة الأتروسكية ، وعلى الآخر اسم البحر الأدرياتيكي نسبة إلى أدريا وهو اسم مستعمرة اتروسكية . . .**»

يشهد هذا النص على مدى قوة الشعب الأتروسكي واشعاع حضارته. ففي بداية القرن السابع قبل الميلاد تمكن الأتروسكيون عن طريق التوسع التدريجي من بسط سيطرتهم على اترووريا وقسم كبير من أمبريا فوصلوا بدولتهم إلى حدودها الطبيعية في إيطالية الوسطى، حيث أصبحت جبال الأبنين تحدها من الشمال والشرق والبحر التيريني من الغرب ونهر التبر من الجنوب. وسرعان ما تلا هذا التوسع حدوث اندماج بين الأتروسكيين والشعوب التي أصبحت تحت سيطرتهم بشكل جعل هذه الشعوب تستفيد من التجربة الأتروسكية خاصة فيما يتعلق بالمؤسسات السياسية وبعض مظاهر الحياة المادية والروحية.

أ.حضارة مدن

فالحضارة الأتروسكية هي قبل كل شيء حضارة مدن. لقد اشتهر اصحابها ببراعتهم في تأسيس المدن التي شكلت الاطار الأساسي الذي تطورت فيه ثقافتهم. وهم الذين لقنوا الرومان مبادئ تصميم المدن وبنائها. وإذا كان المؤرخون متفقين اليوم على القول بأن الأتروسكيين تأثروا بالإغريق في فن إنشاء المدن خصوصا فيما يتعلق بتبنيهم للتصاميم الهندسية السائدة عندهم، فهم لا ينكرون كونهم حرصوا على تقنين وتنظيم عملية البناء. فالمدينة الأتروسكية هي قبل كل شيء منشأة دينية تحدد على بقعة أرضية ما مركزا دينيا وسياسيا متميزا عن البادية. وغالبا ما كانت أسوار المدينة تلعب دور الفاصل بين المجال

الحضري والمجال البدوي. أما من حيث الهندسة والتصميم الداخلي فهي تتميز بوجود شارعين رئيسيين يخترق أحدهما المدينة من الشمال إلى الجنوب ويدعى الكاردوCardo، في حين يخترقها الثاني من الشرق إلى الغرب ويدعى الديكومانوس decumanus ويشكلان المحورين الأساسين للتصميم الحضري. وتتوفر المدينة عموما على ثلاثة أبواب تنفتح إحداها على المقبرة. واذا كانت المدن الأتروسكية القديمة لا تحافظ دوما على هذا التصميم المبدئي فإن الحديثة منها (ككابوا Capoue، وسبين Spine. . .) هي أكثر تطابقا معه.

ب. الدولة والمجتمع

لقد كانت المدن الأتروسكية مستقلة وتخضع لأنظمة ملكية. ورغم أننا لا نملك الوثائق اللازمة التي بامكانها إبراز معالم هذا النظام فإن تاريخ روما في نشأتها الأولى قد احتفظ لنا بذكريات نستشف من خلالها أهم ملامح النظام السياسي الذي عرفته المدن الأتروسكية. لقد كان الملك lucumons يتمتع بسلطة مطلقة. فهوصاحب الحل والعقد والقائد الأعلى للجيش ورئيس السلطة المدنية والقضائية. ومما كان يزيد في قوته كون سلطته كانت ذات طابع ديني باعتباره كان يملك أسرار الدين التي تمكنه من القيام بدور الوسيط بين الانسان والآلهة. وهوبذلك يملك الحق في توريثها لمن يشاء.

ويبدو أن اتروريا عرفت خلال القرن السادس قبل الميلاد تحولات أدت إلى تراجع الأنظمة الملكية لصالح الأرستقراطية وهوتطور لم يقتصر على المدن الأتروسكية فحسب بل عم جهات متعددة في شبه الجزيرة الإيطالية. ولقد برزت معالم هذا النظام الجديد في العديد من المدن الأتروسكية التي أصبحت الأرستقراطية تحتكر فيها السلطة السياسية عن طريق حكام (Zilath) ورثوا أو اقتسموا امتيازات الملكية البائدة. ومن المحتمل جدا أن تكون هذه النظم الجديدة قد أتت بعد فترة شهدت خلالها هذه المدن تجارب نظم حكم استبدادية ترمز اليها فترة حكم طاركان القوي في روما.

أما من الناحية الاجتماعية، فقد كانت المدن الأتروسكية ذات نظام أوليغارشي تتعارض فيه مصالح فئة قليلة من السادة وجماهير العبيد التي تقوم بخدمتها. وهذا ينطبق أيضا على البوادي التي يسود فيها نظام شبيه بالاقطاع. وتشهد على هذه البنية الاجتماعية جملة من الكتابات المنقوشة التي تعود إلى الفترة الطوسكانية. ففي مختلف المناطق الأتروسكية كانت هناك بضع عائلات كبرى تحتكر الثروات والسلط وتستغل باقي أفراد المجتمع لخدمتها إما بشكل مباشر عن طريق نظام العبودية أوبأشكال ملطفة أهمها نظام الزبونية أوالتبعية[21].

---

[21] – الأتباع أو الزبائن هم الأشخاص الذين يحتلون موقعا وسطا بين الحرية والعبودية. فقدكان بامكانهم أن يتمتعوا بحق الملكية و التنقل. . . غير أنهم مجبرون على أداء جملة من الخدمات (أعمال فلاحية وعسكرية على الخصوص) للسيد الذي يمنحهم مقابل ذلك حمايته. عن هذا النظام انظر ص. 63.

ولقد كان العبيد يشكلون طبقة منسجمة وهامة في الشريحة الاجتماعية بالنظر لعدد أفرادها الذين ينتمون في غالبيتهم إلى الشعوب التي انهزمت أمام الأتروسكيين (الأمبريون مثلا) والذين سقطوا أسرى أثناء المعارك. وكانت توكل لهؤلاء العبيد كل أنواع الأشغال سواء كانت فلاحية أوعسكرية أومنزلية. وفي منتصف القرن السادس قبل الميلاد، وكنتيجة حتمية للتطور التجاري والصناعي، ستظهر بالمدن الأتروسكية طبقة جديدة ستلعب دورا حاسما في التطورات التي شهدتها هذه المدن خصوصا على المستوى السياسي والتي أدت إلى انهيار الملكية.

أما بالنسبة للمرأة فقد احتلت موقعا هاما في النظام الاجتماعي إلى درجة أن الأتروسكيين كانوا يعترفون لها بحقوق مماثلة تقريبا لحقوق الرجل فيما يتعلق بشجرة النسب وتنظيم حياة الأسرة. واذا كنا لا نتوفر على مصادر أدبية عن وضعية المرأة في الوسط الأتروسكي فإن الكتابات المنقوشة تحمل جملة من المعلومات التي تؤكد أنها كانت تتمتع ببعض الامتيازات عكس نظيراتها في شبه جزيرة إيطالية بل وفي غيرها من مناطق البحر الأبيض المتوسط. ولعل أكبر شاهد على ذلك كونها تمتعت بحق حمل اسم شخصي (كاسم طاناكيل Tanaquil المتواتر في الكتابات) إضافة إلى كون العديد من الرجال كانوا ينسبون إلى أمهاتهم خصوصا في الفترة المتأخرة. ولعل هذه المكانة المتميزة للمرأة هي التي دفعت ببعض علماء الأنتروبولوجيا إلى الاعتقاد بأن المجتمع الأتروسكي كان مجتمعا أموميا وهو اعتقاد خاطئ من وجهة النظر التاريخية.

ج. النظام الفيدرالي

لقد لمح العديد من الكتاب القدامى إلى وجود عصبة أتروسكية مكونة من اثنتي عشرة (أوخمس عشرة) مدينة دون اعطاء توضيحات عنها. ويبدو أن هذه العصبة التي كانت تجمع بين شعوب اتروريا قد تكونت خلال القرن السابع قبل الميلاد حول مركز ديني هو معبد الاله فولتومنا Fanum Voltumnae الذي كان يوجد بالقرب من مدينة فولزني Volsinies. ولا شك أن هذا المعبد الذي كان يجتمع فيه مندوبو المدن الأتروسكية مرة كل سنة حيث يقيمون احتفالات دينية تحت اشراف حاكم منتخب يمثل الشكل الوحيد الذي تتجلى فيه الوحدة الأتروسكية. ويعتقد بعض المؤرخين أن نشأة هذا النظام الفيدرالي كان سببه تأثر الأتروسكيين بالإغريق الذين كانوا سباقين إلى إرساء قواعد الكونفدرالية الأيونية. وكيفما كان الأمر فإن هذا التضامن الأتروسكي كان شكليا باعتبار أن هذا النوع من المؤسسات لم يستطع أن يؤدي بشعوب اتروريا إلى اتحاد سياسي وعسكري دائم وفعال وذلك من أهم الأسباب التي أدت إلى تفكك الأمبراطورية الأتروسكية وسقوطها في نهاية المطاف.

د. الديانة

لعل أهم عنصر يشهد على أصالة الحضارة الأتروسكية هو الديانة التي أذهلت شعوب العالم القديم. فقد اشتهر الرجل الأتروسكي بتدينه الشديد الذي وصل به إلى عدم التفريق بين الأنشطة الدينية والدنيوية لدرجة أن طبعه الديني أثار اهتمام القدامى والمحدثين على السواء. إن أهم ما ميز هذه الديانة عن غيرها من الديانات المتوسطية القديمة كونها كانت تعتبر في نظر الأتروسكي ديانة مُنزَّلة. وقد احتفظ لنا قيصر[22] بنص الرواية الأتروسكية التي تحكي الطريقة التي لقنت بها شخصيات أسطورية تعاليم هذا الدين لسكان مدينة طاركينيا . في حين ينسب مؤرخون قدامى آخرون لحورية فيكويا أو لأنبياء (Tages أوCacus) اختراع هذه الديانة التي كانت تشبه في تركيبها شعوب اتروريا. على أي، فكل المبادىء الدينية تم تدوينها في مجموعة من الكتب المقدسة (disiplina etrusca) كانت تحافظ عليها الفئات الأرستقراطية وتتوارثها سرا دون غيرها، وتعلمها لأبنائها طوال سنوات عديدة[23]. ويتم التمييز في هذه الكتب بين ثلاث سلسلات تشمل كلها العقائد والعبادات والمعاملات. فمنها «كتب الطقوس» (libri rituales) التي تتعلق بالمبادىء والقوانين الخاصة بانشاء المدن والمعابد، واحترام حرمة الأسوار وكل ما يتعلق بأمور الحرب والسلم. ومنها «كتب الصواعق» (libri fulgurales) والتي يعتمد عليها في تأويل إرادة الآلهة عن طريق ملاحظة البرق والرعد. ومنها كتب «فن فحص الكبد» (libri haruspicinales) التي تلقن طرق الكشف عن الغيب من خلال فحص كبد الضحايا الذين قدموا كقرابين للآلهة. وأغلب هذه الطقوس كانت سائدة لدى بعض الشعوب الشرقية خصوصا الكلدانيون والبابليون وهي نفسها التي سيحافظ عليها الرومان فيما بعد. كل تلك الطقوس كانت ضرورية للحياة السياسية والحياة اليومية لدى الأتروسكيين. فلقد كان الاعتقاد سائدا لديهم بأن الآلهة تتدخل في كل وقت وحين في أمور حياة الأفراد والجماعة وهو الشيء الذي يفسر حرص الأتروسكي واهتمامه بترجمة الرموز التي ترسلها الآلهة عبر أشكال ووسائل مختلفة. ولذلك كان وجود خبراء في تأويل الإرادة الإلهية ضروريا.

أما عن الآلهة الأتروسكية فرغم ان أسماء العديد منها معروفة، إلا أننا نجهل خصوصياتها ووظائفها والروابط التي تجمع بينها خصوصا وأنها اختلطت بآلهة الشعوب الإيطالية الأخرى وتأثرت بأخرى إغريقية بشكل جعلها تفقد طابعها الأتروسكي الأصيل. لكن أهم ما يميز الأتروسكي هو العناية الفائقة التي أولاها للعالم الأخروي. تشهد بذلك المقابر التي اكتشفها الأثريون في العديد من المواقع الأتروسكية والتي تتعاقب فيها الأضرحة التي يدفن فيها

22 - César, II, 23

23 - ذلك أن معرفة أسرار الدين كانت أحد العناصر التي تسمح للأرستقراطية بالسيطرة على المجتمع.

الموتى وبجانبهم العديد من الأواني الثمينة. إن اهتمامهم ببناء القبور وباختيار الأمتعة التي ترافق الميت يدل على إيمانهم بوجود حياة أخروية وهو اعتقاد ساد لدى العديد من شعوب الشرق القديم. وقد خلف الأتروسكيون مجموعة من الرسوم الجدرانية التي تصف رحلة الميت في العالم الأخروي وتصور الحياة الرغيدة التي يعيشها والمخاطر التي قد تسببها له الشياطين. ومن أسرار الديانة الأتروسكية أن بإمكان الانسان أن يضمن لنفسه حياة أطول تمكنه من الاستعداد للعالم الأخروي. وكان عليه أن يسعى لشراء روحه عن طريق تقديم القرابين التي قد تكون بشرية في بعض الأحيان. كما أن الاعتقاد السائد كان يقول بأن الانسان مراقب من طرف ملائكة أو شياطين طوال حياته الدنيوية وهو اعتقاد سنجده في بعض الديانات السماوية.

ويبدو أنه كان للأتروسكيون نظرية في خلق الكون تنسب للخالق قيامه بتحديد عمر الكون في اثنى عشر ألف سنة. حيث قام بخلق السماء والأرض خلال الألف سنة الأولى، ثم خلق الفضاء خلال الألف سنة الثانية، والماء والتراب خلال الألف سنة الثالثة. . . ثم خلق الانسان في الألف سنة السادسة. أما الستة آلاف سنة الباقية فهي المدة التي حددها لحياة الجنس البشري. وقد رأى بعض العلماء أن هذه المعتقدات إنما هي وليدة التأثيرات اليهودية وأن النص الذي نقلها إنما هو نص غير سليم من الناحية الكرونولوجية. وعلى كل حال فان اعتقادات مشابهة توجد لدى الشعوب الكلدانية في الشرق.

هـ- الكتابة واللغة الأتروسكية

يسود الاعتقاد لدى المؤرخين بأن الكتابة الأتروسكية تنحدر من الكتابة الإغريقية. ومن خلال الكتابات المنقوشة التي عثر عليها يمكن التمييز بين كتابتين مختلفتين أقدمهما هي التي عثر عليها في أحد قبور مرسيليانا دالبغنا (Marsiliana d'Albegna) منقوشة على لوحة عاجية يعود تاريخها إلى 700 ق. م. وهي مكونة من 26 حرفا فينيقيا والحروف الأربعة التي أضافها الإغريق. وقد استنتج من ذلك أن الأتروسكيين استعاروا هذه الكتابة من الإغريق خصوصا وأنها تطابق إلى حد كبير الكتابات الإغريقية القديمة خصوصا منها تلك التي كانت منتشرة في الغرب. لكن كيف وصلت هذه الكتابة إلى طوسكانة؟ هناك نظريتان مختلفتان حاولت كل منهما تفسيرذلك : فبعض المؤرخين (نظرية A. Minto) يعتبرون أن الأتروسكيين أخذوا هذه الحروف عن مستعمرة كوماي الإغريقية الواقعة على الساحل التيريني غير بعيد عن منطقة التأثير الأتروسكي، والتي كانت تربطها علاقات تجارية ببعض المدن الأتروسكية. ومما يساند هذه النظرية كون الكتابتين (الكتابة الأتروسكية وكتابة كوماي) متشابهتين. وبالنسبة لمؤرخين آخرين (نظرية A. Grenier) فإن الكتابة الأتروسكية هي أقدم من الكتابات الإغريقية الغربية باعتبار أنها ، على العكس من هذه الأخيرة، تحتفظ بالحروف الفينيقية الثلاثة : السين والشين والصاد. واذا كنا نعلم أن الكتابات

الإغريقية لم تحتفظ بهذه الحروف كلها فذلك يدل على أن الأتروسكيين قد أخذوا هذه الكتابة في وقت سابق للمد الاستعماري الإغريقي في الجنوب الإيطالي. بصيغة أخرى، فقد أخذوها مباشرة عن الفينيقيين الذين كانت تربطهم علاقات تجارية باترووريا.

ورغم أن الكتابات المنقوشة التي عثر عليها في مواقع أتروسكية أصبحت تزيد عن العشرة آلاف فإن فهم مضامينها لا يزال يستعصي على العلماء لكون اللغة الأتروسكية ما زالت تشكل لغزا لم يتم فك رموزه كلها. ورغم ذلك فقد توصل هؤلاء إلى ادراك معاني بعض الكلمات التي يتواتر ذكرها في النقوش[24].

تلك إذن هي الحضارة التي ستساهم بشكل فعال في التأثير على نشأة روما والتي ستستمر بعض مظاهرها قائمة لدى الرومان على مدى فترات طويلة من تاريخهم. وإذا كانت هذه الحضارة هي الوحيدة التي استطاعت أن تزدهر وتنضج في إيطالية وأن يصل إشعاعها إلى بعض مناطق حوض البحر الأبيض المتوسط عن طريق المبادلات التجارية، فإن السواحل الإيطالية كانت في الوقت نفسه تتعرض لتأثيرات حضارية أخرى قادمة من الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط عن طريق البحر والتي ستتفاعل كلها على الأرض الإيطالية.

2 . التأثيرات الشرقية

لقد شهدت بداية الألف الأولى قبل الميلاد حدثين هامين كان لهما أكبر الأثر على التطور الذي عرفته البلدان المطلة على الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط. يتعلق الأمر بالتوسع الفينيقي في المناطق الغربية بدافع البحث عن الثروات الاقتصادية من جهة، وبحركة الاستيطان الاغريقي الذي عم جنوب شبه الجزيرة الإيطالية وجزيرة صقلية بالاضافة إلى سواحل بلاد الغال وشبه جزيرة إيبيريا وذلك تحت تأثير الأزمة الاجتماعية التي عصفت بدويلات المدن اليونانية انطلاقا من القرن الثامن قبل الميلاد.

أ. التوسع الفينيقي في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط

تتفق الروايات التي تناولت موضوع أصل الفينيقيين على القول بأن هؤلاء الأقوام ليسوا من جنس السكان المحليين بل ظهروا في شمال منطقة الهلال الخصيب منذ بداية الألف الثالثة قبل الميلاد، ثم نزحوا بعد ذلك إلى السواحل السورية اللبنانية واختلطوا بسكانها الذين ينتمون إلى السلالة المتوسطية. وكل الكتابات التي تعرضت لهذا الشعب تؤكد أصله السامي. فهم جزء من الكنعانيين، رغم أن تحديد موطنهم الأصلي وأسباب هجرتهم لا تزال موضوع خلاف بين المؤرخين. وقد كون الفينيقيون جملة من دويلات

---

[24] – مثلا : فعل الوفاة (الموت) يعبر عنه بـ:lupuce، الإبن : clan، البنت : sex، الأم : ati. . .

المدن البحرية المستقلة (صور، صيدا، طرابلس. . .) التي كانت تفتقر إلى الوحدة السياسية. كما أنهم استطاعوا أن يقطعوا أشواطا في مجال الصناعات المعدنية وصناعة السفن التي وجدت مادتها الأولية في الثروات الغابوية التي توفرها جبال لبنان. وكان توجه الفينيقيين نحوالفضاء البحري نتيجة حتمية لنشاطهم الاقتصادي القائم على صناعة الصباغة الأرجوانية وأيضا نتيجة لضيق مجالهم الجغرافي المنحصر بين البحر وجبال لبنان. وإذا كانوا في بداية الأمر قد اقتصروا على الملاحة القريبة من سواحلهم فإن ذلك يعود إلى عدم تطور بحريتهم بشكل يسمح لهم بالمغامرة في مناطق بحرية بعيدة من جهة، ومن جهة ثانية إلى وجود القوة الميسينية في اليونان وجزيرة كريت والتي كانت تحتكر طرق التجارة البحرية في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط وبحر إيجة.

لكن سقوط الحضارة الميسينية على يد المهاجمين الدوريين (1400 ق. م.) فتح المجال للنشاط البحري الفينيقي الذي كان قد حقق تقدما هائلا في تطوير صناعة السفن بشكل أصبحت معه هذه الأخيرة قادرة على الإبحار لمسافات طويلة، وهو الشيء الذي كان يتوق اليه الفينيقيون رغبة منهم في البحث عن مصادر جديدة لصناعة أثوابهم الأرجوانية وأيضا للخروج من مجالهم الذي كان يزداد ضيقا بفعل النمو السكاني. وتؤكد الروايات أن دور الفينيقيين، وخصوصا سكان مدينة صور، قد أخذ يتزايد منذ أواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد بشكل أصبحوا معه أهم موزع تجاري في حوض البحر الأبيض التوسط. وقد سهل لهم ذلك الدور قيامهم بتأسيس العديد من الوكالات التجارية على السواحل المتوسطية. ولم يحن القرن الحادي عشر قبل الميلاد حتى استطاعوا اختراق مضيق جبل طارق حيث أسسوا أولى مراكزهم على السواحل المتوسطية : قادس في اسبانيا وليكسوس في المغرب. وتلا ذلك تأسيس عدة مستوطنات على سواحل الشمال الإفريقي أهمها أوتيكا بتونس وهيبو (عنابة بالجزائر أوبنزرت بتونس) وحضرموت (سوسة) بتونس وليبتس ماغنا (لبدة) بليبيا. . . وفي صقلية، يخبرنا توسيديد أن استقرار الفينيقيين على سواحل الجزيرة والجزر الأخرى القريبة منها سبق وصول المهاجرين الإغريق (أي قبل منتصف القرن الثامن قبل الميلاد). وقد تمركز الفينيقيون بغرب وشمال الجزيرة خصوصا بموتيي Motyé وحمير Himère. أما في سردينيا فقد استقر الفينيقيون على ما يبدو في القرن الثامن قيل الميلاد أيضا. ولقد استطاع علماء الآثار أن يؤكدوا وجود فترة فينيقية تميزت باختلاط التجار والمهاجرين الشرقيين بالأهالي في عدة مواقع (نورا، كاراليس، سولكي. . .).

غير أن أهم مستوطنة فينيقية في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط كانت هي قرطاج التي تحدد الرواية تاريخ تأسيسها بـ 814 ق. م. على يد إحدى أميرات مدينة صور رفقة بعض رعاياها وبعض المعمرين القبارصة. ولا شك أن تأسيس هذه المستعمرة على

الساحل الشرقي لتونس الحالية كان يهدف إلى خلق قاعدة تجارية وعسكرية فينيقية تناط اليها مهمة الإشراف على العمليات التجارية في الحوض الغربي للبحر المتوسط وحماية مصالح تجار صور أمام خطر المنافسة الإغريقية الذي أخذ يتزايد بتزايد وتيرة حركة الاستيطان.

وسرعان ما استقلت قرطاج عن المدينة الأم وأخذت تؤسس مستعمراتها إلى درجة أصبح معها التمييز بين ما هو فينيقي وما هو قرطاجي في المستعمرات الجديدة مستحيلا. وعلى أي فقد استمر المد الفينيقي في الحوض الغربي للمتوسط اما بشكل مباشر أو عن طريق قرطاج التي أصبحت مع مطلع القرن السادس، أي بعد الاضطرابات التي عرفتها صور بسبب المضايقات الآشورية ثم الفارسية والتي كانت سببا في انهيارها، تحتل مكان الصدارة في النشاط التجاري المتوسطي حيث وصل تأثيرها إلى السواحل الإيطالية بل وتمكن من التغلغل إلى سهل اللاتيوم.

التأثيرات الفينيقية في شبه الجزيرة الإيطالية

إن العصر الأول من الحضارة الأتروسكية يبدأ بمرحلة شرقية تعبر عنها الأواني والحلي وغيرها من المصنوعات الفينيقية التي عثر عليها في قبور مدينتي كايري Caere وبرينست Préneste والتي يعود تاريخها إلى النصف الثاني من القرن السابع قبل الميلاد. وسواء كانت هذه الأشياء قد وصلت إلى اتروريا عن طريق المبادلات التجارية أو صنعت محليا من طرف صناع فينيقيين أومحليين قلدوا نماذج شرقية، فذلك يدل على مدى أهمية التأثير الفينيقي على الحضارة الأتروسكية. ومنذ الخمسينات من هذا القرن نبه بعض العلماء إلى وجود علاقات مباشرة بين اتروريا وسوريا تؤرخ بـ600 ق. م. ولا شك أن تجار المدن الفينيقية قد سعوا منذ فترة مبكرة إلى ربط علاقات تجارية مع المدن الأتروسكية خصوصا تلك التي تقع على الساحل. ولولا هذه العلاقات القديمة التي خلقت مصالح مشتركة بين الطرفين لما رأيناهم متحالفين كلهم ضد الإغريق في معركة ألليا في القرن السادس قبل الميلاد.

إن هذا التأثير الفينيقي في إيطالية لم يقتصر فقط على الجانب التجاري والفني ولكنه شمل أيضا الجانب البشري. فقد أثبت علم الآثار الحديث أن بعض تجار صور استقروا بروما منذ القرن الثامن قبل الميلاد في سوق البقر (forum boarium) حيث أسسوا معبدا للإله هرقل (Ara maxima Herculis) تم العثور على بقاياه. وقد أبان بعض العلماء عن أن عبادة هذا الإله هي من أصل فينيقي. ذلك أن هرقليس اليوناني (هرقل عند الرومان) ما هو الا صورة للإله بعل ملقرط (Baal Melqart) الذي يعتبر حامي مدينة صور الفينيقية. ولا أدل على ذلك من كون دخول المعبدين (معبد هرقل ومعبد بعل ملقرط) كان محرما على النساء والكلاب والذباب والخنازير. بالاضافة إلى أن هناك تشابها كبيرا في التقويم الخاص

بأعياد هرقليس الأثيني وهرقل الرومي وهو ما يوحي بوجود أصل مشترك للإلهين. ناهيك عن بعض أوجه التشابه في الطقوس التي تقام تكريما لهما. يستنتج من هذه العناصر كلها أن المعمرين الفينيقيين الذين استقروا بروما هم الذين أنشأوا واهتموا بإدارة معبد هرقل بروما إلى حدود سنة 312 قبل الميلاد وهي السنة التي أوكل فيها القنصور كلوديوس كايكوس Claudius Caecus الإشراف على المعبد إلى أجهزة الدولة الرسمية[25].

لكن أهم مجال يتجلى فيه تأثير الفينيقيين ومساهمتهم الفعالة في تطوير حضارة غرب البحر الأبيض المتوسط هو الكتابة. فمعلوم أن الكتابة الفينيقية التي كانت مستعملة ببيبلوس Byblos منذ نهاية الألف الثانية قبل الميلاد هي التي تفرعت عنها الكتابة الإغريقية ثم الأتروسكية التي أعطت الوجود للكتابة اللاتينية. ولقد سبقت الإشارة إلى أن بعض المؤرخين يؤكدون على البحث عن أصول الكتابة الأتروسكية في الشرق وليس في المستعمرات الإغريقية الموجودة بإيطالية. ومن الدلائل الشاهدة على ذلك أن لوحة مارسيليانا التي اكتشفت في القبور الأتروسكية ليست فريدة من نوعها. ذلك أن لوحات من نفس الصنع، ومن نفس التاريخ عثر عليها بنمرود، أحد المواقع الأشورية الواقعة على نهر الفرات. وانطلاقا من دراسة هذه اللوحات استقر رأي العلماء على القول بأن الفينيقيين هم الذين نقلوها إلى اتروريا محاولة منهم لدعوة التجار الأتروسكيين إلى تبني استعمال الكتابة من أجل تسهيل العمليات التجارية.

ب. المد الإغريقي

يشكل المد الإغريقي في البحر الأبيض المتوسط العامل الثالث الذي أثر على تطور حضارات المنطقة وخصوصا منها حضارة روما. لقد بدأ هذا المد الاستعماري خلال القرن الثامن ق. م.[26] على سواحل البحر التيريني، وكان الكالكيديون والإرتيريون هم السباقون إلى الهجرة وتأسيس المستعمرات.

ويبدوأن كوماي Cumae كانت أقدم مستعمرة إغريقية أنشئت على الساحل التيريني، وهي في الوقت نفسه آخر هذه المستعمرات في الشمال الإيطالي (حوالي 770 قبل الميلاد)، تتلوها إيسكيا Ischia عند مدخل خليج نابلس. أما في صقلية، فتعتبر ناكسوس أقدم هذه

[25] - لمزيد من التوسع فيما يخص هذا الجانب نحيل على مساهمات : J. Bayet, les origines de l'Hercule romain, Paris, 1926 ; A. Piganiol, Les origines d'Hercule, Hommages, 1962 ; وخصوصا مقالة R. Rebuffat, Les Phéniciens à Rome, M.E.F.R, 78, 1966, p. 7-48 التي لخص فيها المؤلف الأطروحات المتعلقة باستقرار الفينيقيين المبكر في روما.

[26] - ولكن هذا لا يعني أن العلاقات بين العالم الإغريقي و إيطاليا لم تبدأ الا خلال هذه الفترة. فالعديد من البقايا الأثرية تشهد على أن الميسيين كانوا قد وصلوا إلى السواحل الإيطالية منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد على الأقل وربطوا علاقات تجارية مع شعوب المنطقة.

المستعمرات التي أنشئت في القرن 8. ويبدو أن هدف المستعمرين الكالكيديين من تأسيس هذه المستعمرات كان في بداية الأمر هو السعي إلى إيجاد أسواق جديدة لمنتجاتهم وفتح طرق تجارية جديدة. بعد ناكسوس، أسس هؤلاء ريجيون وزنكل خلال القرن السابع ق. م. وبذلك تمكنوا من إحكام سيطرتهم على مضيق ميسين Méssine ومراقبة الطريق التجارية التي تربط الساحل الغربي لشبه جزيرة إيطالية بالساحل الجنوبي والشرقي.

وسرعان ما أخذت الشعوب الإغريقية الأخرى تحذو حذو هؤلاء. فقام الدوريون والميغاريون والكورنتيون والأكيون واللاكيديمونيون ثم الروديون والكريتيون Crétois ثم الأيونيون القادمون من كولفون بآسيا الصغرى من تأسيس مستعمرات أخرى. ولقد امتدت هذه الحركة الاستعمارية من القرن الثامن إلى القرن السادس قبل الميلاد. وتجدر الإشارة إلى أن أقوى المستعمرات التي تم تأسيسها في صقلية هي سركوزة التي أسسها الكورنتيون في 733 ق. م. وجيلا وأجرجونت اللتان أقامهما الروديون والكريتيون في 580 ق.م.

وكما هوالشأن في صقلية، بدأ الإستيطان اليوناني في الجنوب الايطالي منذ القرن الثامن قبل الميلاد. وقد تمخض عنه تأسيس العديد من المراكز كبروتيوم ولوكريس وسيباريس التي ازدهرت بفضل نقل السلع برا من البحر الأيوني إلى البحر التيريني. وقد وصلت هذه المدن الإغريقية إلى أوج ازدهارها خلال القرن السادس قبل الميلاد. ولعل حماس المعمرين الإغريق الذين وجدوا في جنوب إيطالية فضاء واسعا يمكنهم من تحقيق أطماعهم الاقتصادية (وهو الشيء الذي كانوا يشتكون منه في وطنهم الأم حيث ضيق السهول وقلة الموارد يؤديان إلى خلق أزمات دورية) هو الذي دفعهم إلى إعطاء تسمية جديدة للمنطقة التي أصبحت تعرف بإغريقيا الكبرى .

العلاقات بين المستوطنات والمدن الأم

ولقد قام المعمرون بعد تأسيس مدنهم بنقل المؤسسات السياسية التي كانت سائدة في أوطانهم الأصلية مع تكييفها في بعض الأحيان مع الظروف المحلية. ومع ذلك فتاريخ العلاقات بين المستعمرات والمدن الأم يبقى معقدا وغامضا أحيانا. وإذا كانت استمرارية العلاقات قد تجسدت على مستوى اللغة في حفاظ المعمرين على لغاتهم ولهجاتهم الأصلية فإن هذا الوفاء للغة الوطن الأم قد تلاشى أحيانا بفعل اختلاط المعمرين خصوصا في صقلية. ويمكن أن نضرب مثلا لذلك نص توسيديد الذي يخبرنا أن سكان حمير Himère الواقعة في شمال صقلية يتكلمون لهجة هي خليط من الكالكيدية والدورية بسبب اختلاط معمري زنكل بالأشخاص الذين صدرت في حقهم أحكام النفي في سركوزة والذين استقروا في حمير.

وفي الوقت الذي استمرت فيه العلاقات على المستوى الديني، حيث حافظ المعمرون على طقوسهم وآلهتهم وحرصوا على نقل أصنامهم وكل الأشياء التي يقدسونها أثناء رحلتهم إلى الأراضي الجديدة، فإن هذه العلاقة قد تلاشت نهائيا على المستوى السياسي والاقتصادي. ورغم أن المستعمرات ساهمت بشكل غير مباشر في التحولات التي عرفتها المدن الأصلية إلا أنها كانت مستقلة تمام الاستقلال عن هذه الأخيرة التي أصبحت مجرد ذكرى لدى أبناء المعمرين وحفدتهم لا غير.

آثار الاستعمار الإغريقي

أما عن علاقة المعمرين بالمجتمعات الجديدة التي استقروا بها فلا شك أن الاستيطان الإغريقي قد أثر بشكل عميق على المجتمع الإيطالي. ولقد اختلفت أشكال العلاقات بين المعمرين والأهالي. ففي بعض الأحيان قام المعمرون بطرد جموع السكان المحليين من أراضيهم مستعملين في ذلك مختلف أساليب العنف[27] ، وأحيانا أخرى تقبلت القبائل المحلية بإيطالية القادمين الجدد وتعايشت معهم بل ووصلت بهم العلاقة إلى حدود التفاهم والتعاون. ولقد تلت هذه المرحلة الأولى التي اقتصر فيها الاستعمار الإغريقي على السواحل مرحلة أخرى قام خلالها المعمرون بتوسيع دائرة المناطق التي يحتلونها إلى داخل البلاد تحذوهم في ذلك دوافع اقتصادية (توسيع الأراضي، استعباد مجموعات جديدة من السكان. . .). وكان لذلك أثره البالغ في نشر التأثيرات الهلينستية بصقلية وجنوب إيطالية. ولم تقتصر تلك التأثيرات على المناطق القريبة من الساحل أو المتاخمة للمستعمرات بل إنها انتقلت إما عن طريق البحر أو عن طريق الهضاب الداخلية، وخصوصا عبر سهل الكامبانيا وعن طريق الأتروسكيين، إلى المناطق النائية بشبه جزيرة إيطالية ولمست بذلك روما. فمعلوم أن الإغريق (خصوصا منهم الكالكيديون) هم الذين لقنوا الرومانيين وشعوب إيطالية الوسطى طرق وأساليب زراعة الزيتون. وبامكاننا أيضا استحضار نص تيتوس ليفوس الذي يتساءل فيه عن الكيفية التي تمكن بها الملك نوما الروماني من القيام برحلة مليئة بالمخاطر من بلده الأصلي في صابينيا إلى جنوب إيطالية ليلتحق بحلقات فيتاغوراس الدراسية ما دامت الروايات تجعل منه تلميذا لهذا الأخير. وعلى الرغم من كون هذه الرواية مشكوكا في صحتها نظرا للفارق الزمني الذي يفصل بين الشخصيتين فإنها ترمز دون شك إلى التأثيرات الفكرية للمدارس الإغريقية في وسط شبه الجزيرة الإيطالية. وعلى أي فقد تم الكشف ضمن قوائم تلامذة فيتاغورس عن أسماء من أصل أتروسكي وهو دليل يؤكد ما قلناه. ولا شك أن التفاعلات بين الرومان وغيرهم من شعوب إيطالية الوسطى من جهة، وبين المستوطنين الإغريق من جهة ثانية قد سهلتها العلاقات التجارية التي كانت تربط بين

[27] - كذلك الحال في ميغاراهيلايا Mégara Hyblaea وسركوزة. . .

الطرفين. فالدلائل الأثرية التي عثر عليها في موقع روما تثبت بما لا يدع مجالا للشك أن هذه العلاقات قد بدأت منذ استقرار الإغريق في الجنوب الإيطالي، أي منذ القرن الثامن قبل الميلاد، وسوف نرى فيما بعد أن التأثيرات الهلينستية قد مست بشكل واضح وعميق ليس فقط القانون والمؤسسات الرومانية ولكن كل أشكال التعبير الدينية والفلسفية والفنية والعمرانية والأدبية. . .



الباب الثاني

روما من التأسيس إلى نهاية العهد الملكي

الفصل الأول

تأسيس روما بين الأسطورة و الحقائق الأركيولوجية.

1 . المصادر

لقد سبق أن تحدثنا عن الإشكاليات الأساسية التي تعترض سبيل الباحث في تاريخ الفترة الأولى من حياة روما خصوصا منها ما يتعلق بالمصادر المعتمدة لكتابة هذا التاريخ. فلم يكن المؤرخون اللاتينيون يتوفرون على مصادر معاصرة للأحداث. فحتى لائحة الكهنة العظام التي كانت تسجل فيها الأحداث الهامة سنويا لم يثبت الشروع في تدوينها الا انطلاقا من القرن الثالث قبل الميلاد. فاللوحات الأولى تعرضت للإتلاف أثناء عمليات التدمير و الحرق التي عرفتها روما إبان الغزو الغالي. ومعنى ذلك أن اللوحات التي جمعت فيما بعد وأخذت تعرف «بحوليات الكهنة العظام» والتي اعتمد عليها المؤرخون الاتينيون هي مجرد نسخة تمت اعادة تركيبها وكتابتها لتعويض الأولى. أما كتابات مؤرخي مدرسة الحوليات فقد رأينا سابقا أنها ضاعت كلها ولم يبق منها سوى بعض الشذرات التي نقلها المؤرخون المتأخرون. نحن مضطرون بالتالي إلى الاعتماد على النصوص التي كتبت في نهاية القرن الأول قبل الميلاد في ظل حكم الأمبراطور أغسطس.

هناك مصدران أساسيان : كتاب التواريخ لتيتوس ليفوس الذي ألف حوالي 30 ق. م. وملحمة الإلياذة التي ألفها فيرجيليوس وتوفي قبل إتمامها سنة 19 ق. م. والتي لا يمكن اعتبارها على أي حال مؤلفا في التاريخ. وسواء تعلق الأمر بالأول أو بالثاني فكلا المصدرين يعتمدان على الروايات الشفوية في جمع المعلومات وهي روايات تُقدم خطاباً جزئياً وغير أكيد. أما فيما يخص الفترة الملكية فيمكن إضافة الجزء الثاني من كتاب الجمهورية لشيشيرون وكتابات المؤرخين الإغريق وديونيسوس الهاليكارناسي وبلوتارك.

2 . الأسطورة

تقول الأسطورة :

كان ايناس ينحدر من سلالة ملكية الهية. فهو وليد العلاقة الغرامية التي جمعت أنشيز بالإلهة أفروديت. لقد نشأ في الغابات المجاورة لمدينة طروادة. وحينما اندلعت حرب طروادة

شارك فيها إلى جانب المحاربين الطروداديين. وقد ذاع صيته خلال هذه الحرب واشتهر بشجاعته وبطولته وبحكمته خصوصا وأنه كان يتمتع بحماية الإله زوس.

وعندما سقطت طروادة فر اينياس برفقة والده وبعض الطروداديين. وبعد رحلة بحرية طويلة مليئة بالمخاطر والصعاب التي كانت تسببها الالهة جونون Junon عدوة الطروداديين، تدخل الاله زوس ليأمره بالمسير نحو صقلية ومنها إلى السواحل الإيطالية حيث حط الرحال بسهل اللاتيوم قرب مصب نهر التبر. وسرعان ما ربط علاقات مودة مع لاتينوس Latinus ملك اللورانتس Laurentes(أو أبوريجان Aborıgènes) الذي زوجه ابنته لافينيا Lavinia. ثم انه عقد تحالفا مع افاندر Evandre، ذلك البطل الإغريقي الروماني الذي قدم من كورانت واستقر باللاتيوم بضع سنوات قبل نشوب حرب طروادة حيث أسس مدينة بالانتي Pallantée فوق هضبة البالاتان. غير أن اينياس سيصطدم مع تورنوس Turnus ملك الروتوليين Rutules الذي كان يسعى منذ مدة للزواج من لافينيا. وأسفرت الحرب بينهما عن انتصار اينياس الذي قام بعدها بتأسيس مدينة لافينيوم Lavinium(وهو اسم مشتق من اسم زوجته لافينيا) التي وحد فيها بين شعب اللورانتس والمهاجرين الطروداديين.

وبعد وفاة اينياس خلفه ابنه أيول الذي أسس مدينة ألبا لونغا (Alba Lunga) بالقرب من جبال الألبان. ثم خلفه على الحكم اثنا عشر ملكا لا ندري شيئا عن الأحداث التي عرفتها عهودهم. المهم هو أن فترة حكمهم التي تقدرها الأسطورة بـ300 سنة هي التي تفصل بناء مدينة ألبا لونغا عن بناء مدينة روما. وفي عهد آخر الملوك الأثنا عشر (نوميطور) اندلعت أزمة بين أفراد الاسرة الحاكمة انتهت باقصائه عن العرش من طرف أميليوس (Amelıus) الذي أرغم حفيدته ريا سيلفيا (Rhéa Sılvia) على الدخول في صفوف الفستالات لكي يحرمها من ذرية قد تقوم بالانتقام لجدها. لكن الاله مارس (اله الحرب الروماني) قرر منحها سلالة من الذكور. وكان اتحاده معها سببا في ولادة التوأمين رومس (Rémus) ورومولوس (Romulus). وحين علم عمهما الحاكم بالأمر أراد التخلص منهما فرماهما في التبر. غير أن مياه النهر سارت بهما إلى ضفافه حيث نشآ في حضن ذئبة لوبركال الشهيرة التي حرصت على ارضاعهما قبل أن يستلمهما الراعي فنستولوس (Fanstulus) وزوجته لرنتيا (Larentia). حيث أقاما في كوخهما الذي أصبح يعرف فيما بعد بمنزل رومولوس.

وعندما أصبحا في سن المراهقة قاما بمهاجمة ألبا لونغا حيث قتلا عمهما الطاغية ونصبا مكانه جدهما الملك الشرعي للمدينة. وسرعان ما دفع بهما اكتظاظ المدينة بالسكان إلى الهجرة قصد البحث عن موقع جديد يشيدان فيه مدينة جديدة. ووقع اختيارهما على نفس المكان الذي ترعرعا فيه. لكن من الذي ستكون له المبادرة في التأسيس : أرومس أم رومولوس؟ ولتلافي الخلاف، اتفق الأخوان على الاحتكام إلى رأي الآلهة عن طريق مراقبة حركات الطيور وهي عادة كان يعتقد انها تمكن من تأويل ارادة الآلهة. وسرعان ما دب

الخلاف بين الأخوين حول تأويل ما رأياه فقام روملوس بقتل أخيه رومس. بعد ذلك قام بتخطيط حدود المدينة في تل البالاتان التي جعلها مقدسة (Pomoerium)، أي محمية من قبل الآلهة ولا يحق لأحد أن يحمل السلاح داخلها، وسماها روما. حدث ذلك في 21 من شهر أبريل سنة 753 أو 748 (حسب الروايات) وهو اليوم الذي اعتبره الرومان يوم عيد يحتفلون فيه بذكرى تأسيس المدينة (dies natalis).

لا تتوقف الأسطورة عند هذا الحد بل تحدثنا أيضا عن تاريخ الملوك السبعة الأوائل الذين سهروا على تنظيم روما في فترة طفولتها. وهذا تلخيص لما تورده الأسطورة عن منجزات كل ملك :

ــ روملوس : أول ملوك روما الذي استمر حكمه إلى سنة 717 ق. م. بعد تأسيسه للمدينة التي عمرها الرعاة والمشردون الذين كانوا يعيشون في اللاتيوم كان في حاجة إلى ضمان استمراريتها عن طريق توفير زوجات لساكنتها. فقام برسم خطة لاختطاف النساء الصابينيات الشيء الذي أدى إلى نشوب حرب بين الرومان والصابينيين. وبعد معارك طويلة جنح الطرفان إلى السلم واتفقا على أن يتحدا. وقد قبل روملوس مبدأ اقتسام السلطة في روما مع تيتيوس تاتيوس ملك الصابينيين.

وتنسب الاسطورة إلى روملوس قيامه بتوزيع السكان على ثلاث قبائل وثلاثين مشيخة (curia) واحداث مجلس للشيوخ يضم مائة شيخ من رؤساء العائلات الكبرى. ثم اختفى روملوس في ظروف غامضة اذ أن عاصفة مفاجئة انتزعته من بين أصحابه وصعدت به إلى السماء. فقدسه الرومان و أطلقوا عليه اسم الاله كيرينوس.

ــ خلفه على حكم روما ملك من أصل صابيني نوما بومبليوس اشتهر بحلمه وصلاحه (717- 673 ق. م.). وتنسب له الأسطورة جل تنظيمات روما الدينية حيث قام بتأسيس معبد فيستا و معبد جانوس، ونظم الكهنوت وخلق الكهنة العظام و قسم السنة إلى 12 شهرا وحدد الأيام السعيدة والأيام المشؤومة. . .

ــ ثم تلاه ملك محارب من أصل صابيني كذلك هو توليوس هوستليوس (672-641 ق. م.) الذي قاد الحرب ضد ألبا لونغا التي انتهت لصالح روما التي قامت بادماج روما في محيطها السياسي. كما أنه شيد مكانا لاجتماعات مجلس الشيوخ (curia Hostilia)، كما توسعت حدود روما في عهده لتشمل تلي الكابتول والكايليوس.

ــ ثم تولى الحكم بعده ملك صابيني آخر أنكوس ماركيوس(639-616) وهو الذي أحدث القوانين الخاصة بالحرب والحفلات الرسمية التي تواكب اعلان الحرب. كما وسع حدود روما لتشمل تل الأفونتان وأسس مستعمرة أوستيا Ostia عند مصب نهر التبر لتصبح منفذا لروما على البحر التيريني.

ــ ستنتقل السلطة فيما بعد إلى الملوك الأتروسكيين وأولهم لوكيوس طاركينوس المشهور بطاركينوس الأقدم. وتروي الأسطورة أن هذا الشخص قدم من مدينة طاكيني Tarquinies الأتروسكية واستقر بروما حيث اشتهر بحذقه ومهارته الشديدين. فتمكن من أن يصبح ملكا لروما (616-579). عرف عهده تحقيق عدة مشاريع عمرانية واهتم خصوصا بتجميل وتوسيع مدينة روما.

ــ خلفه على الحكم سيرفيوس توليوس (578-535 ق. م.) الذي وضع أول دستور لروما. وفي عهده توسعت حدود روما لتشمل تلي الكيرنال والفرمينال وبنى سور روما الذي حمل اسمه : «السور السيفيري» والذي أصبح يحمي تلال روما السبعة.

إلا أن الفترة الأخيرة من حكمه عرفت اندلاع أزمة داخل الأسرة الحاكمة تمكن خلالها طاركان القوي من الإمساك بزمام الأمور بعد أن اغتال صهره سيرفيوس توليوس. لقد كان أول طاغية حكم روما (534 - 509) حيث أنه أقام حكمه على القوة واستعمال العنف والقمع. لكنه في نفس الوقت تابع عملية توسيع دائرة نفوذ روما، ومشاريع تعمير المدينة واصلاحها، كما أنشأ معبد الثلاثي المقدس جوبيتر وجونون ومينيرف فوق تل الكابتول. ورغم ذلك لم يستطع الرومان تحمل استبداده فثاروا ضده ونفوه وحاشيته خارج المدينة. حدث ذلك سنة 509 وهي السنة التي تحددها الرواية كتاريخ بداية العهد الجمهوري.

3 . الغرب الأوروبي وأسطورة بناء روما

في العصر الوسيط الأوروبي اختلطت أسطورة بناء روما وعهدها الملكي بالروايات الدينية المستقاة من التوراة الشيء الذي جعل هذه الروايات تنتشر بشكل واسع وتلقى قبولا خصوصا وقد أضفيت عليها الصبغة الدينية. فيجب انتظار عصر النهضة، وهي الفترة التي تميزت بعودة النخبة المثقفة الأوروبية لقراءة وتحليل التراث الإغريقي و اللاتيني القديم، لنرى بروز تيارين اتخذ كل منهما موقفا خاصا ازاء هذه الأسطورة :

ــ التيار المحافظ الذي كان يعتقد أنه من الممكن أن نجد خلف الأحداث التي تقدمها الرواية آثار وقائع تاريخية قديمة.

ــ التيار المتشكك الذي يعتبر أن ما تحكيه الروايات عن أصول روما لا علاقة له بالتاريخ بل هو نسيج من الخيال لا غير.

وستطبع مواقف هذين التيارين بشكل متزايد الدراسات والبحوث المتعلقة بهذه الفترة. ومنذ نهاية القرن 17 وبداية القرن 18 سيصبح الجدل القائم حول الروايات الرومانية واجهة

تخفي وراءها جدلا آخر هو أكثر خطورة من الأول باعتباره ينصب بشكل غير مباشر على مدى مصداقية الروايات التوراتية وبالتالي مدى مصداقية الكنيسة نفسها. فالتشكيك في تأريخانية انياس أو رومولوس كان يعني التشكيك في تأريخانية نوح عليه السلام ومن خلاله في الكتاب المقدس. وقد تميزت هذه الفترة على الخصوص بكتابات كل من صاموييل بوشار[1] و بيريزيونيوس[2] اللذين مثلا التيار المتشكك في نهاية القرن السابع عشر وذلك بتبنيهما لمناهج جديدة في الدراسات التاريخية المتعلقة بروما.

وفي بداية القرن الثامن عشر، وبعد أن قام بعض القساوسة بتقديم بعض العروض أمام الأكاديمية نشر لويس بوفور كتابا بعنوان «بحث حول الشكوك التي تحوم حول القرون الخمسة الأولى من التاريخ الروماني»[3] بين فيه الحواجز المعرفية الكبرى التي تعترض سبيل البحث في أصول التاريخ الروماني. أولها يتمثل في وجود هوة كرونولوجية تقدر بخمسة قرون على الأقل تفصل بين الفترة التي أسست فيها روما وبين الفترة الذي كتب فيها أول المؤرخين اللاتينيين، وثانيها ذلك الحريق الذي شب في روما ابان الغزو الغالي والذي أدى باعتراف القدماء إلى تدمير كل الوثائق التي تهم الفترات القديمة من تاريخ روما.

لقد شكل كتاب بوفور مساهمة فعالة وأصيلة في تطور الدراسات التاريخية الرومانية لكونه حدد بشكل علمي آفاق وحدود البحث ولذلك اعتبر نقطة البداية التي انطلق منها كل الذين أدلوا بدلوهم في الموضوع خلال هذا القرن.

وفي بداية القرن التاسع عشر نشر الدانماركي نيبوهر كتابا حول تاريخ روما[4] شكل هو الآخر احدى المحطات الهامة في تطور الدراسات الرومانية. فمع هذا المؤرخ نرى ظهور منهج جديد لا يكتفي فقط باخضاع الرواية التاريخية للنقد كما فعل السابقون ولكنه يتجاوز هذه المرحلة إلى محاولة اعادة كتابة تاريخ الفترة اعتمادا على وسائل جديدة أهمها الدراسة النقدية للنصوص القديمة. ولا شك أن تخصصه في قراءة المخطوطات الذي جعل منه باليوغرافيا ذائع الصيت قد اعطى لأعماله قيمة علمية كبيرة. ومع هذه الأعمال ستبدأ مرحلة ازدهار العلوم الخاصة بحضارات العالم القديم وخاصة منها الحضارة الرومانية في ألمانيا التي شهدت ميلاد العديد من الكتابات التي مازال مؤرخو اليوم يعتمدون عليها.

1- Samuel Bochart, *Géographia sacra*, Leyde, 1675, 2 vol.

2- Penzionius, *Animadversiones selectae*, 1685.

3- Louis Beaufort, *Dissertation sur l'incertitude des cinq premiers siècles de l'histoire romaine*, Utrecht, 1738.

4- Barthold Georg Neibuhr, *Histoire romaine*, 1811-1812.

ومن بين العلماء الألمان الذين تركوا أثرا واضحا خلال هذه الفترة ثيودور مومسن Thiodore Mommsen الذي يعتبر باعتراف الجميع موسوعة علمية متخصصة في الدراسات الرومانية. ولعل أشهر كتبه «التاريخ الروماني». غير أنه لم يعط أهمية لدراسة الفترة الأولى من تاريخ روما ولم يثر قضية الأصول. بل على العكس من ذلك فضل أن يفتتح الجزء الأول من كتابه بمقولة للمؤرخ الإغريقي توسيديد يذكر فيها هذا الأخير قراءه بالغموض الكبير الذي يلف الفترة الأسطورية في روما. إن قيمة رواية التأسيس لا تكمن بالنسبة لمومسن في ما يمكن أن تقدمه للمؤرخ من معلومات -فهو لا يرى فيها سوى خليط من الخيال والدعاية- ولكن في كونها تحاول أن تجسد مختلف أشكال القانون الروماني. ولذلك نراه يعلن في كتابه عن القانون العام الروماني[5] :« إن أساس كل الروايات المتعلقة بأصول روما يكمن في المؤسسات السياسية للقرن الخامس قبل الميلاد».

وقد شهدت العقود التالية غياب مؤلف ذي قيمة حول أصول روما. ذلك أن البحوث المرتبطة بالتاريخ الروماني اتجهت نحو تخصصات أخرى حديثة كالدراسة النقدية للنصوص وتحقيقها و جمع الكتابات المنقوشة وتحليلها خاصة منها تلك التي ترجع للفترتين الجمهورية والامبراطورية.

وسرعان ما سيتجدد الاهتمام بهذه الفترة القديمة في نهاية القرن بفضل المؤرخ الايطالي إيتور بايس الذي كان من تلامذة مومسن حيث تابع لمدة سنتين حلقاته الدراسية في ألمانيا. وقد تزامن هذا الاهتمام المفاجئ بالتاريخ القديم لروما مع نشأة الدولة الإيطالية الفتية (1870) التي كانت في حاجة إلى الرجوع إلى تاريخها من أجل ارساء قواعد ايديولوجية وطنية تصبح مصدر اعتراف بالدور التاريخي للعاصمة الجديدة روما. وقد اعتبر كتابه «تاريخ روما»[6] صرحا لمنهج النقد اللاذع (أو المبالغ فيه) hypercritique. فقد درس بايس كل الأساطير المتعلقة بنشأة روما الواحدة تلو الأخرى بما فيها تلك التي كانت بسبب شهرتها أو جماليتها تلقن لتلامذة المدارس الأوروبية عن ظهر قلب وأخضعها للنقد الشديد. فكان أن أعلن في مقدمة كتابه :«منذ السطور الأولى لهذا الكتاب يمكن أن نؤكد بالفعل أن جزءا كبيرا مما يزعم أنه التاريخ القديم لروما ما هو الا ثمرة مضاربة أدبية متأخرة بل وتزوير مقصود»[7]. كان هذا الحكم بالطبع بمثابة انتهاك خطير لحرمة روما ! . . . ولذلك فقد أثار العديد من ردود الفعل التي ذهبت إلى حد اتهام المؤلف بكونه ادخل إلى إيطالية أفكارا مستوردة من ألمانيا. بل ان بعض الذين كانوا أكثر تشبثا بالأسطورة القديمة لم يتوانوا عن معاتبته لكونه لم يأخذ بعين الأعتبار نفسية روملوس !. . .

---

٥ - Th. Mommsen, *Droit public*, trad. franç. VI, 2, p. 193, n. 2

٦ - Ettore Pais, *Storia di Roma*, Turin, 1898-1899.

٧ - Ibid, I, 1898, p. 2.

ولم يكن على بايس أن يواجه هذه الانتقادات وحدها، بل كان عليه أيضا أن يواجه النتائج التي أخذ يقدمها علم جديد سيدخل بدوره حلبة النقاش وسيكون له أثره الحاسم في توجيهه : انه علم الآثار الذي ادى إلى اكتشافات هامة في موقع روما القديمة أخذت تضفي على الأسطورة شيئا من الواقعية. وهكذا، ومع الطبعات المتوالية لكتاب بايس أخذ هذا الأخير يلين من مواقفه الأولى بشكل فقد معه الكتاب أصالته. وقد أعطاه بايس في سنة 1913 عنوانا جديدا هو : التاريخ النقدي لروما[8].

ومع ذلك فلا بد أن نشهد لهذا الكتاب بميزتين أساسيتين :

ــ إنه أجبر هؤلاء الذين كانوا يرفضون النقد ويلتصقون بالنصوص ويدافعون عن القيمة التاريخية للروايات المتعلقة بنشأة روما (les hypocritiques) على اعتماد منهج يسمح لهم بالدفاع عن آرائهم وتبرير مواقفهم.

ــ إنه جعل من الأساطير التي تروي الفترة الأولى في تاريخ روما موضوعا للتاريخ. وذلك يعني أنه استطاع تجاوز «المحرمات» واخضاعها لمناهج البحث التاريخي.

ومع بداية القرن الحالي، سيكون لعلم الآثار حضور قوي في هذه النقاشات وسيصبح أحد المصادر الأساسية التي يجب على المؤرخ اعتمادها لدراسة تاريخ روما. وقبل أن نتناول مساهمة علم اللآثار، لا بد من الحديث عن مساهمة أخرى اكتست صبغة خاصة لأنها حاولت أن تجد تفسيرا للإطار الأسطوري الذي أحاط بقضية النشأة. إنها مساهمة المدرسة الترميزية (herméneutique) التي يعتبر روادها جملة الأساطير التي تنتشر لدى شعب ما مجرد رموز يجب تأويلها للكشف عن الأسس التي تقوم عليها حضارته.

إن أكبر ممثل لهذا التيار المعاصر هو الفيلسوف والعالم الفرنسي جورج دوميزيل Georges Dumézil الذي قدم محاولة لامعة لتأويل الأسطورة رغم أنها تعرضت للنقد الشديد. فتاريخ تأسيس روما وملوكها الأوائل هو بالنسبة لدوميزيل مجرد اطار ميثولوجي. فقد كان الرومان خلال القرن الثامن قبل الميلاد يحافظون على مجتمعهم في نفس الإطار الثلاثي الوظائف الذي عرفته الشعوب الهندوأوروبية والذي سبق للعالم أن وجده عند الشعوب الهندوإيرانية و الكلتية و الجرمانية.

ماهي نظرية الوظائف الثلاث المشهورة théorie trifonctionnelle التي كانت وراء شهرة دوميزيل ؟

---

[8] - *Historia critica di Roma*, 1913-1920, 4 vol.

حسب دوميزيل فالحياة في أشكالها المختلفة، الدينية و البشرية، الاجتماعية والكونية، الطبيعية والنفسية، تحكمها لعبة منسجمة قائمة على وظائف ثلاث يمكن أن تلخصها الكلمات الثلاث : سلطة (أو سيادة)، قوة، خصوبة. فالوظيفة الأولى تضمن إدارة الأشياء، والثانية تدبر أمور الهجوم والدفاع، والأخيرة لها خصوصيات متعددة تتجسد في ضمان تناسل الأنواع والحفاظ على صحتهم وتوفير وسائل التغذية بل والثروة. وهذه الوظائف الثلاث هي التي تحملها أسطورة النشأة التي تناقلها المؤرخون المهتمون بروما. فلا يجب، حسب دوميزيل، أن نبحث عن التاريخ من خلال أسطورة النشأة، لأن هذه الأسطورة التي تمت هيكلتها لا تقدم تاريخا بقدر ماتقدم صورة لوضع سابق لتأسيس روما. فما دام انها لم تكن وليدة وقائع فلا يمكنها أن تكشف أو تحمل تاريخ و قائع.

وتبعا لذلك يستنتج دوميزيل ثلاثة عناصر من التنظيم البدائي لروما كما تقدمه الأساطير وهي العناصر التي تعبر عن الوظائف الثلاث : فقد كان هذا المجتمع الروماني مشكلا من هؤلاء الذين يتمتعون بالسلطة السياسية والدينية (الملوك، الحكام، الكهنة. . .) وكان الههم هو جوبيتر الذي يرمز في الفكر الديني الروماني إلى السيادة. ثم هؤلاء الذين يقومون بوظيفة عسكرية ويكرسون ولاءهم للاله مارس وهو اله الحرب (وبالتالي فهو رمز القوة). وأخيرا هؤلاء الذين يسهرون على الإنتاج (الفلاحون، الرعاة، الصناع. . .)والههم هو كيرينوس اله الخصوبة. ولهذا السبب نجد أن روما حافظت في الفترة التاريخية على مجمع للآلهة الثلاثة العظام : جوبيتر و مارس و كيرينوس. ولا يقتصر رأي دوميزيل على هذا فقط بل يرى أيضا أن الملوك الأربعة الأوائل الذين تتحدث الأسطورة عنهم انما يرمزون إلى الوظائف الثلاث. فرومليوس ونوما يرمزان إلى السلطة السياسية والدينية وتوليوس هوستيليوس يرمز للقوة العسكرية بينما تتجسد الخصوبة في أنكوس ماركيوس الذي عرف عهده ازدهارا اقتصاديا[9].

4 . الحقائق الأركيولوجية

لقد قدمت الحفريات التي أجريت بموقع روما معلومات وحقائق جديدة تثبت بشكل غريب بعض ملامح الأسطورة التي لخصناها في بداية هذا الفصل. ففي سنة 1907عثر على بقايا أكواخ في البالاتان، قرب المكان الذي احتفظ فيه الرومان بذكرى التأسيس وأطلقوا عليه اسم منزل رومليوس. وقد مكنت دراسة القطع الخزفية التي عثر عليها في هذا المكان من تحديد الفترة الزمنية لهذه الأكواخ بمنتصف القرن الثامن قبل الميلاد وهي الفترة التي

[9] - انظر بالخصوص كتابيه الشهيرين : *Jupiter, Mars, Quirinus, essai sur la conception indo-européenne de la société et sur les origines de Rome*, Paris, 1941 ; *Naissance de Rome*, Paris, 1944.

تحددها الأسطورة كتاريخ بناء روما. وقد أكدت التنقيبات خلال الأربعينات من هذا القرن أن هذا النوع من الخزف أخذ يتلاشى منذ الربع الأول من القرن السادس وكذلك الشأن بالنسبة للأكواخ البدائية التي حلت محلها هندسة جديدة توحي ولا شك بالإنتقال إلى الفترة الأتروسكية.

كما تم الكشف عن بقايا أكواخ أخرى في موقع آخر بالبالاتان تحت أنقاض قصر الأباطرة الفلافيين يبدو أنها تنتمي إلى قرية أخرى من نفس الفترة الزمنية. ثم عثر على أكواخ أخرى تحت أنقاض السوق الروماني. وحديثا (1988) كشفت الأبحاث عن بقايا مساكن بالقرب من الشارع المقدس via sacra يعود تاريخها إلى القرن 8 أو 7 ق. م. بالإضافة إلى أسوار يعود تاريخ انشائها إلى القرن 8 ق. م. وانطلاقا من ذلك استنتج العلماء أن تسوير القرى في البالاتان بدأ بالفعل خلال القرن الثامن بل ذهب بعضهم إلى حد التساؤل عن امكانية ربط هذه الحقائق بالمعلومات التي تقدمها الأسطورة حول قيام روملوس بتخطيط السور المقدس لروما.

ويعتقد الأثريون أن القبور التي تم اكتشافها في بداية هذا القرن يعود تاريخها إلى نفس الفترة. وهي واحد وأربعون قبرا بعضها دائري الشكل ذو آبار تحتوي على مرمدات لحفظ رماد الموتى بعد حرقهم وبعضها الآخر مستطيل الشكل يضم حفرا لدفن الموتى وهي على مايبدو أحدث عهدا من سابقتها (ق 7 ق. م.). وقد توقف استعمال هذه المقابر في بداية القرن السادس قبل الميلاد وهو تاريخ يرمز إلى الطفرة التي شهدتها روما في هذه الفترة (المرور من الفترة الملكية إلى الفترة الجمهورية). قبور أخرى عثر عليها فوق تل الكيرينال والإسكلان تضم أسلحة ودروعا وقبعات وهو مايدل على أن الأمر يتعلق بشعب آخر ذي طباع حربية قطن التلال المجاورة للبالاتان وربما كان السبب في جعل سكان البالاتان يقيمون أسوارا للاحتماء من اعتداءاته؟

ولنضف إلى ذلك كله تلك اللوحة الحجرية المنقوشة التي تم العثور عليها سنة 1899 في السوق الروماني والتي تحمل اشارة إلى اسم الملك. تلك إذن بعض الشواهد الأثرية التي أثرت معارفنا حول أصول مدينة روما التاريخية[10] .

لا شك أن القارئ قد أدرك أنه في ظل ظروف البحث الراهنة وانطلاقا من جملة المعطيات التي أوردناها سواء كانت نصية أو أثرية يستحيل القول بامكانية معرفة الوقائع والأحداث التي عرفها موقع روما خلال منتصف القرن الثامن قبل الميلاد. ولكن يمكن

[10] - لمزيد من التوسع في هذا الموضوع واضافة إلى البيبلوغرافيا المثبتة في آخر هذا الكتاب نحيل القارئ الدراسة التي نشرها Alexandre Grandazzi, *La fondation de Rome, réflexion sur l'histoire*, Paris, les Belles-Lettres, 1991 والتي ضمنها آخر المستجدات الأثرية.

الجزم منذ الآن بأن هناك بعض العناصر التي لا ينبغي الشك في تأريخانيتها منها على سبيل المثال أن النواة الأولى لروما شهدت النور فوق تل البالاتان، وأن هذه النشأة يمكن فعلا أن تؤرخ بمنتصف القرن الثامن قبل الميلاد. . . أما قصة ايناس وهجرته من طروادة وقصة روملوس وصراعه مع أخيه ريموس فتبقى مجرد أسطورة . . . ويعتقد المؤرخون أن الأساطير التي تروى حول تأسيس روما تم تكوينها ونشرها بالتدريج بعد أن تمكنت روما الناشئة من اثبات وجودها كقوة ذات وزن على الصعيد الجهوي أو الإيطالي وذلك انطلاقا من العناصر التي كان يوفرها الفلكلور الإيطالي و أيضا الميثولوجيا الإغريقية التي كانت قد انتقلت مع المستوطنين الإغريق إلى جنوب إيطالية[11] . ولا داعي للتأكيد على أن روما، كغيرها من المدن، لم تنشأ بين عشية وضحاها كما تقول الأسطورة[12]، بل إنها نتيجة تطور طويل انطلق منذ استقرار الإنسان على نهر التبر واستمر لفترة طويلة عرف خلالها حضارة القرى المشتتة التي تعاطى أصحابها لنشاط رعوي، ثم تجمعت إما تحت ضغط الظروف الطبيعية، أو لكون احداها تمكنت من أن تصبح أقوى من الأخرى فاستولت عل جاراتها. أما ظهور روما كحاضرة لها مقومات المدينة القديمة فيرجع الفضل فيه بدون شك للسيطرة الأتروسكية.

---

[11] - ولائحة الملوك السبعة التي ترويها الأسطورة هي بدورها خرافية في رأي بعض المؤرخين فرقم 7 الذي تؤكده الأسطورة انما هو من نسج الخيال ويفسر بعضهم ذلك بكون المؤرخ فابيوس بيكتور قد افترض أن عهد الملكية في روما قد دام 245 سنة، أي ما يعادل سبعة أجيال دام كل واحد منها حوالي 35سنة. كما أن واضعي الأسطورة اتجهوا نحو الأخذ بإيقاع ثنائي في سرد الأحداث رغم أنه خاطئ·

-التوأمان روملوس وريموس الأول مختار و الثاني منبوذ

-الوحدة بين الصابيين و الرومانيين تحققت عبر شراكة بين الثنائي روملوس اللاتيني وتيتيوس تاتيوس الصابيني

-تنظيم روما يرجع الفضل فيه إلى تعاقب روملوس ونوما : فالأسطورة تعتبر الأول المؤسس السياسي والثاني هو المؤسس الديني مادام انه اخترع ديانتها.

هذا النظام الثنائي هو الذي حكم تطور الأحداث في روما خلال العهد الجمهوري (وهو العهد الذي اكتملت فيه عناصر الأسطورة). يمكن أن نذكر على سبيل المثال الازدواجية في الوظائف القنصلية وازدواجية الوظائف الكهنوتية وازدواجية التنظيم الإجتماعي الذي قسم المجتمع إلى فئتين : البطاركة و العوام. . . . أنظر : M. Le Glay, *Rome : Grandeur et déclin de la République*, Paris. Perrin, 1990, p. 46-47

[12] - تجدر الاشارة إلى أن 21 أبريل 753 أو 754 الذي يحتفل فيه الرومان بعيد ولادة المدينة natalis urbis هو أيضا يوم عيد الباليس Palès الإلهة أو الإله اللاتيني الذي يقدسه الرومان كحام للمواشي والمراعي والرعاة (أنظر Joël: Scmidt, *Doctionnaire de la mythologie grecque et romaine*, Paris, Larousse, 1992, p. 231.). وإذا كنا نعرف أن السكان الأوائل كانوا يعيشون على الرعي وأن حضارة الرعاة هذه كانت قائمة على عبادات طوطمية فيمكن استنتاج أن الذئبة المشهورة في الأسطورة انما يعود أصلها إلى هذه الفترة. ولا أدل على ذلك من كون الرومان الأوائل كانوا يعبدون الها طوطميا يدعى لوبيركوس Lupercus يعتبر اله المواشي و المراعي الذي يحمي الأغنام من شرور الذئاب (أنظر المرجع السابق، ص. 187).

الفصل الثاني

روما تحت السيطرة الأتروسكية

لقد ارتبط ظهور روما كمدينة وبروزها ككيان سياسي منظم بالتوسع الأتروسكي في إيطالية الوسطى وجزء هام من اللاتيوم واستيلاء أسرة أتروسكية على مقاليد السلطة في روما. فمع بداية هذه الفترة أخذت عناصر «الحقيقة» تتضح أكثر فأكثر وأخذ تاريخ روما يبدو أكثر صلابة بالمقارنة مع الفترة السابقة التي طغت فيها عناصر الأسطورة. وقد نبه المؤرخ سالوست في كتابه « مؤامرة كاتيلينا » إلى هذا المنعطف الهام في تاريخ روما الناشئة[13].

لا مجال للشك في تأريخانية هذا الحدث. فالعديد من الشواهد التاريخية تؤكد الوجود الأتروسكي في روما وفي بعض المواقع بسهل اللاتيوم. من ذلك مثلا الكميات الهامة من الخزف الأتروسكي Bucchero التي عثر عليها في العديد من المقابر والمنازل الرومانية وهو ما يدل على أهمية العلاقات التجارية بين روما واترووريا. كما أن العديد من الكتابات المنقوشة التي عثر عليها في روما كتبت باللغة الأتروسكية. بعض هذه الكتابات التي يرجع تاريخها إلى القرن 7 ق. م. يثبت أن بعض التجار الأتروسكيين كانوا يواظبون على مباشرة نشاطهم بسوق البقر منذ فترة مبكرة. كما أن كتابات أخرى نقشت على مزهريات تم اكتشافها فوق تلي الكابتول والبالاتان أكدت أن بعض الرعايا الأتروسكيين استقروا في قلب روما. ولا شك في أن هذه الفئة كانت تمارس أنشطة تجارية وصناعية وأنها ساهمت بفعالية في التحولات الاجتماعية التي عرفتها روما باعتبارها شكلت عنصرا دخيلا سيكسر النظام الطبقي القديم الذي كان سائدا في المدينة كما سنرى ذلك فيما بعد.

إن أهم ما طبع وجود الأتروسكيين في روما تجلى أولا في الجانب العمراني. ففي عهدهم عرفت روما أعمالا كبرى كتجفيف المستنقعات التي اختص فيها الأتروسكيون والتي تمخض عنها ازدهار فلاحي أكيد في سهل اللاتيوم. وسيؤدي ذلك بالطبع إلى تحولات عميقة في الحياة القروية حيث بدأت تظهر منذ هذه الفترة الملكيات الكبرى. كما أن الأتروسكيين أدخلوا إلى روما تقنيات جديدة في البناء كانت منتشرة في البلاد الأتروسكية

---

13 - Salluste, *Conjuration de Catalina*, 6

تعتمد خصوصا على استعمال الحجر المنحوت وتصاميم هندسية أصيلة مكنت من إقامة مبان ضخمة غيرت من الشكل المعماري البدائي لروما. إن هذه التحولات المادية التي همت الأرض والعمران ارتبطت طبعا بتحولات عميقة في الميدان السياسي والاجتماعي والروحي. انها المخاض الذي ولد مدينة روما بصورتها المعهودة في الفترة الجمهورية. ولكي نتمكن من ادراك مدى أهمية التحولات التي عرفتها المدينة لا بد من القاء الضوء على تنظيمها السياسي والاجتماعي في ظل النظام الملكي.

1 . المجتمع في العهد الملكي

رغم أن الأسطورة تؤكد أن روملوس هو الذي منح روما تنظيمها السياسي والاجتماعي وأجهزتها الادارية فانه من وجهة النظر التاريخية يجب اعتبار هذه المؤسسسات التي تحدثنا عنها المصادر نتيجة تطور طويل وتدريجي. ومن خلال المعلومات التي توفرها المصادر عن الفترة الملكية ومن بقايا التنظيمات القديمة التي احتفظ المجتمع الجمهوري ببعض جوانبها يمكن أن نستنتج العناصر التالية التي قام على أساسها التنظيم الاجتماعي والسياسي في روما القديمة :

أ. النظام العشائري

العشيرة Gens وحدة سياسية واجتماعية شكلت قاعدة النظام الاجتماعي والسياسي في روما. ويبدو أن قوتها وطموحها السياسي برزا قبل تكوين روما ككيان سياسي واستمرت في فرض نفسها. ولا شك أن أصول العشائر الرومانية تعود إلى عهد سبق تكوين النواة الحضرية الأولى لروما في وقت كانت فيه اللاتيوم الرعوية ما زالت تعيش في اطار مجتمعاتها القبلية. وتضم العشيرة عنصرين أساسيين :

ـــ **عنصر طبيعي** : فهي تجمع بين أفراد منحدرين (أو يدعون انحدارهم) من جد مشترك. وهم يعبرون عن علاقة القرابة هذه بحملهم لنفس اللقب gentilice الذي غالبا ما يكون مشتقا من اسم الجد المزعوم[14]. كما كانت كل عشيرة تدفن موتاها في مقبرة خاصة بها تحرص على حمايتها، وتقدس نفس المعبودات وتقوم بتنظيم طقوس دينية مشتركة، بالإضافة إلى كون كل عشيرة تشكل اطارا للتشاور واتخاذ القرارات التي تهم حياة أفرادها.

ـــ **عنصر اصطناعي** : بالإضافة إلى هذه العناصر التي تربط فيما بينها قرابة طبيعية، تضم العشيرة عددا كبيرا من الأشخاص الذين ألحقوا بها عن طريق اقامة علاقة مصطنعة

---

[14] - فمثلا عشيرة كيكليا Caecilia تدعي انحدارها من حد اسمه كايكليوس Caecilius وعشيرة فاليريا Valeria تدعي انحدارها من فاليريوس Valerius .

تتمثل في نظام الزبونية أو التبعية clientelle الذي لم يقتصر انتشاره على روما فحسب بل كان منتشرا لدى العديد من الشعوب الإيطالية بما فيها الأتروسكيون. في ظل هذا النظام تقوم العلاقة بين التابع والمتبوع (أو بين السيد والزبون) على التزام خلقي بين الطرفين يكون بدوره مبنيا على حسن النية والثقة المتبادلة وهو ما يصطلح عليه الرومان بfides. وهكذا، ومقابل الحماية المطلقة التي يضمنها السيد لزبونه يلتزم هذا الأخير بالطاعة العمياء للسيد. وهي طاعة يعبر عنها بتقديم العون العسكري والسياسي للسيد والقيام ببعض الخدمات. وتبعا لهذا النظام يصبح التابع عنصرا مدمجا في العشيرة التي منحته الحماية بحيث يصبح من حقه أن يحمل اسمها. ويمكن للتابع أن يورث هذه الوضعية لأبنائه اذا لم يعترض على ذلك السيد الحامي.

أما فيما يتعلق بأصول هؤلاء الأتباع فهي جد متنوعة : فبعضهم ينتمي لعائلات فقيرة تكون في حاجة لحماية الأسياد وبعضهم كان من الذين حصلوا من بعض العشائر على قطع أرضية يشتغلون فيها كعمال زراعيين أو من الرعاة الذين يشكلون جيش العشيرة عند الحاجة. كما نجد من بين الأتباع بعض الفقراء الأجانب الذين أتوا إلى روما للبحث عن لقمة العيش وبعض التجار والصناع المستقرين بالمدينة الذين كانوا بحاجة للدخول في إحدى العشائر ليتمتعوا بحماية قضائية تمكنهم من ممارسة مهامهم باطمئنان بالإضافة إلى العبيد المعتقين الذين يظلون تابعين لأسيادهم رغم حصولهم على حريتهم. وكان عتق العبيد أحد أهم الوسائل التي تمكن الأسياد من توفير أعداد ضخمة من الأتباع. ذلك أنه كلما زاد عدد الأتباع الا وزادت قوة العشيرة وأصبح صوتها مسموعا بين العشائر الأخرى. وقد انتشرت هذه العادة بالخصوص خلال القرن الرابع قبل الميلاد مع ازدياد وتيرة الفتح الروماني. ومن الوسائل التي كانت تستعمل لكسب الأتباع قانون الارتباط Applicatio وهو عبارة عن عقد يطلب بواسطته أحد الأشخاص التحاقه بعشيرة معينة. ولقد جرت العادة في روما على أن يقوم الأتباع صباح كل يوم بتحية سيدهم تحية الصباح (salutatia matutına) في حين يقوم السيد باعطائهم سلة sportula مليئة بالمؤن. وستعوض هذه السلة في وقت لاحق بمبلغ من المال.

لقد كانت أغلب العشائر الرومانية من أصل لاتيني. لكن كانت هناك أيضا بعض العشائر الصابينية (كعشيرة كلوديا Claudıa التي أتت من مدينة ريجيلوم والأتروسكية. ولم تكن ساكنة روما ممثلة في هذه العشائر فقط بل كانت هناك شرائح أخرى لا تنتمي إلى النظام العشائري. غير أن أفراد العشائر الرومانية كانوا يعتبرون أنفسهم في موقع قوة بالمقارنة مع غيرهم. ومنذ فترة لا يمكن تحديدها بالضبط تميزت فئة من الأشراف الأثرياء داخل المجتمع العشائري وهي التي عرفت في التاريخ الروماني بالبطاركة patricii .

ب. الأسرة

إذا كانت هذه العشائر قد مكنت من اضفاء لون من التضامن والتعاضد على المجتمع الروماني فان الأسر التي تكون العشيرة تمثل الخلية الأساسية و الحية للشعب الروماني. فكل عشيرة تتكون من عدة عائلات، وكل عائلة تجمع بينها روابط دموية هي أكثر واقعية من تلك التي تجمع بين أفراد العشيرة اذ أنها لا تتجاوز في غالب الأحيان الجد الثالث. وكل أسرة منتمية لعشيرة ما تحمل بالإضافة إلى لقب العشيرة اسما خاصا بها يميزها عن باقي الأسر المكونة للعشيرة[15]. وتشمل الأسرة كل الذين يخضعون لسلطة رب العائلة (الجد الأكبر) pater familias potestas أي الأبناء والنساء والعبيد والبهائم والأملاك العقارية. . . وسوف نرى فيما بعد أن أهمية الأسرة في المجتمع الروماني أكدها قانون اللوحات الإثنتي عشرة الذي اعتبرها كوحدة أساسية قاعدية للمجتمع الروماني. أما في الميدان السياسي فأهمية الأسرة تبدو واضحة ما دام أن الآباء الذين يشكلون مجلس الشيوخ يتم اختيارهم داخل الأسر وليس داخل العشائر.

ج. العوام والبطاركة

بالإضافة إلى العشائر الرومانية كان المجتمع الروماني يتكون من فئة عريضة هي فئة العوام (أو الدهماء). إن تحديد أصول هذه الطبقة كانت ومازالت موضع نقاش. فاذا كانت مجمل العشائر يشكل الشعب الروماني Populus romanus بما تحمله الكلمة من معنى فان أهم ما يميز فئة العوام كونها مهمشة تماما عن التنظيم العشائري وبالتالي عن الشعب الروماني. ولا يمكن الحديث عن هذه الفئة أو محاولة تحديدها الا بربطها بفئة البطاركة باعتبارهما فئتين متعارضتين.

حينما حاول مؤرخو الفترة الجمهورية تحديد هوية البطاركة الذين يمثلون أرستقراطية المجتمع العشائري (وبالتالي المجتمع الروماني) قدموا تفسيرا أقل ما يمكن أن يوصف به أنه غامض. يقولون إن كلمة patricii مشتقة من patrem cire (أي القدرة على تحديد أب). هل يجب أن نتصور أن عوام روما كانوا عاجزين عن معرفة آبائهم؟. . . هذه أطروحة غير جدية بالطبع. ولكن هذا التعريف يحمل في الوقت نفسه معنى آخر يحيل على الأهمية القصوى التي توليها الأرستقراطية الرعوية لضمان استمرارية عاداتها وتقاليدها الثقافية والذهنية. فلا يجب أن يفهم من ذلك التعريف أن البطركي هو الشخص القادر على تحديد هوية والده، فكل العوام في روما قادرون على فعل ذلك، ولكنه الشخص الذي باستطاعته تحديد العشيرة التي ينتمي اليها. فالبطاركة لا يعترفون بوجود العائلات الصغرى التي

---

[15] - فمثلا عشيرة كورنيليا Cornelia تضم مجموعة من الأسر نذكر منها أسرة كورنيليي بالبي Cornelii Balbi وكورنيلي سكيبيونس Cornelii Scipiones. .

ينتمي اليها العوام. ولذلك كان مؤرخو العهد الجمهوري يعرفون البطاركة بكونهم الأشخاص الذين بامكانهم تحديد هوية آبائهم، بمعنى آخر الأشخاص الذين ينتمون لعشيرة ما ينتمي أفرادها لجد مشترك. وهذا المنطق ليس غريبا عن البلاد العربية، فلدى العديد من القبائل العربية لا يمكن للنبيل أن يصبح نبيلا الا اذا تمكن من اثبات أنه من سلالة أحد الأجداد المؤسسين للقبيلة (هذا ينطبق مثلا على بعض القبائل الليبية الحالية).

كيف تشكلت فئة العوام؟

إن الروايات التي نقلها المؤرخون تنسب إلى روملوس قيامه بتقسيم ساكنة روما إلى خواص (البطاركة) وعوام هي مجرد خرافات. فالإسم الذي كان يطلق عليها يدل على طريقة تكوينها.

كلمة plebs إغريقية الأصل plêthos و هي تعني الجموع أو السوقة او الرعاع. فهي عبارة عن جماهير غير منظمة مؤلفة من الفقراء والمهاجرين والمتسكعين وقطاع الطرق. . . هذه هي الصورة التي احتفظت لنا بها الذاكرة التاريخية الأرستقراطية. أما من وجهة النظر التاريخية فيبدو أن تشكل هذه الفئة تم تدريجيا عن طريق تراكم بعض المهاجرين الجدد الذين استقطبتهم روما في بداية فترة الازدهار، وبعض الصناع وأصحاب الحرف الذين استقروا بها لمزاولة مهنهم، وأيضا أفراد الشعوب المغلوبة بدءا بهؤلاء الذين كانوا مستقرين على التلال المجاورة للبالاتان قبل أن تقوم روما بإخضاعهم، يضاف إلى هؤلاء المغضوب عليهم من الأتباع الذين طردهم أسيادهم من العشائر والفلاحون الذين يشتغلون في حقول كبار الملاكين ويعيشون وضعية شبيهة بوضعية الأقنان. وهذه الجماهير التي لا يمكن تقدير أعدادها بالضبط وإن كان يبدو أنها كانت على الأقل تساوي أفراد الشعب الروماني إن لم تفقهم عددا، كانت محرومة من كل الحقوق مدنية كانت أو سياسية ومعرضة لكل أنواع المظالم.

وكما هو الشأن بالنسبة للعوام، تشكلت فئة البطاركة تدريجيا حتى أصبحت طبقة قائمة بذاتها. وإذا كان اسم البطاركة يطلق في الأصل على كل الذين ينتمون إلى العشائر الرومانية فانه من وجهة النظر السياسية ينطبق على بعض أفراد العشائر أو بعض أرباب العائلات الكبرى الذين استطاعوا بفضل ثروتهم وقوتهم أن يبرزوا على الساحة السياسية ويحتكروا جملة الحقوق السياسية والدينية منذ الفترة الملكية بشكل أصبحوا معه يشكلون الطبقة السائدة في المجتمع.

2 . المؤسسات السياسية

تميز النظام السياسي في روما القديمة بوجود ثلاثة هيئات أساسية تمثل أفراد الشعب الروماني دون غيرهم من أفراد المجتمع :

أ. الملك

على رأس الدولة الرومانية الناشئة كان يوجد الملك rex[16]. ومن الطبيعي أن تكون الملكية الرومانية قد عرفت بعض التغييرات طوال عمرها الذي دام ما يناهز قرنين ونصف. فقد اعتاد المؤرخون اللاتينيون على التمييز ضمن لائحة الملوك السبعة الذين تعاقبوا على حكم روما بين قسمين :

ــ قسم أول يتكون من الملوك الأربعة الأوائل اللاتينيين والصابينيين (روملوس، نوما، توليوس هوستليوس، أنكوس ماركيوس) الذين حكموا من سنة 753 إلى سنة 616 قبل الميلاد. وقد تميز عهدهم بوفائهم لجهاز الدولة واستماتتهم في الحفاظ على التقاليد الأبوية واحترامهم للعشائر.

ــ وقسم ثان يمثله الملوك الأتروسكيون (طاركينوس الأقدم، سرفيوس توليوس، طاركينوس الأقوى) الذين امتد حكمهم من سنة 616 إلى سنة 509 قبل الميلاد، والذين اشتهروا بغناهم وثرائهم، وباستعمالهم العنف واستيلائهم المطلق على السلطة وبتغييرهم لكل مظاهر النظام الملكي التقليدي. ولا غرابة في أن تحدد الأسطورة فترة حكمهم بالقرن السادس قبل الميلاد مادام هذا القرن قد شهد قيام أنظمة مستبدة ليس في إيطالية فحسب بل في العديد من مناطق البحر الأبيض المتوسط وخاصة في بلاد اليونان.

يشكل الملك بالإضافة إلى مجلس الشيوخ ومجلس الكوريات الأجهزة الأساسية لنظام الحكم. ولقد ركزت الأطروحة التقليدية على المبدإ التعاقدي للملكية الرومانية. فهي تعتبر الملك كحاكم تم انتدابه من قبل مجموع العشائر الرومانية ليتولى مسؤولية القيادة وادارة الشؤون الدينية والعسكرية. وفي نفس الوقت يبقى مجلس الشيوخ مجسدا للسيادة في الدولة الرومانية باعتباره يحافظ على اختصاصات واسعة خصوصا فيما يتعلق بالسياسة الخارجية. فبالنسبة لأصحاب هذه النظرية يجب النظر إلى الملكية الرومانية على أساس أنها انتخابية تخول السلطة للملك مدى الحياة ولكن هذه السلطة تبقى محدودة لكونه يقتسمها مع مجلس الشيوخ.

غير أن العديد من المؤرخين والقانونيين يؤكدون في تحليلهم للنظام الملكي في روما على الطبيعة المطلقة لسلطة الملك الشيء الذي يجعل من مجلس الشيوخ مجرد هيئة هامشية أو تابعة. وهم يستدلون على رأيهم بالأهمية القصوى التي يعطونها لمفهوم «السلطة القيادية» التي يستمد منها الملك قوته وسلطته.

[16] - أصل هذه الكلمة يوجد في اللغة الكلتية وفي اللغة الهندوأوروبية. ويعتمد بعض المؤرخين على ذلك للتدليل على أن الملكية الرومانية يعود تاريخها إلى الفترة التي سبقت السيطرة الأتروسكية.

ب.السلطة القيادية (أو سلطة القيادة العليا) imperium

يكتسي مفهوم الأمبريوم صبغة خاصة في القانون العام الروماني في مختلف مراحل تطوره باعتباره يدخل في تشكيل وتحديد نوع السلطة التي تخول للملك (أو للحاكم في الفترات اللاحقة) من طرف المجتمع. فكلمة imperium التي قد تكون من أصل أتروسكي مشتقة من فعل impero الذي يعني «قاد» أو «استنهض». ومن وجهة النظر القانونية والسياسية فهي تعني تلك السلطة التي تخولها الآلهة للزعيم. وهي بالتالي سلطة مقدسة ما دامت مستمدة من الآلهة. كيف يمكن للشخص أن يتمتع بهذه السلطة؟ نجد لدى تيتوس ليفوس وصفا للطريقة التي يتم بها اختيار الملك وتخويله سلطة القيادة[17]. فلكي تصبح هذه السلطة سارية المفعول لا بد من القيام بعمليتين متزامنتين تتلوان اختيار الملك : تقديمه إلى الآلهة أو ضرب الفأل (augurium)[18] ثم تلقي الجواب وتأويله auspicium[19]عن طريق مراقبة حركات الطيور. ويبدو أن القيمة الإبداعية التي كانت لمفهوم الأوغريوم في شكله البدائي قد اقتصرت فيما بعد على مضمون استشاري. حيث يكتفي الكاهن باستجواب الإله جوبيتر ان كان الشخص الذي وقع الإجماع عليه لاختياره ملكا لروما يملك «القوة العظمى» التي تجعله قادرا على الحكم.

واذا كان الملك في روما يزاول مهامه مدى الحياة فان الملكية في حد ذاتها لم تكن وراثية. وحتى ان فرضنا أن بعض أشكال الوصية بتفويت الملك لخليفة ما قد تدخلت لتلعب دورا في اختيار الملك، فانه من المؤكد أن هذا الدور كان ثانويا لان النظام الملكي كان يقوم على اساس تبني مجلس الشيوخ لخليفة ما. وهذا ما يدعم رأي القائلين بأطروحة الملكية الانتخابية. ومما يدعم ذلك أيضا تلك المؤسسة التي كانت تسمح للرومان بضمان

17 - *Histoire romaine*. I. 18 sq.

18 - الأوغور augur يمثل الكاهن الذي تتجسد فيه القوى الخارقة أو القوة الإلهية. وهو المسؤول عن ايصال تلك القوة إلى الأشياء أو الأشخاص وبالخصوص إلى الملك عن طريق لمس رأس هذا الأخير بيده اليمنى. ويشكل الكهنة الأوغوريون مجمعا تنسب الأسطورة التقليدية احداثه إلى الملك نوما. وكان عدد أعضائه في البداية 3 ثم ارتفع إلى 16 في عهد قيصر. وقد ظلوا يعتبرون طوال العهد الجمهوري المسؤولين الرسميين عن تأويل إرادة الآلهة، ولهذا السبب كان حضورهم ضروريا إلى جانب الحكام أثناء عمليات ضرب الفأل.

19 - هذه الكلمة مركبة من auis ومعناها طير وspecio وهو فعل «رأى». وهي تعني مراقبة حركات الطيور وغيرها من الرموز التي يعتقد الرومان أن الآلهة تستعملها للتعبير عن رغباتها وارادتها. واذا كان المفهوم الضيق والأولي للكلمة ينطبق على التنبؤات المستقاة من طيران العصافير فانها سرعان ما أخذت تنطبق على كل التنبؤات التي يعتمد فيها الكهنة على تأويل رموز أخرى كالرعد والبرق وشهية الدجاج المقدس. . . وغيرها من الرموز التي تستخدمها الآلهة للتعبير عن مواقفها من مشاريع الأشخاص أو الجماعات. لكن الرجل الروماني يبقى حرا في تصرفه أمام الفأل لأن هذا الأخير قد ينبئه بالمستقبل لكنه لا يستطيع تحديده بدقة. لذلك كان بامكان الروماني أن يحترم تأويلات الكهنة أو عدم الاهتمام بها وتجاهلها. وهذا الموقف هو من خصوصيات الشخصية الرومانية التي كانت دائما تحاول أن تحافظ على توازن بين احترام الآلهة والتشبث بالتقاليد وبين ضروريات الحياة اليومية التي تتطلب منه فعالية مستمرة قد تتناقض أحيانا مع معطيات الديانة.

استمرارية أجهزة الدولة في حالة فراغ مفاجئ لكرسي العرش والتي تدعى «خلافة الملكية» interregnum (أو بين الملكين) والتي استمرت كتقليد سياسي بعد زوال الملكية إلى نهاية العهد الجمهوري. فعند خلو العرش وتعذر اختيار ملك جديد، يقوم مجلس الشيوخ المكون من البطاركة باختيار عشرة من أعضائه يقومون بمهام الملك بالتناوب مدة خمسة أيام لكل واحد منهم. ويدعى الشيخ الذي يتولى هذه المهام «خليفة الملك» interrex. والقاعدة التشريعية التي تفسر هذه المؤسسة كون الحق في تأويل ارادة الآلهة ينتقل مباشرة بعد وفاة الملك إلى مجلس الشيوخ الذي عليه أن يقوم باختيار خليفة له في أقرب الآجال. ولذلك فهو مسؤول بمقتضى هذا الحق بالإشراف على استمرارية أجهزة الدولة في انتظار تعيين ملك جديد. أما المهمة الأساسية المنوطة بالشيوخ الذين ينوبون عن الملك فهي البحث عن مرشح لتولي مهام الملك من بين سكان روما. وعندما يقع الاختيار على أحدهم فانه يكون مدعوا إلى اجتياز الاختبار الالهي augurium قبل أن يتم انتخابه شكليا من طرف مجلس الكوريات.

ج. سلطات الملك

بحكم سلطة القيادة العليا، الإلهية المصدر، التي تخول للملك، فإن هذا الأخير يتمتع بسلطات واسعة تشمل الجانب الديني والقضائي والسياسي والعسكري. ولعل سلطة الملك الدينية هي أكثر وضوحا من غيرها باعتبار أن العديد من مظاهرها ظلت قائمة في الفترة الجمهورية. فكل الدلائل تشير إلى انه بعد انهيار الملكية وتوزيع سلطات الملك على مجموعة من الحكام المنتخبين، ظلت سلطاته الدينية من اختصاص كاهن اطلق عليه اسم «ملك المقدس» rex sacrorum أو «ملك القرابين» rex sacrificulus. وكان هذا الكاهن في الفترة المبكرة من الجمهورية يجسد السلطة الدينية العليا ويحتل أعلى منصب في التراتب الكهنوتي[20]. ويبدو أن احتفاظ الرومان بهذا المنصب كان مصدره تخوفهم من التقلبات التي يمكن أن تحدث في علاقة الإنسان بالآلهة بعد أن تم اقصاء الملك عن العرش وتخليهم عن النظام الملكي بشكل نهائي. يتعلق الأمر بالطبع بعامل نفسي أكثر منه سياسي أو مؤسساتي.

وكيفما كان الحال، فقد كان الملك يشكل حلقة الوصل بين الإنسان والآلهة وبالتالي فهو الذي يملك الحق في تأويل ارادتها مادام اعتلاؤه على العرش قد تم بموافقتها، وهو الذي يترأس الاحتفالات الدينية التي تقدم فيها القرابين. ومن الناحية العملية يعتبر الملك هو المسؤول عن تنظيم التقويم السنوي الذي يفصل فيه الأيام السعيدة و الأيام النحيسة التي تعتبر أيام عطلة مادام أنه يستحيل خلالها اتخاذ القرارات أو استدعاء المجالس للانعقاد. . .

[20] - لكن دوره أخذ يتلاشى تدريجيا لصالح الكاهن الأعظم Pontifex maximus الذي أصبح يعتبر رئيس الهيئة الكهنوتية الرومانية.

ليس من السهل في واقع الأمر أن نضع حدا فاصلا بين ما تعود أصوله إلى التقاليد الرومانية وما أدخله الأتروسكيون من تجديدات على المؤسسات الدينية وبالتالي على المظاهر العامة للملكية الرومانية. غير أن المؤرخين يتفقون على اعتبار الشارات الخاصة التي تميز الملك في روما والتي ترمز إلى الأمبريوم الذي يتمتع به هي من أصل أتروسكي. فقد جرت العادة على أن ينتقل في عربة حربية يسبقها اثنا عشر فائسا lictores يحمل كل واحد منهم رزمة عصي يتوسطها فأس (أو شاقور) كانوا يمثلون الحرس الملكي الذي يقوم بفتح الطريق عند مرور موكب الملك. ويبدو أنهم كانوا يقومون بمساعدة الملك في فرض احترام القوانين و تنفيذ الأحكام الكبرى التي يصدرها (حكم الإعدام). ولا شك أن عددهم (12) يذكر بعدد المدن التي كانت تشكل الكونفدرالية الأتروسكية (12). وهذا ما دعا البعض إلى اعتبار هذا التقليد من التجديدات التي أدخلها الأتروسكيون على مظاهر الملكية الرومانية. ويمكن أن نضيف إلى هذه المظاهر ذات الأصل الأتروسكي : كرسي العرش المصنوع من العاج Sella curilis الذي يجلس عليه الملك، والجبة الأرجوانية toga picta التي تمثل لباسه الرسمي، والصولجان الذي يحمل في أعلاه صورة للعقاب ثم التاج المصنوع من أوراق ذهبية.

كل تلك الشارات كانت تجسد صورة ملك الآلهة جوبيتر وهي مقاربة ستتأكد بشكل واضح خلال الفترة الجمهورية. فاذا كان الحكام الجمهوريون قد نبذوا أغلب هذه الشارات التي لم تعد تستعمل في الحياة السياسية باعتبارها من مخلفات العهد البائد إلا أنها ظلت تحظى باحترام عميق وقيمة كبيرة لدى الرومان الذين يستعيدون ذكراها أثناء الاحتفالات التي تقام لتخليد انتصار أحد القواد العسكريين. فالقائد الذي عاد منتصرا من المعركة تخصص له احتفالات رسمية يصعد خلالها إلى الكابتول حيث معبد الاله جوبيتر في عربة حربية يجرها أربعة عشر حصانا، ويلبس الجبة الأرجوانية كما يحمل الصولجان ويضع تاج الملك على رأسه. فكل هذه الشارات الملكية هي لباس الاله جوبيتر كما يقول تيتوس ليفوس[21] الذي يصبح للقائد المنتصر الحق في ارتدائه لمدة وجيزة (مدة الاحتفال).

السلطات السياسية : يعتبر الملك رمزا لوحدة الشعب الروماني، ولذلك فسلطاته تسري على الشعب الموحد. فالملك هو قبل كل شيء القائد الأعلى الذي يتمتع بالسلطة السياسية العليا. فهو رئيس الجيش الذي يشرف على العمليات العسكرية وهو الذي يأمر بجمع الضرائب والاستيلاء على الغنائم وتقسيمها على الجنود، كما أنه يصدر الأحكام العسكرية. ومع ذلك فانه لا يملك بمفرده الحق في اعلان الحرب أو توقيع معاهدات السلم فذلك من اختصاص مجلس الشيوخ.

---

[21] - *Histoire romaine*, X, 7, 10

أما من حيث السياسة الداخلية فالملك هو صاحب الحل والعقد في روما. فهو الحاكم الأعلى الذي يملك الثروات ويتمتع بحق القيادة التي تسري في جميع المجالات. وهو يعبر عن ارادته باصدار الأوامر dicere interdicere . غير أن هذه السلطة كانت في بعض المجالات أو في بعض الأحيان محدودة بفعل وجود مؤسستين سياسيتين إلى جانبه : مجلس الشيوخ ومجلس الكوريات.

أما من الناحية القضائية فرغم أن وظيفة الملك القضائية ليست واضحة فان الروايات تجعلها شبه مؤكدة. ويجب التنبيه هنا إلى العلاقة المتينة التي تربط القضاء بالديانة. فالملك يصدر الأحكام باعتباره كاهنا أكبر يتلقى الأوامر الإلهية وباستطاعته ترجمتها. لكن الأمر لا يتعلق بقضاء بمفهومه الحالي، لان الملك لم يكن يفصل في الأمور بمقتضى قواعد قضائية مسطرة من قبل. بل كان يحاول أن يجد حلا لكل قضية بواسطة الالهام الإلهي. وعندما تراكمت الأحكام الملكية أصبح من الممكن احداث قواعد عرفية هي التي تنسبها الأسطورة للملك نوما تحت اسم القوانين الملكية leges regiae.

ولا شك في أن فرص قيام الملك بمهمته القضائية كانت نادرة في بداية الأمر. فقد سبق أن أشرنا أن الحياة الاجتماعية بروما الناشئة كانت تندرج في إطار عشائري. ومعنى ذلك أن القضايا والخصومات كانت تحل في اطار العشائر. ثم إن رب الأسرة كان له مطلق السلطة على أفراد أسرته. لهذا السبب كانت المشاكل بين أفراد الأسرة الواحدة تحل على مستوى الأسرة في حين أن المشاكل بين أسر العشيرة الواحدة تحل على مستوى العشيرة. ومع ذلك فإن الحدود بين القضاء العشائري والقضاء الملكي تبقى غامضة. ويبدو من المنطقي أن يتدخل الملك في كل القضايا التي تهدد الأمن العام بروما كنشوب نزاع بين عشيرتين، أو تلك التي تسيء إلى المبادئ الدينية الشيء الذي يمكن أن يجر غضب الآلهة. وكيفما كان الحال، فالرواية تخبرنا عن قيام الملك بتعيين حكام للبث في نوعين من القضايا : جرائم القتل [22] parricidium والخيانة العظمى perduellio[23].

[22] - فقد عرفت الفترة الملكية تشكيل هيئة قضائية Quaestores parricidii كانت مكلفة بالبت في القضايا المتعلقة بجرائم القتل ونجهل كل شيء عن طبيعة هذه الجرائم. فالمفهوم الذي ارتبط بها والذي يجعل منها قيام أحد الأشخاص بقتل أحد الآباء البطاركة يبدو متأخرا. بالمقابل تنسب الروايات إلى الملك نوما قانونا يتهم بparricidium كل من قام باغتيال شخص حر.

[23] - تحكي الرواية أن أصل هذه الهيئة القضائية يعود إلى الفترة التي قام خلالها ثالث ملوك روما توليوس هوستوليوس باعلان الحرب ضد ألبا لونغا. فبعد أن استمرت الحرب لفترة طويلة توازنت خلالها قوى المدينتين، قرر الطرفان اللجوء إلى اختيار ثلاثة محاربين من كل مدينة يتصارعون فيما بينهم ونتيجة هذا الصراع هي التي ستحدد المنتصر. وقد تم اختيار ثلاثة رومانيين ينتمون إلى عشيرة هوراسيا في حين اختار الألبيون ممثليهم الثلاثة من عشيرة كورياسا. وبمجرد نشوب العراك قضي أمر اثنين من الهوراسيين. ثم إن ثالثهم تمكن من قتل الكورياسيين الثلاثة. غير أن الصراع انتهى بمأساة عائلية. ذلك أن أخت الهوراسي التي كانت مخطوبة لاحد الكوراسيين الثلاثة عاتبت أخاها على قتله =

د. مجلس الكوريات

تنسب الأسطورة إلى روملوس قيامه بتقسيم ساكنة روما إلى ثلاث قبائل : الرامنيس Ramnes والتيتيس Tities و اللوكرس Luceres وتقسيم كل قبيلة إلى عشر كوريات curia. إن أسماء هذه القبائل لاتزال غامضة. ويعتقد بعض المؤرخين أنها من أصل أتروسكي أو على الأقل هي أسماء وضعت باللغة الأتروسكية وأطلقت على قبائل وجدت بروما في وقت سابق للسيطرة الأتروسكية. ولذلك تم الإجماع على اعتبار هذا التقسيم بدائيا خصوصا وأن نفس التنظيم يوجد لدى شعوب إيطالية أخرى كالأمبريين والسابيليين. ويبقى النقاش محتدا بين المختصين حول دلالات هذه الأسماء التي يحمّلها البعض مفاهيم جغرافية في حين يرى فيها البعض الآخر مفاهيم عرقية[24]؟

اذا كان وجود هذه القبائل الثلاث ما زال يشوبه الغموض فإن وجود الكوريات مؤكد لأنها استمرت قائمة إلى بداية العهد الأمبراطوري وان كان دورها قد تقلص كثيرا. وكلمة curia من أصل هندوأوروبي مركبة من Ko-wiriya التي تعني «تجمع الرجال». وقد قلنا إن كل قبيلة من القبائل الثلاث كانت مكونة من 10 كوريات. أي أن العدد الإجمالي للكوريات يبلغ 30وهو الرقم الذي لم يعرف تغييرا في الفترات اللاحقة. وكانت كل كوريا تحمل اسما ذا دلالة عرقية (Calvernii) أو طوبغرافية (Foriensis) وهو ما يدعو إلى الاعتقاد أن هذه الكوريات كانت تمثل وحدات عرقية وجغرافية في آن واحد.

أما عن التنظيم الداخلي فقد كان لكل كوريا رئيسها curio يساعده كاهن وفائس. وكان الرئيس يشرف على اجتماعات الكوريا وعلى احتفالاتها الدينية التي تقيمها الكوريا لآلهتها الخاصة وتقدم خلالها قرابينها. وقد كانت هذه الكوريات موزعة في بداية الأمر

= لزوجها الشيء الذي لم يتحمله هذا الأخير فقام بقتلها. فاتهم هوراس بـperduellio أي الخيانة العظمى، الشيء الذي جعل الملك يصدر في حقه حكم الإعدام. لكن هوراس طلب عون الشعب. فأحس الملك بخطورة الموقف فقام بتعيين هيئة قضائية مشكلة من قاضيين duoviri perduellionis للبت في هذه القضية التي تعتبر من الناحية المدنية من اختصاص القضاء العشائري.

[24] - يعتقد البعض أن Ramnes مشتق من اسم Romulus ويطلق على اللاتينيين المستقرين بالبالتان. وTities مشتق من اسم Titus Tatius ملك الصابيين الدي حلف روملوس على عرش روما فهم بالتالي الصابينيون الذين استقروا بروما في الكرينال. أما Luceres فمشتق من lucumo وهو اللقب الذي كان يحمله الملوك الأتروسكيون، فهو ينطبق اذن على الجماعات الأتروسكية المستقرة بالكايليوس. وقد اعتقد دوميزيل أن هذا التقسيم الثلاثي ما هو إلا تعبير عن الوظائف الثلاث التي تلخص تنظيمات روما القديمة في نظره. فاللاتينيون يملكون السلطة السياسية والأتروسكيون القوة العسكرية في حين يختص الصابينيون بالإنتاج باعتبار أغلب عناصرهم من المزارعين. وقد رفض العديد من المؤرخين هذا التفسير واعتبروا أن الأسماء الثلاثة انما تنطبق على تقسيم اداري وترابي لروما : فالقبيلة الأولى تمثل ساكنة تل البالتان، والثانية تمثل ساكنة تلي الكيرنال والكابتول أما الثالثة فهي التي كانت تقطن بالكايليوس والإسكلان.

على كل أحياء روما وتلالها. غير أنه في فترة لاحقة لا يمكن تحديدها بالضبط تم تجميعها في مكان خاص فوق تل البالتان الشيء الذي كان يعني أن المجتمع الروماني خطا خطوة جديدة في طريق الوحدة. وهكذا أصبحت الكوريات الثلاثون تجتمع في مكان واحد comitium، ويشكل رؤساؤها عصبة واحدة يرأسها الكوريو الأكبر curio maximus.

ويعتقد بعض المؤرخين أن الأصل في النظام الاجتماعي بروما ليس هو القبيلة بل الكوريا. ويفسرون ذلك بكون الكوريات كانت في بداية الأمر عبارة عن تجمعات سكنية لها استقلالها الخاص في الميدان الديني والقضائي وحتى العسكري. ثم تجمعت فيما بعد وشكلت القبائل الثلاث ثم اختارت مكانا لعقد تجمعاتها التي يمثلها فيها رؤساؤها تحت رئاسة رئيس أكبر يقوم بمهمة التنسيق.

ولقد لعبت الكوريات دورا أساسيا في التنظيم العسكري. فكل كوريا تعتبر بمثابة خلية للتجنيد حيث كانت تجند وحدة مؤلفة من 100 جندي (centuria) من المشاة. في حين كانت كل قبيلة تلتزم بإعْدَادِ وحدة من 100 فارس. وبذلك يصبح مجموع أفراد الجيش الروماني الرسمي خلال الفترة الملكية 300 فارس و 3000 من المشاة.

أما على المستوى السياسي فقد كان مجلس الكوريات يبت في بعض القضايا التي تهم العشائر الرومانية وكذلك بعض القضايا الدينية التي تهم الكوريات. لكن أهم دور يلعبه المجلس هو موافقته (أو تصويته الشكلي) على الملك الجديد. فاذا كان الملك يحصل على حق الأمبريوم بعد القيام بعملية ضرب الفأل فان هذه السلطة لا تصبح سارية المفعول الا بعد تصويت مجلس الكوريات. وهو تصويت شكلي لا يمكنه أن يغير من واقع الاختيار شيئا، بل هو في الحقيقة تعبير من الجماعات العشائرية عن قبولها وخضوعها لسلطة ذلك الشخص الذي اختارته الآلهة. وباستثناء هذا التصويت الشكلي على الملك الجديد لم يكن لمجلس الكوريات أي دور في اتخاذ القرار السياسي الذي يبقى حكرا على الملك وعلى مجلس الشيوخ. وكان مجلس الكوريات يعقد اجتماعاته بدعوة من الملك الذي يعرض عليه قراراته ليس من أجل مناقشتها ولكن من أجل التصديق الشكلي فقط.

هـ ـ مجلس الشيوخ

لقد لعبت هذه المؤسسة دورا رائدا في الحياة السياسية الرومانية. ويبدو أن هذا المجلس تشكل في بداية الأمر من أرباب الأسر الكبرى patres familiarum الذين يعتبرون الرؤساء الفعليين للمجموعات العائلية وذلك قبل أن تتجمع القرى المتفرقة على تلال موقع روما. ولذلك فان عدد أعضاء هذا المجلس كان مرتبطا بعدد العائلات كما أنه عرف ارتفاعا تدريجيا تبعا لتوسع المدينة وزيادة نسبة نمو سكانها. ولا شك أن هذا العدد ظل لمدة طويلة دون 300 وهو الرقم الذي تحدده الروايات لأعضاء المجلس خلال الفترة الجمهورية. وتحدد

الأسطورة مرحلتين هامتين في تطور المجلس تتعلق أولاهما برومولوس الذي تنسب اليه إنشاء المجلس من مائة عضو والثانية بطاركينوس الأقدم الذي أحدث 100 منصب جديد. ومن المحتمل أن تكون عملية اختيار الشيوخ تتم داخل العشائر اما بالتعيين المباشر وإما بالانتخاب. ولكن في ظل الملكية الأتروسكية أصبح الملك هو الذي يختار أعضاء المجلس.

وما زالت مشكلة السلط التي يتمتع بها المجلس محور نقاش. اذ يعتقد بعض المؤرخين أن مجلس الشيوخ يمثل أعلى هيئة سياسية في روما وأنه المالك الحقيقي للسلطة التي يقتسمها مع الملك. في حين يعتبر آخرون أن الملك تتجسد فيه السلطة المطلقة وبالتالي فهو لا يترك لمجلس الشيوخ سوى تلك التي جرت العادة أن تقوم بها المجالس العائلية. وكيفما كان الحال فمن المؤكد أن مجلس الشيوخ قد ساهم مساهمة فعالة في اقامة النظام الملكي وصيانته. ثم انه عن طريق «خلافة الملك» interregnum كان يقوم باختيار الملك الجديد وهذا دليل على الدور الهام والأساسي الذي لعبه المجلس في الحياة السياسية. وتفسير ذلك الدور يكمن في كون أعضائه يمثلون قوة لا يمكن للملك تجاهلها أو تجاوزها. فهم الذين يرأسون الأسر التي تقع على عاتقها أعباء الخدمات الأساسية في الدولة والتي تتمثل في دفع الضرائب وتطويع المجندين. ولذلك كان على الملك أن يحرص على متانة روابطه وانسجام علاقاته مع المجلس. ويبدو أن هذا الأخير كان يساعد الملك في أداء مهامه على الرغم من غياب قواعد قانونية أو تشريعية تحدد بشكل واضح مهام و اختصاصات المجلس. ولا شك أن دور المجلس يكون أساسيا عندما يتعلق الأمر بقضايا هـ.. تخص حياة المدينة عامة في علاقاتها بالخارج (اعلان حرب، عقد اتفاقية سلام. . .) ففي هذه الحالة يسعى الملك إلى دعوة المجلس للاجتماع حتى يتمكن من الاطلاع على رأيه.

تلك اذن هي أهم مميزات النظام الاجتماعي و السياسي لروما خلال الفترة الملكية. ولا داعي للتذكير أن هذه الصورة العامة استوحاها المؤرخون من بعض الإشارات المصدرية وخصوصا من مخلفات الفترة الملكية التي استمرت لمدة طويلة بعد اقامة النظام الجمهوري. لكن مع النمو الذي شهدته روما الملكية في ظل السيطرة الأتروسكية سيتم ادخال بعض التعديلات على جهاز الدولة والتي سيكون لها أعمق الأثر في التطور الذي عرفته روما منذ القرن السادس قبل الميلاد.

3 . الإصلاحات الملكية

لقد بقي اسم ثاني الملوك الأتروسكيين سورفيوس توليوس منقوشا في الذاكرة الرومانية كأحد رموز الإصلاح الذي حاول ادخال تغييرات جذرية على النظام الاجتماعي والسياسي الروماني بهدف تحديث أجهزة الدولة وخلق مؤسسات جديدة تتماشى والتطور الذي تعرفه المدينة الناشئة في كل المجالات. إن أهمية هذه الإصلاحات تكمن في كونها حددت الإطار

العام الذي سيطبع تطور روما لفترة طويلة. وقبل تحليل أهداف وخلفيات هذه الإصلاحات سنحاول أن نتعرض بايجاز لمضمونها.

أ. نظام الطبقات الخمس (أو النظام السنتوري)

لقد كان هدف الإصلاحات هو اعادة تنظيم روما سياسيا وعسكريا. ولذلك أدخل سورفيوس توليوس مبدءا جديدا في توزيع الحقوق والواجبات. فعوض مبدإ الانتماء العرقي الذي كان يؤطر حياة الفرد ومساهمته في الحياة العامة بروما أصبحت الثروة cens هي التي تحدد هذا الدور. فقد تم توزيع المواطنين على خمس طبقات تضم كل واحدة منها عددا محددا من السنتورات :

الطبقة	الثروة بالآس	السنتورات	الشبان	الكبار	المجموع
1	100000	الخيالة	12	6	18
		المشاة	40	40	80
		تقنيون			02
2	75000		10	10	20
3	50000		10	10	20
4	25000		10	10	20
		موسيقيون			02
5	11000		15	15	30
تحت الطبقات		معفاة من الخدمة		01	01
مجموع					193

فالطبقة الأولى تشمل الأفراد الذين تزيد ثروتهم عن 100000 آس[25] . والثانية كل الذين يصل رأسمالهم إلى 75000 آس . . . وهكذا إلى أن نصل إلى الطبقة الخامسة التي لايزيد رأسمال أصحابها عن 11000 آس. وكان على كل طبقة أن تساهم في الجيش الروماني بعدد معين من السنتورات[26] نصفها مكون من الشبان الذين تتراوح أعمارهم بين 17 و 47 سنة ويشكلون جيش روما الرسمي والنشيط، بينما يتكون النصف الثاني من الكبار الذين تتراوح أعمارهم بين 46 و 60 سنة ويشكلون الجيش الإحتياطي. أما الطبقة الأولى

[25] - وحدة نقدية من البرونز تعادل وحدة قياسية للوزن عند الرومان (327 غ.).

[26] - Centuria وحدة مكونة من 100 رجل.

فهي ملزمة بتقديم 18 سنتورة من الفرسان 12 منها خاصة بالشبان و 6 بالكبار وهي تقدم في الوقت نفسه أكبر عدد من وحدات المشاة : 80 . أما الطبقات الثانية والثالثة والرابعة فكل واحدة منها تقدم 20 سنتورة للجيش نصفها خاص بالشبان والنصف الآخر مكون من الكبار. في حين وُزِّعَ أفراد الطبقة الخامسة والأخيرة بشكل متواز على 30 سنتورة (15 للشبان و15 للكبار).

ولا بد أن يكون القارئ قد لاحظ عدم التوازن الذي يطبع توزيع السنتورات على الطبقات. فالطبقة الأولى التي تضم أكثر أفراد المجتمع ثروة وأقلهم عددا تتحمل أكثر من غيرها أعباء الجندية. إن عدم التوازن في عدد السنتورات المخصصة لكل فئة يفسر بكون أفراد الجيش يتحملون شخصيا – في ظل هذا النظام – نفقات التسليح. أي أنهم مسؤولون عن شراء عتادهم الحربي على حسابهم الخاص وليس على حساب خزينة الدولة. ولذلك فان أغناهم كان أقدرهم على توفير حاجيات الجيش من رجال وسلاح. ثم ان هناك فرقا في نوعية الأسلحة التي تتوفر عليها سنتورات كل طبقة. فأفراد الطبقة الأولى كانوا يحملون أسلحة برونزية كاملة تتضمن أسلحة دفاعية (قبعة، درعا دائري الشكل، وساقيتين لحماية الساقين وترسا) وأسلحة هجومية (الرماح والسيوف). في حين أن أفراد الطبقتين الأخيرتين لا يملكون سوى أسلحة هجومية. وقد أضيفت إلى هذه السنتورات كلها سنتورتان خاصتان بالتقنيين يتم اختيار أفرادها في كل الطبقات (نجارون حدادون) وسنتورتان خاصتان بالموسيقيين. وقد ألحقت أولاهما بالطبقة الأولى تكريما لها لأهمية الخدمة التي تقوم بها أثناء الحملات في حين ألحقت الثانية بالطبقة الرابعة.

أما الذين لا تزيد ثروتهم عن 11000 آس فهم يعتبرون في ظل الإصلاح الجديد فقراء لايملكون شيئا للدفاع عنه وبالتالي لا حق لهم في شرف الخدمة العسكرية. ولعل الإسم الذي أطلقه الرومان عليهم (capite censi أي الذين لايملكون سوى رؤوسهم) يعبر عن مدى فقرهم وعن مركزهم في التركيبة الاجتماعية الجديدة. وما دام أنهم لايتحملون أعباء الخدمة العسكرية ولا يساهمون في العبء المالي للدولة[27] فانهم يشكلون فئة خارجة عن نظام الطبقات (infra classem «ما تحت الطبقات»). ومع ذلك وحتى لا يكونوا مقصيين أو مهمشين كليا عن فكرة التضامن العسكري التي يفرضها العيش في دويلة-المدينة فانهم يقدمون سنتورة واحدة من المشاة معفاة من الخدمة العسكرية. إضافة إلى هؤلاء كان العبيد والمعتقون واليتامى والمواطنون الرومانيون الذين انتزعت منهم لسبب أو لآخر حقوقهم السياسية والمدنية محرومين من حق الخدمة العسكرية. ذلك لأن هذه الأخيرة كانت تعتبر في نفس الوقت واجبا وحقا من حقوق المواطنة. وهكذا نجد أن مجموع السنتورات يصل

[27] – أفراد الطبقات الخمس كانوا يتقاسمون الأعباء الضريبية أيضا حسب الطبقة التي ينتمون اليها.

إلى 193 سنتورة تأخذ منها الطبقة الأولى حصة الأسد وسيكون لذلك انعكاساته في المجال السياسي.

ب. مجلس السنتورات

لقد أدى هذا التقسيم الجديد إلى توزيع الحقوق السياسية بشكل غير متواز تبعا لمركز كل طبقة في النظام الطبقي وأهمية مساهمتها في الحياة العسكرية والضريبية. لقد أحدث مجلس جديد يدعى مجلس السنتورات الذي كان يجتمع في حُقول الإله مارس، خارج أسوار المدينة، بنفس الطريقة التي كان يجتمع بها الجيش الذي يتهيأ للقيام بحملة عسكرية. وكانت كل وحدة مئوية (السنتورة) تمثل في الوقت ذاته وحدة حربية داخل الجيش ووحدة انتخابية داخل المجلس. أي أن كل سنتورة كانت تملك صوتا واحدا. وكان النظام المتبع في التصويت يتبع نظام التراتب الطبقي أي أن الطبقة الاولى تملك دائما حق الأسبقية في التعبير عن رأيها. فلو فرضنا مثلا أن مشروعا ما أخضع للتصويت داخل المجلس فان سنتورات الطبقة الأولى يكون لها الحق في البدء بالتصويت. حيث يتم سحب القرعة لمعرفة أية سنتورة من سنتورات الفرسان تكون سباقة للتصويت. ثم بعد ذلك يصوت أفرادها الواحد تلو الآخر ورأي أغلبية الأفراد يمثل رأي السنتورة ثم تتلوها السنتورات الأخرى إلى أن تتوفر الأغلبية . حينها تتوقف عملية التصويت. ومعنى ذلك أن هذا النظام قد أقيم على أساس يسمح دوما للطبقة الاولى بتبوء مركز الصدارة مادام أن سنتوراتها توفر أغلبية الأصوات (98 سنتورة من أصل 193). ولذلك فنادرا ما صوتت سنتورات الطبقة الثانية، أما سنتورات الطبقات الأخرى فلم تدل بصوتها أبدا.

ج. التنظيم الإداري

لقد مست هذه الإصلاحات أيضا التقسيم الترابي لروما. ففي عهد الملوك الأتروسكيين عرفت روما نموا متزايدا في عدد ساكنتها وذلك بفعل وفود العديد من المهاجرين الجدد. فكان من الضروري خلق اطار اداري جديد يسمح باستيعاب هذا التدفق البشري. كما أن تطبيق الإصلاحات الجديدة خصوصا في الميدان الضريبي كان بحاجة إلى تأطير المواطنين بشكل يسمح للدولة بأن تنظم عملية جمع الضرائب.

وهكذا، وعوض القبائل الثلاث القديمة التي كان الانتساب اليها ينبني على النسب، أحدث الدستور الجديد قبائل جديدة يسجل فيها السكان حسب *انتمائهم الجغرافي (أي* حسب مقر السكنى) :

ــــ 4 قبائل حضرية توازي أربع مناطق أو أحياء بروما : وهي قبائل البالاتينا والاسكلينا والكولينا والسوبورنا.

ــ و10 [28] قبائل بدوية وزع عليها الأفراد القاطنون خارج المدار الحضري لروما. وفي الوقت الذي ظل فيه عدد القبائل الحضرية مستقرا استمر عدد القبائل البدوية في الارتفاع خلال الفترة الجمهورية تحت تأثير التوسع الروماني إلى أن وصل إلى 31 قبيلة في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد. وهكذا أصبح كل مواطن روماني ينتمي إلى قبيلة معينة تشكل، كما سنرى ذلك فيما بعد، عنصرا من عناصر هويته الرومانية.

د. الأهداف والخلفيات والنتائج

لقد أثارت هذه الاصلاحات جدلا كبيرا في أوساط المؤرخين حول خلفياتها وأهدافها بل وحتى حول مدى مصداقية نسبتها إلى الملك سرفيوس توليوس. فبعضهم يعتقد أنها جاءت متأخرة عن عهد هذا الملك معتمدين في تبريرهم لهذا الرأي على كون النصوص التي تروي جزئياتها (وأهمها نص تيتوس ليفوس وديونيسيوس الهاليكارناسي) تحمل مفارقات واسقاطات تاريخية أهمها أن ادخال الآس في تقويم الثروة لا يمكن أن يؤرخ بالفترة الملكية ما دمنا على يقين تام بان ظهور العملة في روما يعود إلى القرن الرابع قبل الميلاد على أقصى تقدير. أما خلال العهود السابقة، وخصوصا خلال الفترة الملكية، فقد كانت الثروة تعدد اما برؤوس الماشية أو باليوجيرات Jugerum (= ربع هكتار). لكن المعارضين لهذا الرأي يدحضون هذا التبرير بقولهم إن المؤرخين الرومان حاولوا التعبير عن معطيات قديمة بمفاهيم عصرهم حتى يتسنى لهم تقريب الصورة إلى أذهان قرائهم. وأيا كان السبب الذي يمكن أن نفسر به ادخال الآس في تقويم الثروة، فلا يمكن انكار أن العديد من مظاهر هذه الاصلاحات سبق بالتأكيد قيام الجمهورية في روما التي حافظت على استمرارية النظام الجديد.

ولا شك في أن التطور الذي شهدته روما في ظل الملكية الأتروسكية كان له أثره البالغ في الدفع بالملوك الأتروسكيين إلى تطوير مؤسساتها. فاذا كان النظام القديم الذي عرفته روما خلال فترة حكم الملوك الأربعة الأوائل صالحا لإدارة شؤون مدينة مازال يغلب على تركيبتها الاجتماعية التنظيم العشائري ومازال أفرادها متشبثين بالتقاليد البطركية، فان التوسع السريع والمفاجئ الذي عرفته في ظل الملكية الأتروسكية أدى إلى تغيير المعطيات الاجتماعية وبالتالي إلى إحداث خلل في موازين القوى السياسية والعسكرية. وكان من المنطقي أن يسعى الملوك إلى اقامة نوع جديد من العلاقات بين مختلف مؤسسات الدولة وإلى خلق قيم سياسية جديدة تتماشى و التطور الجديد.

ومن بين الخلفيات التي تكمن وراء اصلاحات الملك سيرفيوس توليوس كون البطاركة أخذوا يشكلون قوة سياسية يتزايد نفوذها في المجتمع إلى حد أصبحت معه تهدد وجود

[28] - لا يتفق المؤرخون على عدد هذه القبائل البدوية خلال الفترة الملكية.

الملكية نفسها. فقد أصبحت هذه الأرستقراطية تورث أبناءها المقاعد في مجلس الشيوخ الذي شكل المنبر الذي تباشر من خلاله نفوذها وسلطتها الاجتماعية والسياسية. وكانت تتدخل في العديد من مظاهر الحياة العامة باعتبار أن أفرادها هم الذين يسيرون فعليا أمور العشائر التي تشكل الشعب الروماني. وفي الوقت نفسه بدأت روما تعرف تصاعد دور العوام خصوصا وان العديد من أفراد هذه الفئة تمكنوا من الحصول على ثروات هائلة بفضل الأرباح التي درتها عليهم صنائعهم أو تجاراتهم. ورغم ذلك فقد كان البطاركة مستمرين في تجاهلهم وابعادهم عن الحياة السياسية وحرمانهم من الحقوق المدنية. إن تزايد قوة هذه الفئة كان ينذر بحدوث أزمة اجتماعية وسياسية. فكان لا بد من التفكير في إدماجها -ولو جزئيا- في الحياة العامة.

وكان لإدماج أغنياء العوام نتائج إيجابية بالنسبة للملك والأرستقراطية السيناتورية على السواء. ذلك أن هذه الأخيرة أصبحت تتقاسم أعباء الضرائب والخدمة العسكرية مع الفئة الجديدة عوض أن تتحمل ذلك بمفردها كما كان عليه الحال في السابق. وكانت تلك خطوة إيجابية بهدف تدعيم موارد الدولة خاصة وأن عهد الملك سيرفيوس توليوس عرف حركة نشيطة للتوسع في سهل اللاتيوم ازدادت معها حاجيات الملك إلى المال والرجال. ثم ان اعادة تنظيم الجيش كان يمثل ضرورة ملحة لكي تتمكن روما من كسب المزيد من الانتصارات. أضف إلى ذلك أن هذه الاصلاحات تزامنت مع وقت عرفت فيه الجيوش المتوسطية تحولات عميقة جعلتها تعتمد أكثر فأكثر على فيالق المشاة عوض كتائب الفرسان وهو ما يشهد عليه تألق نظام الفالنجة لدى دويلات المدن الاغريقية.

ولكن الملك والأرستقراطية السيناتورية كانا واعيين بعدم امكانية فرض واجبات على قسم من العوام دون تخويلهم جزءا من الحقوق السياسية ما دام أن الأرستقراطية كانت ترفض مطلقا ادماج هذه الفئة في الشعب الروماني بتخويلها جميع الحقوق التي يتمتع بها عادة المواطن الروماني. ولذلك كان لا بد من خلق هيأة سياسية جديدة تمثل فيها جميع الفئات الملتزمة بالخدمة العسكرية والتي لا تعوض مجلس الشعب القديم (مجلس الكوريات) الذي استمر قائما رغم اقتصار دوره على الجانب الديني، ولكنها تكمله. لكن هذا المجلس الجديد (مجلس الشعب المجند أو مجلس السنتورات) لم يكن له الحق في اتخاذ قرارات هامة بل انه يستمع فقط إلى الخطابات التي يوجهها الملك أو القرارات التي يتخذها قصد التصويت عليها دون مناقشتها بل فقط ليعلن تأييده لها خاصة منها القرارات التي ترافق اعلان الحرب. ويجب انتظار الفترة الجمهورية لكي نرى هذه المؤسسة وقد حددت *اختصاصاتها بدقة وأصبحت تلعب دورا فعالا في الحياة السياسية والتشريعية.*

المهم هو أن قيام هذه المؤسسة كان ينبئ بحدوث قطيعة نهائية مع الإطار القديم للحياة السياسية بروما المبني على الإنتماء العرقي واقامة علاقات جديدة مبنية على الثروة والانتماء

الجغرافي. ولذلك يمكن اعتبارها أول خطوة هيأت الطريق للانتقال من النظام العشائري التقليدي إلى نظام respublıca (المسألة العمومية) الذي نترجمه عادة بالجمهورية. بل ان بعض المؤرخين يرى في هذا الاصلاح محاولة لدمقرطة المجتمع الروماني. ولا أعتقد أننا بحاجة إلى التدليل على هشاشة هذا الرأي ما دمنا قد رأينا أن النظام الجديد لا يسمح لجميع ساكنة روما بحق التمثيلية، بل إن هؤلاء الذين كانوا ممثلين في المجلس لا يعبرون في الواقع عن توجهات أغلبية الأفراد ولكن عن توجهات فئة قليلة هي التي تحتكر الثروات.

إن ما يعتبره البعض محاولة من سيرفيوس توليوس هدفها دمقرطة المجتمع ما هي في نهاية المطاف سوى تسوية سياسية بين الملك والأرستقراطية من جهة والطبقة المتوسطة الناشئة المنبثقة عن العوام من جهة أخرى. وهي تسوية كانت تحافظ في واقع الأمر على مصالح الأرستقراطية البطركية وتحقق جزءا من أحلام وتطلعات العوام. فبعقد حلف مع أغنياء العوام الذين كانوا مستعدين للتحالف مع البطاركة استطاع هؤلاء بفعل التقسيمات الانتخابية الذكية وبفعل تمكنهم من ترك فقراء العوام خارج اللعبة السياسية من المحافظة على دورهم الريادي في ادارة شؤون المدينة إلى جانب الملك. ولقد نبه تيتوس ليفوس إلى ذلك حينما لخص فلسفة هذا النظام قائلا :«لقد تم تشكيل هذا النظام الطبقي بطريقة توحي شكليا بانه لا يقصي أحدا من التصويت، ولكنه في العمق يبقي السلطة كلها بين يدي الشخصيات البارزة في المدينة»[29].

ولا شك ان هذا النظام يدل على براعة وفطنة سياسيتين نادرتين. لكن إلى أي حد سيسمح بتحقيق الأهداف المتوخاة منه؟ ان تطبيقه سيؤدي في وقت وجيز إلى ظهور نزاعات و صراعات من نوع جديد. كما أنه سيؤدي بالأرستقراطية إلى مواجهة حاجز لم يكن في الحسبان : انه التحالف بين بورجوازية العوام «المدجنة» سياسيا وهؤلاء الذين تم اقصاؤهم من الحياة المدنية. بالإضافة إلى هذا الحاجز كان عليها أن تواجه الملكية نفسها التي لم تعد قادرة على حماية مصالح الأرستقراطية السيناتورية وهذان الواقعان هما اللذان سيؤديان إلى التحول من النظام الملكي إلى النظام الجمهوري في روما كما أنهما سيطبعان التطور السياسي الذي عرفته المدينة خلال أزيد من قرن ونصف منذ سقوط الملكية.

---

29 - Histoire romaine, I, 43, 10.

الباب الثالث

نشأة الجمهورية

الفصل الأول

الصراع من أجل الجمهورية
فترة المخاض

لقد اعتاد المؤرخون القدامى تفسير انهيار النظام الملكي في روما باستبداد الملوك الأتروسكيين. وهم يقصدون بذلك التغيير الذي حصل في طبيعة الملكية بعد وصول الملوك الثلاثة الأواخر إلى الحكم حيث أقاموا أنظمة حكم استبدادية شبيهة بالأنظمة الاستبدادية التي عرفتها بعض دويلات المدن الإغريقية والتي لم تكن تخضع لقوانين معينة.

1 . الرواية

تحكي الرواية أن طاركينوس الأقوى استولى على الحكم بالقوة بعد أن تمكن من اغتيال صهره الملك سيرفيوس توليوس وأقام نظاما استبداديا أصبح فيه هو الحاكم الوحيد والمطلق الذي يمارس مهامه دون استشارة مجلس الشيوخ. بل إنه عمد إلى التصفية الجسدية كأسلوب للقضاء على المعارضة في صفوف البطاركة الذين كانوا غير راضين على الوضع الجديد. ولكونه كان يعرف أن هؤلاء لن يترددوا في قتله إذا سمحت لهم الفرصة بذلك فقد أحدث لنفسه حرسا خاصا فزاد ذلك من انعزاله عن المجتمع. وتعتبر الرواية أن قيام سكستوس Sextus ابن الملك باغتصاب لوكريس Lucrèce (احدى ربات البيوت الرومانيات) قد عجل بقيام الثورة في روما، بل إن المؤرخين الرومان يعتبرون هذه الحادثة سببا مباشرا في قيام الثورة التي قادها البطركيان بروتوس Brutus وكولتان Collatin (زوج لوكريس) والتي انتهت بطرد الملك وحاشيته من المدينة وإقامة النظام الجمهوري سنة 509 ق. م.

لكن هذا التفسير ما هو في واقع الأمر سوى أحد محاور الروايات الشعبية التي كانت تتناقلها ألسن الرواة في روما والتي ألهمتهم اياها الإديولوجية الجمهورية المتأخرة. فإذا كان العداء اتجاه السيطرة الأتروسكية قد لعب دورا في انهيار الملكية فإن تغيير النظام لم يتم بالشكل البسيط والسريع الذي يحاول مؤرخو مدرسة الحوليات الرومانية ايهامنا به. إنه نتيجة تطور طويل تواكبت خلاله عدة أزمات داخلية وخارجية أدت في نهايتها إلى اقصاء الملك. ورغم أن أحداث هذه الفترة مازال يحيط بها الكثير من الغموض فإنه من المهم

التذكير بان ظاهرة سقوط الأنظمة الملكية لم تقتصر على روما فحسب بل إن تحولات سياسية مماثلة عمت في نفس الفترة تقريبا (ق. 6 و5 ق. م.) جهات أخرى من إيطالية (اتروريا، مدن اللاتيوم، أمبريا. . .) وبلاد الإغريق. ورغم أن العقود الثلاثة الأولى التي تلت انهيار النظام الملكي والتي كانت مليئة بالأحداث والوقائع الهامة لا زالت تحافظ على أسرارها الشيء الذي يجعلنا عاجزين عن معرفة الظروف التي أحاطت بالمرور من الملكية إلى الجمهورية الا أنه يمكننا التأكيد على أن هذا المرور لم يتم بشكل مباشر بل عبر مراحل عدة.

2 . الملابسات الداخلية

لا شك أن سقوط النظام الملكي كان يخدم مصالح الأرستقراطية السيناتورية التي أخذت تحس بتراجع دورها منذ أن قام ثاني ملوك الأتروسكيين بادخال اصلاحات على نظام الدولة و المجتمع. ويبدو ذلك جليا إذا ما حاولنا أن نقرأ ما خلف هذه السطور التي وصف بها تيتوس ليفوس الجو العام بروما بعد نفي الملك طاركينوس الأقوى : «**بالنسبة للبطاركة ، فقد كانت الفرحة عارمة . أما العوام الذين تم التواطؤ معهم إلى حدود هذا التاريخ فقد أصبحوا معرضين لأكبر المظالم**»[1]. لقد قلنا آنفا إن الملك طاركينوس الأقوى استولى على الحكم بالقوة. وذلك يعني أنه تحدى كل القواعد التي كانت تعتبر تقاليد سياسية ودينية لدى المجتمع الروماني. ولكي يتمكن من الحفاظ على السلطة كان من الضروري أن يتآمر مع أثرياء العوام حتى لا يعارضوا مشاريعه السياسية. وكان المقابل الذي اقترحه عليهم هو منحهم حقوقا سياسية أكثر من تلك التي منحهم إياها دستور سرفيوس توليوس. كما أنه حاول أن يأتلف قلوب البطاركة الأعضاء في مجلس الشيوخ. وكأي مستبد فقد عمد إلى النفي والقتل كوسيلتين لإخماد صوت معارضيه خارجا بذلك عن التقاليد القديمة. ثم انه قام بسن سياسة عمرانية هدفها اقامة المنشآت الكبرى والمباني العمومية وتجميل المدينة وهو ما وفر العمل لفقراء روما من العوام. وفي نفس الوقت اتجه نحو تدعيم الجهاز العسكري الذي استغله لتوسيع فتوحاته في اللاتيوم. إن معالم هذه السياسة لا تختلف كثيرا عن تلك التي تبناها رواد الأنظمة الاستبدادية tyrannos في دويلات المدن الإغريقية وخصوصا تلك التي اتبعها بيزيستراد في أثينا. إنها سياسة معادية للطبقة الأرستقراطية التقليدية، وتعتمد على التحالف مع الطبقة الوسطى. أما بالنسبة للعوام فلم تكن سياسة طاركينوس تعادي مصالحها بل على العكس من ذلك كانت تمكنها من بلوغ بعض مطامحها. فكان منطقيا أن تأتي محاولات الاجهاض من لدن أفراد الارستقراطية.

---

[1] - *Histoire romaine*, II, 21, 6-7

وجاءت التطورات الخارجية لتوفر الظروف المواتية لرد الفعل الأرستقراطي. ذلك أن العوامل الخارجية لعبت دورا هاما في اضعاف سلطة الملك وتقويض أسس النظام الذي أقامه إلى درجة يمكن معها اعتبار سقوط الملكية أحد حلقات مسلسل الصراعات التي تتجابه فيها قوى محلية متعددة في اللاتيوم واترووريا.

3 . التطورات الخارجية

من المستحيل الادعاء بامكانية سرد وقائع الأحداث الخارجية التي عرفتها روما خلال فترة المخاض هذه. فالمصادر التي نعتمدها -وكلها لاتينية- تطغى عليها روح الوطنية التي تحاول دائما أن تعطي لروما مركز الصدارة في كل الوقائع. لكن من الممكن تخيل التطور الذي عرفه سهل اللاتيوم من خلال محاولة القيام بربط المعلومات المتفرقة التي نقلتها المصادر.

منذ أن احتل الأتروسكيون سهل الكومبانيا Campania وجدوا أنفسهم وجها لوجه أمام العناصر الإغريقية التي استقرت في المنطقة منذ فترة قديمة خصوصا في مدينة كوماي Cumae. وتخبرنا الروايات الإغريقية أن الأتروسكيون حاولوا اخضاع المدينة سنة 524 ق. م. لكنهم فشلوا أمام صمود أهلها بقيادة حاكمهم أرستوديم Aristodème الذي حاول استغلال انهزام الأتروسكيين لتوجيه ضربة قاضية عليهم.

كانت أخطر مشكلة تواجه الأتروسكيين في الجنوب هي المحافظة على الطريق الاستراتيجي الذي يربطهم بوطنهم الأم في اترووريا. وكان هذا الطريق يخترق سهل اللاتيوم باعتبار أن الممر الوحيد والآمن الذي يمكنهم من عبور التبر هو روما. لذلك اعتمدت خطة أرستوديم على تأليب سكان اللاتيوم ضد الأتروسكيين حتى يتم قطع الطريق على وصول الامدادات من الشمال وهو ماسيسهل له عملية محاصرة أتروسكيي الجنوب. ولم يكن تنفيذ هذه الخطة بالأمر الصعب. فالأرضية الاجتماعية والسياسية في اللاتيوم كانت قابلة لاعلان التمرد ضد حاكم روما الذي ما فتئ يقمع ويضطهد الفلاحين. وهكذا تم التحالف بين كوماي وشعوب اللاتيوم واندلعت الثورة التي ربما واكبتها أحداث مماثلة في قلب روما والتي أدت إلى نفي طاركينوس الأقوى. غير أن هذا الأخير سوف يلجأ إلى طلب العون من بورسنا Porsenna حاكم مدينة كلوزيوم Clusium الأتروسكية الذي أعد حملة عسكرية وضرب الحصار على روما. ولا نعلم ما الذي حدث فيما بعد. ولكن يبدو أن بورسنا قد استطاع الاستيلاء على روما واحتفظ بها لنفسه الشيء الذي أثار ثائرة طاركينوس الذي اضطر بعد اقصائه عن الحكم إلى التحالف مع اللاتينيين ضد عدوه الجديد. ثم أرسل بورسنا جنوده إلى أريسيا Aricia قرب جبال الألبان حيث لقيت هزيمة نكراء أمام اللاتينيين

وحلفائم الكوميين[2]. واستطاع طاركينوس أن يحصل بفعل تحالفه مع اللاتينيين على حق اللجوء السياسي في المدينة الإغريقية كوماي حيث توفي سنة 495 ق. م.

لقد ارتبطت كل هذه الأحداث بمشكلة العصبة اللاتينية. ذلك أن المدن اللاتينية كانت -على غرار المدن الأتروسكية- منضوية تحت لواء عصبة واحدة. والظاهر أنها كانت تضم 30 مدينة (منها روما) اعتادت منذ وقت مبكر لا يمكن الجزم بتحديده على ارسال مندوبيها مرة كل سنة إلى معبد فيدرالي حيث يقيمون احتفالات دينية ويقدمون القرابين للآلهة ويشاركون في الاجتماعات المشتركة تحت رئاسة دكتاتور لاتيني dictator latinus الذي يتم انتخابه كل سنة والذي يقوم بدور منسق العصبة. وكانت هذه الاجتماعات فرصة لاتخاذ القرارت الهامة، عسكرية كانت أو ديبلوماسية، والتي تلزم كل الشعوب اللاتينية. وقد كان المعبد الفيدرالي يقع في بادىء الأمر في جبل ألبانو Albano[3] حيث كان مكرسا لعبادة الاله جوبيتر اللاتيني. غير أنه كان يتنقل من حين لآخر ليستقر في المدينة التي تصبح أكثر قوة وهيبة من نظيراتها. فبعد أن هدمت مدينة ألبا لونكا، اختار اللاتينيون مدينة لافنيوم كمركز ديني وسياسي لهم جميعا. وقد حاول الرومانيون أن يجعلوا من مدينتهم مركزا للعصبة اللاتينية وذلك عندما قاموا بنقل معبد الالهة الفيدرالية ديان إلى تل الافنتان Aventin. ولكن مع استيلاء الملوك الأتروسكيين على عرش روما أصبحت هذه الأخيرة تراقب النشاط الفيدرالي وتفرض سيطرتها على المدن اللاتينية الحليفة. ولم يكن ذلك ليرضي اللاتينيين الذين أخذوا يكنون عداء شديدا لملوك روما خصوصا طاركينوس ثم بورسينا. . .

وهكذا يبدو جليا أن انهيار الملكية لم يكن فقط نتيجة لثورة داخلية ولكن الأحداث الخارجية لعبت فيها دورا حاسما. وكان معنى هذا الانهيار اضعاف قوة الأتروسكيين. فاستقلال روما والمدن اللاتينية الأخرى قسم الأمبراطورية الأتروسكية إلى قسمين : قسم شمالي وآخر جنوبي وحكم عليهما بالموت البطيء.

ومن جهة أخرى، لم يكن هذا الاستقلال يعني أن عصر المشاكل قد انتهى بالنسبة للرومانيين بل إن سقوط الملكية كان ايذانا ببداية عهد جديد مليء بالصراعات التي ساهمت في الإسراع باظهار روما في حلتها الجديدة : روما العاصمة عوض روما دويلة-المدينة، روما الجمهورية عوض روما الملكية.

---

[2] - من المحتمل أن تكون هذه الهزيمة سببا في تراجع بورسنا إلى كلوريوم في الوقت الذي لم يستطع فيه طاركينوس العودة إلى روما بسبب تطور الأوضاع الداخلية هناك.

[3] - جبل كافو حاليا.

4 . قيـام الجمهورية (ق . 5-3 ق .م .)

كتب تيتوس ليفوس يقول : **«كان حكم روما في البداية في يد الملوك ، ثم قام ل . بروتيوس L. Brutius باقامة الحرية ومؤسسة القنصلية»**. يجب ربط هذه الشهادة بالمواضيع الخطابية التي ازدهرت لدى مؤرخي القرن الثالث قبل الميلاد في روما والذين اتجهوا نحو تمجيد مؤسسات الجمهورية في مواجهة الأزمات التي أخذت تعصف بها. فالانتقال إلى النظام الجمهوري بمؤسساته المختلفة والتي أصبحت واضحة في القرن الثالث لم يتم بالبساطة التي يحاول رواد مدرسة الحوليات ايهامنا بها ولكنه كان نتيجة تطور طويل. فالمؤسسات الجمهورية نشأت وتطورت خلال فترة مخاض ثانية غمرتها العديد من الاضطرابات ودامت ما يناهز قرنا ونصف قرن. انها الفترة التي اصطلح المؤرخون على تسميتها بالجمهورية الشابة أو المبكرة la jeune République. أما ما يرويه المؤرخون عن تعويض النظام الملكي بنظام قنصلي ونسبته إلى بروتوس فذلك من قبيل المبالغة في تقويم الوضع غداة سقوط الملكية . ولسوف نرى أن اقامة نظام قنصلي بخصوصياته الرومانية المشهورة : الثنائية و السنوية لم تتبع اقصاء الملك مباشرة بل جاءت متأخرة.

لا شك أن السلطة كانت في بداية العهد الجمهوري بين يدي «حاكم أكبر» praetor maximus ربما كان هوراتيوس Haratius الذي تحدثنا عنه النصوص. ومن خلال تحليل اللقب الذي يحمله هذا المسؤول يمكن ابداء بعض الملاحظات :

فـ praetor تعني حاكم وmaximus اسم تفضيلي يحيل بالضرورة على وجود عدد من الحكام هو أكبرهم، أي هو الذي يحتل مركز الصدارة بينهم. وهكذا يمكن القول إنه بعد انهيار الملكية تولى الحكم في روما جملة من أفراد الطبقة الأرستقراطية السيناتورية الذين ربما كان بعضهم أو جلهم يحتل مراكز سياسية أو ادارية في عهد الملكية وأنهم كانوا يشكلون هيئة تحت رئاسة واحد منهم هو «الحاكم الأكبر». إن مؤسسة كهذه عرفتها أيضا بعض المدن الأتروسكية الأخرى التي شهدت نفس التطور[4]. ولا شك أن مهام هؤلاء الحكام ورئيسهم كانت محددة زمنيا بسنة واحدة. وكان ذلك تغييرا راديكاليا بالمقارنة مع النظام الملكي البائد. ولا شك أيضا في أن هؤلاء الحكام ظلوا يلقبون ب praetor لفترة طويلة وأن لقب قنصل الذي ميز المؤسسات الجمهورية الرومانية تم تبنيه في فترة لاحقة ربما وجب تحديدها بالتغييرات التي أقرتها قوانين 449 ق. م. وpraetor كلمة مركبة من prae-itor ومعناها الرجل الذي يمشي في مقدمة الجيش (القائد). وهذا المضمون العسكري للقب لا يجد تفسيره فقط في كون الحرب تشكل المهمة الأساسية للزعيم في المجتمعات البدائية ولكن

[4] - فقد نبذت الملكية وأوكلت أمورها إلى هيئة من الحكام يلقبون بزيلاث Zilaths ويمارسون مهامهم تحت اشراف زيلاث أكبر.

أيضا في ظروف الصراعات الداخلية و الخارجية التي كانت تهدد روما في بداية القرن الخامس قبل الميلاد والتي كانت تفرض وجود حاكم ذي سلطات عسكرية تمكنه من مواجهة الموقف. أما لقب قنصل الذي تبناه الرومان فيما بعد فرغم وجود اختلاف حول اشتقاقه ومدلوله فيمكن أن نقدم افتراضين : اما أن يكون مشتقا من a consulendo أي ذلك الذي يستشير مع الشعب ومجلس الشيوخ، أو من consodes de sedeo أي هؤلاء «الذين يعقدون الجلسات بشكل جماعي» أو بالأحرى «يحكمون جماعيا». وكلا المعنيين ينطبقان على دور ومهام القناصل.

يتضح من خلال هذا التقديم أن المؤسسات الجمهورية لم تظهر بين عشية وضحاها غداة غياب الملكية ولكنها كانت نتيجة تطور طويل يمكن رصد معالمه عبر خطين تطوريين متوازيين : أحدهما داخلي و الثاني خارجي. فقد عرفت الجمهورية الناشئة أزمة داخلية طويلة تجلت في الصراع الحاد الذي وضع البطاركة في مواجهة العوام. في نفس الوقت، كانت تعيش على وتيرة حرب مستمرة مع جيرانها اللاتينيين والإيطاليين دفع بها إلى التوسع التدريجي في إيطالية. فكان تغيير النظام في روما يسير بشكل متواز مع توسع مجالها الجغرافي.

الفصل الثاني

صراع الفئتين

1 . الوضع الاجتماعي والسياسي بروما غداة سقوط الملكية

أ. عودة البطاركة إلى السلطة

إن تحليل الوضع العام في روما بعد نفي الملك يبين حقيقة سوسيوسياسية عميقة : إن الثورة (ان كانت هناك ثورة بالفعل) التي شهدتها روما سنة 509 ق. م. كانت ثورة أرستقراطية خالصة. ففراغ العرش أعاد للبطاركة السلطة السياسية الكاملة بعد أن كان الملوك الأتروسكيون وخصوصا منهم طاركينوس قد ركزوها في أيديهم محاولين بذلك اقصاء الدور الطلائعي الذي كانت تقوم به الأرستقراطية في السابق. ولنتذكر وصف تيتوس ليفوس لموقف الرأي العام الروماني عشية نفي الملك وحاشيته والذي يؤكد فرحة البطاركة العارمة في وقت أحس فيه العوام (أغنياؤهم وفقراؤهم) بأن عهد المظالم قد عاد ليخيم بظله عليهم. لقد احتكر البطاركة السلطة بكل أنواعها السياسية والعسكرية والاجتماعية والدينية والقضائية، وأصروا على إبعاد العناصر التي لا تنتمي إلى عشائرهم. وكان ذلك يعني بالنسبة للعوام حصول تراجع خطير عن بعض المكتسبات التي حصلوا عليها في عهد ثاني وثالث ملوك الأتروسكيين[5].

بموازاة مع هذه الأزمة السياسية عرفت روما أزمة اقتصادية خانقة ستزيد من تردي أوضاع العوام. فالسيطرة الأتروسكية على روما كانت قد ساهمت في ربطها اقتصاديا بباقي المدن الأتروسكية وبالمدن الإغريقية وبالشرق (الفينيقيين). وقد أدى ذلك إلى تنشيط القطاع الصناعي والتجاري الروماني الذي ظل مصدر الرزق والربح الأساسي لفئة العوام باعتبار أن الأرستقراطية التقليدية كانت تهتم فقط بقطاع الرعي والزراعة بنسبة أقل. ولهذا السبب بالذات شكل قيام النظام الجديد كارثة اقتصادية بالنسبة للعوام. فالمعطيات الأثرية تؤكد أن حجم المبادلات أخذ يتقلص انطلاقا من بداية القرن الخامس قبل الميلاد في حين كانت روما

[5] - فقد رأينا أن سرفيوس توليوس وخليفته طاركينوس الأقدم كانا قد أقاما حدودا للسيطرة المطلقة للبطاركة على المجتمع المدني بروما ومكنا قسما من العوام من بعض الحقوق السياسية.

قد وصلت إلى حد أقصى في نشاطها التجاري خلال الفترة الممتدة بين 530 و 500 ق. م، وسيؤدي ذلك بالطبع إلى كساد في الأسواق. بالإضافة إلى ذلك عرفت فترة الملوك الأتروسكيين تغييرا في الذهنية الاقتصادية السائدة. فبفضل توجهات هؤلاء الملوك ورجال التجارة والصناعة المنتمين لطبقة العوام كان المجتمع الروماني قد تعود على التعبير عن الثروة بمقادير الربح المحقق، وعلى اعطاء أنشطة المبادلات مركزا أساسيا في ميكانزمات الانتاج. غير أنه في المجتمعات البدائية لم يكن الاقتصاد يحدد بنسبة الانتاجية. ولذلك كان البطاركة الرومان الذين ظلوا أوفياء لتقاليدهم الرعوية يستهينون بالأنشطة الصناعية والتجارية التي تركوها للطبقة الدنيا معتبرين أنها تسيء إلى كرامة الرجل الروماني الأصيل. ولذلك فاقصاء الملك لم يكن يعني فقط عودة البطاركة إلى الحكم ولكن أيضا تفوق الاقتصاد الرعوي في وقت لم يكن بمقدور الكفاءات التي يتوفر عليها العوام ولا أعدادها الضخمة تسمح لها بالعودة إلى الوضع السابق بطريقة سلمية.

ب. أزمة العوام

يمكن أن نتخيل بسهولة الوضع العام للاقتصاد الروماني : تقلص التجارة والصناعة ساهم في تنامي البطالة وفي حدوث المجاعة. فإذا كان الملوك الأتروسكيون قد قاموا بمشاريع ضخمة لاستصلاح الأراضي واصلاحها لتصبح صالحة للزراعة في ضواحي روما، فان الأرستقراطية ستعمل على الرجوع إلى التقاليد الرعوية ما دامت تعتبر الزراعة نمطا يحد من اتساع مساحات الرعي ومن حرية الحركة. وقد وضعت يدها على معظم الأراضي التي تم فتحها في اللاتيوم نتيجة التوسع التدريجي الذي عرفته روما في عهد الملوك الأتروسكيين الشيء الذي حرم العوام من حقهم في العيش. كان ذلك يعني أن سوق الحبوب سيعرف أزمة خانقة بفعل تقلص الإنتاج المحلي واضطراب الاستيراد[6]. وهكذا فتح الباب للمجاعات التي اجتاحت روما مع ما يواكبها من أوبئة .

أما من وجهة النظر القانونية فسواء منهم هؤلاء الذين كانت الأرستقراطية تستغلهم لخدمة أراضيها أو رعي ماشيتها أو الذين تمكنوا من الإحراز على ثروة ما كانوا لا يتمتعون بحقوق تجعل منهم مواطنين كاملين. فقد بقي ارتباطهم بالأرستقراطية عاملا هاما يمكن من حماية مصالحهم مادامت الأرستقراطية تحتكر معرفة القانون وصيانة العرف. وكان ذلك يعني أن مسلسل العنف قد بدأ بروما وأنه لا شيء يمنع العوام من اعلان الثورة ضد البطاركة للمطالبة بحقوقهم السياسية التي ستسمح لهم بالمشاركة في توجيه سياسة الدولة.

---

[6] – تجدر الإشارة إلى أن العادات الغذائية كانت مختلفة لدى البطاركة والعوام فباعتبارهم رعاة، يعتمد البطاركة في غذائهم على اللحم واللبن، في حين كان العوام يعتمدون على الحبوب بالخصوص. وكانت الكميات المستوردة من المدن الأتروسكية غير كافية لسد حاجياتهم بالنظر لأعدادهم الضخمة.

و إذا كان على العوام الدخول في صراع مفتوح ضد البطاركة بشكل موحد فلا بد من التمييز داخل العوام بين فئتين كانت كل واحدة منهما تسعى إلى الحصول على مجموعة من الحقوق التي تخدم مصالحها. فأثرياء العوام الذين يشكلون طبقة وسطى كانوا يتوقون خصوصا إلى فتح الطريق نحو المساهمة في الحياة السياسية عن طريق الحصول على حقوق تخول لهم ترشيح أنفسهم للقيام بمهام الدولة وعلى مقاعد في مجلس الشيوخ. وبموازاة ذلك كانوا يطالبون بادماجهم اجتماعيا في الوسط البطركي وذلك عن طريق الترخيص والاعتراف بالزواج المختلط بين البطاركة والعوام. أما فقراء العوام فكان همهم الأكبر يتمثل في تحسين وضعيتهم الاقتصادية وموقعهم الاجتماعي عن طريق حل مسألة الأرض والسماح لهم بامتلاك قطع من الأملاك العمومية التي احتكرتها الأرستقراطية، وأيضا ايجاد حل لقضية الديون التي كانت سببا في الزيادة في فقرهم وتدني وضعيتهم الاجتماعية[7]. ولكن الخصم كان واحدا بالنسبة للفئتين : إنهم البطاركة. وكان نجاحهم يتوقف على مدى قدرتهم على توحيد صفوفهم.

ج. تمرد العوام

«لقد كان من الصعب تهدئة هذا الجمهور (أي العوام) . لقد كانوا يائسين بسبب بؤسهم . فكانوا يهيجون ضد الحكام ، ويهاجمون منازل الأغنياء حتى يتمكنوا من الاستيلاء على بعض المؤن دون دفع ثمنها»[8]. هكذا وصف ديونيسيوس الهاليكارناسي التمرد العام الذي قام به العوام في روما. فلقد أصبح الوضع لا يحتمل بالنسبة لهم فكان أن اتفقوا على خوض النضال من أجل تحقيق مطالبهم السياسية والاجتماعية التي ترفضها الأرستقراطية الحاكمة. بل إن هذه الأخيرة حاولت استغلال الفقر والمجاعة اللذين يعاني منهما العوام لكي تنتزع منهم الحقوق التي حصلوا عليها في السابق. انظر إلى البطركي ماركيوس كوريولان Marcius Coriolan وهو يرد على تحدي العوام سنة 491 ق. م. : **«إذا كان العوام يريدون الحفاظ على تموين المدينة بالطريقة التي كانت عليها من قبل فليعيدوا حقوقهم القديمة (أي التي حصلوا عليها منذ مدة) إلى الشيوخ . فبإذلالهم سيجبرون على التعاطي للفلاحة عوض أن يأخذوا السلاح ليمنعوها بتمردهم. . . »**.
كان الصراع محتدما بين الفئتين حيث عزم البطاركة على الاحتفاظ بمركزهم وتقاليدهم القديمة في حين قرر العوام تصعيد المواجهة للحصول على مطالبهم التي كانوا يعتبرونها مشروعة.

---

[7] - مع اشتداد الأزمة الاجتماعية، أصبح بعض صغار الفلاحين والتجار والصناع لا يستطيعون إطعام أسرهم. فاتجهوا نحو بعض الأرستقراطيين للإقتراض. ولكن مع استمرار الأزمة أصبحوا عاجزين عن رد الدين الشيء الذي كان يعرضهم تبعا للأعراف البطركية للسقوط في العبودية.

[8] - Denys d'Halicarnasse, IX, 25, 2

ولم يقتصر تمرد العوام على القيام بعمليات النهب والسلب. بل إن فطنتهم السياسية قادتهم إلى التفكير في وسيلة يجعلون بها البطاركة يشعرون أن مصير روما لن يقرر بدونهم، وأن إشراكهم في أمور السياسة أمر لا يحتمل النقاش أو التأجيل. ولذلك سيعمد هؤلاء إلى نهج سياسة الانشقاق والعصيان المدني والعسكري secessio منذ سنة 494 ق. م. . أصبحت روما آنذاك تضم مدينتين منفصلتين : فتل البالتان كان يضم العائلات الأرستقراطية التي كان لها الحق بمفردها في العبادات المخصصة للآلهة الكبرى التي أقيمت لها معابد فوق تل الكابتول. في حين تجمع العوام فوق تل الأفونتان والإسكلان حيث كانت تعبد آلهتها سيريس (الهة الخصوبة) ومركور (أو عطارد) (اله التجارة) وهما الإلهان اللذان يترجمان توجهاتهم الاقتصادية. إن العصيان الذي أعلنه العوام كان حضريا محضا باعتبار أن البوادي لم تكن تضم أعدادا كبيرة منهم مادام أن أغلب الأراضي كانت في ملك البطاركة الرعاة. وقد كان هذا العصيان من أولى التمردات الجماهيرية التي عرفها التاريخ البشري ومن الأحداث الهامة في التاريخ الاجتماعي للبحر المتوسط التي تترجم وعيا طبقيا حقيقيا لدى أفراد العوام الذين تلاحموا من أجل الدفاع عن مطالبهم.

ولقد فهم البطاركة عمق موقف العوام وأحسوا بخطورته. وهكذا فتحوا باب المفاوضات قصد التوصل إلى صلح اجتماعي. فهذا تيتوس ليفوس يخبرنا أنهم أرسلوا واحدا منهم يُدعى مينينيوس أكريبا Menenius Agrippa إلى الأفونتان لمحاولة اقناع العوام بالعدول عن موقفهم والحفاظ على وحدة المدينة. وكان مضمون خطابه يركز على ترابط مصالح الطبقتين[9].

ما الذي كان يخيف البطاركة؟

لقد كان الانشطار الاجتماعي والسياسي لروما يوحي بقرب وقوع انفجار يمحو كل شيء بما في ذلك العشائر الرومانية نفسها. لم تكن تخوفات الأرستقراطية تهم الجانب الاقتصادي. فقد كان بإمكانهم الاكتفاء باقتصادهم الرعوي دونما حاجة إلى الخدمات التجارية والصناعية التي يؤديها العوام. ولكن كانت هناك أسباب أخرى جعلت من عصيان العوام سلاحا كان على الأرستقراطية أن تحترس منه. ويتعلق الأمر بالأخطار الخارجية الكبرى التي ظلت تحدق بروما منذ سقوط الملك. فالعديد من المدن القريبة من روما كانت لا تزال تحت السيطرة الأتروسكية (ومنها فييزا مثلا) وكانت بالتالي تشكل تهديدا مباشرا لها. وستتضح الصورة أكثر إذا ما استحضرنا تلك الإصلاحات العسكرية التي عرفتها روما في نهاية القرن السادس قبل الميلاد والتي جعلت الجيش الروماني ينبذ التقليد البطركي القديم الذي يعتمد على فرق الفرسان ويتجه -على غرار ما شهدته المدن الإغريقية- إلى اعطاء دور أكبر لفرق المشاة الثقيلة التي يساهم فيها بنصيب وافر أفراد العوام. بالإضافة إلى

9 - Histoire romaine, II, 32, 9-12

ذلك كانت الأرستقراطية تخشى أن يؤدي تطور الصراع في روما إلى تحالف بين العوام وبعض المدن الأتروسكية. لذلك كان عليها أن تأخذ الأزمة مأخذ الجد وأن تسعى إلى الوصول إلى اتفاق يعيد الأمور إلى نصابها ولو أدى بها الأمر إلى التنازل عن بعض الحقوق الجزئية.

د. «دولة» العوام

وبالإضافة إلى هذا وذاك، كان لهذا العصيان نتائج سلبية على مجتمع البطاركة على مستوى السياسة الداخلية. فما دامت الأرستقراطية تصر على حرمان العوام من الحقوق السياسية سيقوم هؤلاء بانشاء مؤسساتهم الخاصة التي ستدافع عن هويتهم ومصالحهم. وكان معنى ذلك أن دولة جديدة بديلة بدأت تنشأ في قلب الجمهورية البطركية. وكانت تلك أول محاولة جدية -وربما الوحيدة- عرفتها روما في طريق دمقرطة المؤسسات الرومانية. لقد عمد العوام إلى خلق مؤسسات خاصة بهم موازاة مع المؤسسات البطركية. فمقابل الثالوث المقدس الذي كانت عبادته حكرا على البطاركة فوق تل الكابتول، اتخذوا لأنفسهم الهة خاصة وأقاموا لها معبدا فوق تل الأفونتان الذي أصبح يمثل المركز الديني والسياسي للعوام. ومقابل مجلس الشيوخ الذي احتكر البطاركة مقاعده، أنشأوا لأنفسهم مجلسا خاصا بهم (مجامع العوام Concilia plebis) أصبح بمثابة الهيئة التشريعية والسياسية التي تنظم الحياة العامة لفئة العوام. ومقابل الحكام الذين ينتخبهم البطاركة من بينهم ويسندون لهم مهمة ادارة شؤون المدينة، انتخب العوام نقباء tribuni plebis ومراقبين (أو نظار الشؤون البلدية) Aediles[10] أوكلت لهم مهمة حماية وتسيير مصالح العوام. ولأنهم كانوا لا يملكون حق تأويل القانون والعرف أو معرفته، ولكي تصبح لهذه المؤسسات مشروعية في الوسط الروماني، ولكي يواجهوا رفض البطاركة الاعتراف بهذه المؤسسات الجديدة، فقد أحاطوا هذه الأخيرة بهالة من القدسية. فمادام أن هذه الفئة تفتقر إلى قانون يحميها من مظالم الأرستقراطية فقد وضعت نفسها ومؤسساتها تحت حماية الآلهة.

لقد كان لخلق منصب نقيب العوام دور هام في تطوير المؤسسات الرومانية باعتباره كان يرنو إلى ادخال مبدإ التوازن في سلطات الجمهورية. فمنذ البداية كانت مهمة نقيب العوام هي الدفاع عن كل فرد من أفراد العوام يكون مهددا من قبل الحكام البطاركة في احدى القضايا و الدفاع عن مصالح الطبقة بشكل عام في مواجهة القرارات التي تتخذها دولة البطاركة. ولكي يتمكن النقيب من أداء دوره دونما خوف من ردود فعل البطاركة، فقد أحيط بحصانة دينية باعتبار أن الذي يتولى المنصب يصبح محميا من قبل الآلهة. فلا

[10] - تتمثل مهمة هؤلاء في صيانة معابد العوام وحماية خزينتهم المالية المحفوظة بالأفونتان والقيام بدور الشرطة في الأسواق العامة.

يحق لأحد مهما كان أن يمسه بسوء أو يعترض طريقه. وبذلك أصبح هذا المنصب الجديد بمثابة الحصن الذي يمنع عن الدهماء تجاوزات الأرستقراطية. وقد رفض البطاركة في البداية الاعتراف بهذه المؤسسات وإلحاقها بجملة الهيئات الرسمية في الدولة. فهذا أحد ممثلي الجناح المتشدد في مجلس الشيوخ وهو يخاطب أقرانه سنة 445 ق. م. (أي بعد مرور 50 سنة على انشاء منصب النقيب) :**«من المستحيل ان يكون في نفس الدولة شيوخ ونقباء للعوام . فاما أن تمحى هذه الفئة أو يمحى ذلك المنصب . . .لنواجه جرأتهم !. . . »**[11].

ولقد تنبه العوام منذ البداية إلى كون هذه المؤسسة التي أحدثوها تحمل في حد ذاتها خطرا سياسيا : ذلك أن وضع سلطات واسعة في يد شخص واحد واضفاء طابع القدسية على مهامه قد يؤدي به إلى التفكير في الاستيلاء على السلطة وتحويل النظام إلى نظام استبدادي. ولتفادي ذلك قرر العوام انتخاب مجموعة من النقباء الذين يشكلون مجمعا يؤدي مهامه لمدة زمنية لا تتجاوز السنة. كان هذا المجمع يتكون في البداية من نقيبين يتمتع كلاهما بنفس الحقوق وتخول لهما نفس السلط ويملك كل واحد منهما حق النقض ضد قرارات زميله. وهكذا يصبح كل واحد منهما رقيبا على الآخر الشيء الذي يعني استحالة العودة إلى نظام حكم فردي بالشكل الذي عرفته روما في عهد الملوك الأتروسكيين. ثم ارتفع عدد هؤلاء تدريجيا إلى 4 سنة 471 ق. م. ليصل إلى 10 في الفترات اللاحقة.

2 . مراحل الصراع

أ. الاعتراف ومحاولة الإجهاض

لقد كان من نتائج العصيان الذي أعلنه العوام أن اعترف البطاركة مضطرين بالمؤسسات الجديدة وخصوصا بالمهام التي تم توكيل النقباء بها. اذ لم يكن بامكانهم أن يستمروا في تعنتهم الذي كان سيؤدي إلى انفجار الوضع في روما وانشطارها السياسي في وقت كان الأعداء الخارجيون يتحينون الفرص للانقضاض عليها. غير أن هذا الاعتراف اعتبر انتصارا سياسيا للعوام ما دام انه يضفي طابع المشروعية على نضالهم. إن خطورة الوضع الجديد بالنسبة للأرستقراطية كان يتمثل في ان العوام أصبحوا يتوفرون على الوسائل القانونية التي سيستعملونها في صراعهم ضد البطاركة بهدف تحقيق مكاسب أخرى. لذلك اتجهت الارستقراطية نحو استعمال الحيل لإجهاض حركة العوام مستغلين في ذلك الثغرات التي تحملها تنظيمات العوام المؤسساتية.

كان أول ما سعى اليه البطاركة هو الحد من فعالية النقباء. وكانت الطريقة التي اعتمدوها تتلخص في كسب بعضهم واحتوائهم وتأليبهم بعد ذلك ضد زملائهم. فمادامو

[11] - Tite-Live, *Histoire romaine*, IV, 2-11

يشكلون مجمعا من عدة نقباء، وما دام كل نقيب منهم يملك حق النقض الذي يمكن استعماله لشل قرارات الآخرين، فبامكان البطاركة تقريب أحدهم أو التعامل معه لشل حركة المجمع من الداخل. وهاهو أبيوس كلوديوس Appius Claudius يتحدث أمام مجلس الشيوخ عن الطريقة التي يجب اتباعها لمنع النقباء من اعاقة عملية تجنيد العوام في الجيش :**«لا توجد وسيلة تمكن من وضع حد لسلطة نقيب العوام سوى مواجهته بأشخاص لهم نفس المرتبة ويتمتعون بنفس السلط وأمرهم باقرار ما يحاول هو منعه»**. وأوصى أبيوس كلوديوس الأشخاص الذين سيصبحون قناصل في المستقبل باتباع تلك السياسة وبالعمل دوما على كسب بعض النقباء الذين يعبرون عن استعدادهم للتعاون. . . ذلك **«أن الوسيلة الوحيدة لتكسير شوكتهم هي بث التفرقة في صفوفهم»**[12]. استقبل البطاركة بالطبع قرار الرفع من عدد أعضاء المجمع بارتياح كبير، فكلما زاد العدد إلا وعسر الاتفاق. وقد نجحت الأرستقراطية نسبيا في هذا التكتيك وهناك العديد من الأمثلة التي توضح هذا النجاح.

وكان على البطاركة أن يشلوا حركة المطالب التي يستمر فيها العوام. فلجأت إلى وسيلة أخرى : أن توجه الأنظار إلى الخارج كلما اشتدت الأزمة الداخلية. لقد نقل لنا ديونيسوس الهاليكارناسي وصفا للحالة العامة في روما وللسياسة التي اتبعها البطاركة حينما كتب :**«لقد أصبح شيئا عاديا أن تعرف المدينة السلم في أوقات الحرب ، وأن تستسلم للصراعات في أوقات السلم . لقد كان القناصلة واعين بذلك . وحينما تعلن حرب خارجية يعتبرونها بمثابة نتيجة (ايجابية) لصلواتهم . وحينما يركن العدو للهدوء ، كان القناصلة أنفسهم يختلقون الأسباب لاذكاء نار الحرب»**[13]. وكانت تلك احدى الوسائل التي نجح البطاركة في استعمالها خصوصا وأنها كانت تحقق لهم مكسبين : التماطل ازاء مطالب العوام خاصة تلك التي تتعلق باعادة تقسيم الأراضي، وتوسيع الرقعة الترابية لروما.

ب. قانون اللوحات الاثنتي عشرة leges duodecim tabularum

ورغم ذلك فلا اللجوء إلى تدجين بعض النقباء ولا اللجوء إلى الحرب كان من شأنهما أن يثنيا العوام عن عزمهم واصرارهم على مواصلة التحدي. ولقد تنبه هؤلاء إلى أن الحد من سلطات البطاركة وتجاوزاتهم يجب أن يبدأ بتكسير احتكارهم لمعرفة القانون ومشاركتهم في تأويله. لذلك قام أحد النقباء (ترونتليوس هورسا Terentilius Horsa) انطلاقا من سنة 462 ق. م. بحملة للمطالبة بسن قوانين مكتوبة تحدد أنواع ومفاهيم السلط

12 - Tite-Live, Histoire romaine, II, 44, 4-5

13 - Denys d'Halicarnasse, X, 33, 2

وتحدد علنا حقوق الفرد وواجباته. ورغم أن الأرستقراطية حاولت جاهدة الصمود في وجه هذا المشروع الا أنها وجدت نفسها مجبرة على الرضوخ. فكان أن شهد منتصف القرن ثورة تشريعية كبرى في العالم الروماني أدت إلى انهاء احتكار البطاركة للقانون[14].

لقد تم تشكيل مجمع من عشرة أشخاص Decemvirat أوكلت اليه مهمة تدوين القوانين سنة 451 ق. م. في ظرف سنة واحدة. فوضع هؤلاء 10 لوحات برونزية كتبوا عليها جملة من القوانين. ثم عين مجلس آخر سنة 450 ق. م. عمل على اتمام عمل المجمع الأول بوضع لوحتين. فاشتهر ذلك القانون باسم اللوحات الاثنتي عشرة التي عرضت على مجلس الشعب (مجلس السنتورات) قصد التصويت ثم علقت في السوق الروماني حتى يتسنى لكل واحد الاطلاع عليها ومعرفة حقوقه وواجباته، فكان بذلك أول قانون مكتوب أخضع للتصويت في تاريخ روما. ولقد شكل ذلك حدثا هاما في حياة روما إلى درجة أن بعض المؤرخين القدامى يعتبرون أن هذه القوانين حولت روما إلى ديموقراطية[15]. لكن، وأيا كان التغيير الذي حصل في روما بعد نشر هذه القوانين، يجب التحفظ من هذا الحكم. فلا مجال للمقارنة بين الاصلاح التشريعي الروماني واصلاحات صولون أو كليستين الأثينية.

لقد ضاعت اللوحات الاثنتا عشرة. غير أن المصادر احتفظت لنا بشذرات منها وبقطع من المضامين القانونية التي تضمنتها هذه التشريعات[16]. ومن خلال هذه القطع حاول بعض المؤرخين اعادة تركيبها. ويبدو أنها ركزت بالخصوص على القانون الخاص : قانون الملكية، تحديد الجرائم (السرقة، الاعتداء على المحاصيل، شهادة الزور. . .)، تحديد سلط الأب على أفراد أسرته. . . ثم انها تطرقت للجانب القضائي وبينت الطريقة التي يجب اتباعها لرفع القضايا والوقوف أمام المحاكم (مثلا أقرت أن حكم الاعدام لا يمكن أن يصدر الا عن مجلس الشعب) كما حددت مفهوم المواطنة. ولكنها أبقت على التفرقة بين الأغنياء assidui والفقراء proletarii ومنع الاختلاط بينهم عن طريق الزواج.

من الواضح أن هذا القانون لم يكن جديدا من حيث مضمونه اذ انه اكتفى بتدوين الأعراف السائدة. وقد ظلت نصوص هذا القانون تخدم مصالح الأرستقراطية بل وتحافظ

14- لقد رأينا أن أحد مصادر قوة البطاركة وسلطتهم على العوام هو احتكارهم لمعرفة الأعراف وتأويلها. وقد كان ذلك من الأسباب التي ساعدت على ازدهار نظام التبعية باعتبار أن اللجوء إلى المحاكم كان حكرا على البطاركة ومن يعيش في كنفهم.

15- بالنسبة لتيتوس ليفوس كان الهدف من هذا القانون «جعل الجميع كبارا وصغارا متساوين في الحريات وأمام القانون» والعمل على وضع مبادئ تهدف إلى «ضمان الحرية والمساواة» للبطاركة والعوام على السواء.

16- أنظر الملحق نص رقم 7

على الطابع القديم للقانون الروماني. فقد زكى سلط الأب pater familias potestas الذي ظل بامكانه أن يبيع أبناءه كعبيد، وقنن استعباد الأحرار الذين لا يستطيعون اعادة الأموال المستدانة nexum. أما التفريق الصارم بين البطاركة و العوام فقد تم تدعيمه وتأكيده بمنع التزاوج بين أفراد الفئتين. ومع ذلك فان اصدار قانون مكتوب ومنشور كان يمثل في حد ذاته اصلاحا سياسيا هاما. فانطلاقا من حينه أصبح المواطن العادي غير مجبر على اللجوء إلى قضاء عرفي ذي قواعد سرية لطلب الحماية من تجاوزات الأقوياء، بل باستطاعته أن يعرف القواعد القانونية بما فيها الجرائم والحدود. ومعنى ذلك أن نضال العوام قد أدى إلى اقرار المساواة القضائية.

ج. حق الزواج المختلط

مباشرة بعد اعلان هذا القانون قام أحد النقباء (كانوليوس Caneleius) باعداد مشروع قانون يهدف إلى نبذ تحريم الزواج بين الفئتين. ولقد واجه البطاركة كعادتهم هذا المطلب بعنف كما تبين ذلك بعض النصوص التي نقلها بعض المؤرخين والتي تبين مدى دفاعهم المستميت في الحفاظ على صفاء عرقهم وازدرائهم الشديد للعوام :

«لقد اعتبر البطاركة أن مشروع القانون هذا يدنس سمعتهم ويقلب وضع اسرهم (. . .) . إلى أي شيء تهدف هذه الزيجات المختلطة؟ إلى تعميم بعض أنواع الزيجات بين النبلاء و العوام كما لدى الحيوانات بشكل يصبح معه المولود جاهلا للعرق الذي ينتمي اليه : فنصفه نبيل ونصفه الثاني عامي بحيث أنه لن يتفق حتى مع نفسه (على الطبقة التي ينتمي اليها)»[17].

وقد كان للعوام حججهم التي يدافعون بها عن مطلبهم الهادف إلى الحصول على المساواة الاجتماعية. فهذا النقيب كانوليوس يجيب على ادعاءات الأرستقراطية في احدى خطبه :

«أليس من أكبر وأفضح الاهانات أن يعتبر قسم من المواطنين وكأنه أعوه لا يجب التزاوج معه؟ . . . . محرم علينا أن ندخل في حلفكم وقرابتكم ، أو أن تختلط دماؤنا بدمائكم . فإذا كنا بالفعل ندنس شرف نبلكم الحقير . . . لماذا لا تحاولون الحفاظ عليه باتخاذ اجراءات (في حياتكم الخاصة) . لا تتزوجوا العاميات . . . ولا تزوجوا بناتكم وأخواتكم الا للبطاركة . . ما من عامي تزوج فتاة بطركية بالقوة . انها نزوات بطركية! . . . فما من أحد أجبركم على عقد زواج بالرغم عن

Tite-Live, Histoire romaine, IV, 1, 2; 2, 6 - [17]

أنفكم[18] . . . أما أن تصدروا قانونا لتحريم والغاء الزواج بين البطاركة والعوام فهذه في نهاية المطاف اهانة للعوام . لماذا لا توسعوا هذا المنع ليشمل الزواج بين الأغنياء والفقراء؟ . . . ولماذا لا تمنعوا العامي من أن يكون جارا للبطركي أو تحرموا عليه أن يسلك نفس الطريق الذي يسلكه هذا الأخير أو أن يحضر نفس المأدبة أو أن يكون معه في نفس السوق؟ . . . إن هدفنا من هذه الزيجات بيننا وبينكم هو أن نحس بأننا رجال ، بأننا مواطنون . أما أنتم فلا حق لكم في الاعتراض عليها اللهم اذا كنتم تسعون إلى اهانتنا وتدنيس كرامتنا .. . »[19].

وهكذا فقد كان الصراع على أشده بين الطرفين وهو صراع يبين عن مدى كراهية الأرستقراطية لهذه الفئة الصاعدة التي كانت تطالب بحقها في حياة كريمة مبنية على المساواة الاجتماعية. ولقد انتهت هذه المحنة بتنازل البطاركة وتخليهم عن المعارضة سنة 445 ق. م. تحت ضغط الظروف الخارجية[20]، حيث صدر قانون يسمح بالزيجات المختلطة.

إلى هذا الحد كان العوام قد حصلوا على جزء هام من الحقوق الاجتماعية وخصوصا على المساواة بينهم وبين البطاركة في المجتمع المدني. وكانت تلك إحدى حلقات مسلسل الصراع الذي سيظل مفتوحا لبضع عقود. ولا شك أن المرحلة التالية ستكون أقوى وأعنف من الأولى باعتبار أن العوام سيطالبون بالحقوق السياسية. أي أنهم أخذوا يسعون لاقتسام السلطة السياسية التي ظلت منذ نهاية العهد الملكي حكرا على البطاركة. فلكي يتمكن العوام من المساهمة في تسيير شؤون روما كان عليهم أن يندمجوا في الطبقة السائدة -وهو اندماج كان سيتم ولا شك على المدى المتوسط كنتيجة لإلغاء منع الزيجات المختلطة- وذلك عن طريق المشاركة في المجالس خاصة منها مجلس الشيوخ والتمكن من الترشح لمناصب الدولة، بالاضافة إلى المساهمة في تسيير الأمور الكهنوتية.

د. النضال من أجل الحقوق السياسية

«أيها المواطنون ، أعتقد انني كثيرا ما لاحظت احتقار البطاركة لكم واشمئزازهم من أن يروكم تعيشون معهم في نفس المدينة وداخل نفس الأسوار ، ولكن ليس بدرجة الوضوح الذي هو عليه اليوم . . .هكذا اذن ، أإذا منح الشعب الروماني حرية التصويت وحق انتخاب الشخص الذي يريده لمنصب القنصلية سيصبح وجود المدينة مهددا ؟[21] . . . أخطير أن يسأل عن امكانية تولي أحد العوام مهام القنصلية بنفس

---

[18] – أساس هذا الخطاب هو أن بعض البطاركة كانوا قد اختلطوا منذ فترة مع العوام -خاصة الأغنياء منهم- عن طريق الزواج.

[19] - Tite-Live, Histoire romaine, IV, 4, 5-12

[20] – أنظر ادناه ص.

[21] – هذه وجهة نظر البطاركة بالطبع.

الدرجة حينما نقول إن عبدا ما أو معتقا يمكن أن يصبح قنصلا؟ أتشعرون بالاحتقار الذي تعيشون فيه؟ إنهم يودون لو يحرمونكم من النهار الذي تستضيئون به! . . . أن تتنفسوا ، أن تكون لكم موهبة الخطابة ، أن تكون لكم صفات بشرية : كل ذلك يثيرهم! بل الأدهى من ذلك (ادعاؤهم) أن تعيين أحد العوام قنصلا شيء يمس بالمقدسات الدينية . لتغفر لي الآلهة . . . بالفعل ، سيقال إنه منذ أن نفي الملك لم يتول عامي منصب القنصلية . وماذا بعد؟ أكل تجديد حرام؟ . . .فهل يجب التخلي عن فعل ذلك مهما كان صالحا؟ . . . وبعد كل هذا ، هل السيادة للشعب الروماني أم هي ملك لكم وحدكم؟ هل كانت نتيجة اقصاء الملك أن تصبح السلطة المطلقة لكم وحدكم أم أن تصبح الحرية والمساواة للجميع؟ . . . تبدون وكأنكم لم تجربوا قيمة تهديداتكم في مواجهة ارادة العوام الجماعية مرتين متتاليتين![22] . . .»[23].

هكذا كان النقيب كانليوس Caneleius يرد على ادعاءات وتهديدات البطاركة ويحذرهم من مغبة تماطلهم في اعلان مبادئ المساواة السياسية. ولكن، اذا كان البطاركة قد اضطروا للتنازل عن مواقفهم المتصلبة ازاء المطالب الاجتماعية للعوام فانهم هذه المرة، وأمام خطورة المطالب العامية على مصالحهم، سيقفون موقف التحدي والمواجهة. ولا أدل على ذلك من أن اقتسام منصب القنصلية بينهم وبين العوام لم يتحقق رسميا الا بعد مرور قرن عن بداية حركة العوام.

بموازاة هذه المطالب المتعلقة بالمناصب التنفيذية أصر العوام على حقوقهم المشروعة في المشاركة في المجالس. فمجلس الكوريات الخاص بالبطاركة وأتباعهم كان مغلقا في وجه العوام. أما مجلس السنتورات الذي ظل يحافظ على تنظيمه البدائي فلم يكن يضمن لهم سوى مشاركة جزئية وجد محدودة باعتبار أن أغنياءهم فقط هم الذين تم ادماجهم فيه. في حين كانت مجامع العوام تفتقر إلى اعتراف رسمي يجعل منها واحدا من مجالس الدولة، أي أنه كان في حاجة إلى الشرعية القانونية. ولذلك كان برنامج العوام السياسي يتطلع إلى المطالبة بالمشاركة في مجلس الكوريات، وجعل مشاركتهم في مجلس السنتورات أكثر فعالية، والحصول على اعتراف رسمي لمجامعهم. وفضلا عن ذلك كانوا يطالبون بحقهم في المشاركة في مجلس الشيوخ الذي يعتبر أعلى هيئة سياسية في روما والذي ظل يمثل الحصن الحصين للبطاركة.

ولقد انتهى الأمر بالبطاركة إلى قبول مشاركة العوام في مجلس الكوريات انطلاقا من نهاية القرن الرابع قبل الميلاد. أما دورهم في مجلس السنتورات فقد أخذ يتزايد موازاة مع

22 – يقصد بذلك التمردين اللذين قام بهما العوام سنة 494 و 449 ق. م.

23 – Tite-Live, Histoire romaine, IV, 3-4-5.

تزايد الأعباء التي أخذوا يقومون بها في اطار التنظيم الستوري. ولكن الصراع تركز أساسا حول الاعتراف بمجلس العوام والترشيح لمناصب الدولة خاصة منها منصب القنصلية.

فبعد فترة وجيزة من صدور قانون اللوحات الاثنتي عشرة قام القنصلان فاليريوس L. Valerius و هوراتيوس M. Horatius باستصدار قانون جديد عرف باسمهما lex Valeria Horatia حول دستور الجمهورية إلى دستور بطركي-عامي : وقد نص هذا القانون على ثلاثة تعديلات أساسية تجاوبت في مضمونها مع بعض مطالب العوام :

- إن حرمة نقباء العوام لا يمكن انتهاكها
- إن قرارات مجامع العوام plebiscites لها قيمة قانونية.
- عدم خلق أي منصب جديد دون استشارة الشعب الروماني.

ويمكن القول انه انطلاقا من هذه اللحظة تم ادخال تجديدين أساسيين : ادخال مفهوم الازدواجية في المناصب (أي أن أحد الحكام يجب أن يكون بطركيا والثاني عاميا) ثم الاعتراف الرسمي بحق الفيتو intercessio لنقباء العوام. ذلك أن هؤلاء اذا أجمعوا على موقف ما فبإمكانهم معارضة أي قرار يتخذه القناصل اذا اعتبروا أنه ضد المصلحة العامة. ويسري هذا الحق كما سنرى فيما بعد على كل الحكام باستثناء الديكتاتور الذي تكون سلطته مطلقة ولكن محدودة زمنيا. أما فيما يخص قرارات مجامع العوام فقد أصبحت تتمتع بقيمة القوانين التي تسري على كل أفراد الشعب الروماني عوض أن تبقى خاصة بالعوام كما كان عليه الحال في السابق. غير أنها ظلت في مرحلة أولى مشروطة بمصادقة مجلس الشيوخ عليها بمقتضى الوصاية الأبوية patrum auctoritas التي يتمتع بها. أما القنصلية التي تعتبر أعلى منصب في الدولة فقد ظلت حكرا على البطاركة الذين لجأوا إلى استعمال الحيل والأساليب للحفاظ عليها. ومع ازدياد الضغط العامي الذي تزامن مع خطورة الموقف العسكري في الخارج فضل البطاركة تجميد المنصب مؤقتا وخلق منصب جديد لتعويضه. فبدل القنصلين اللذين كانا ينتخبان سنويا، تم تعيين حكام عسكريين خولت لهم بعض السلطات القنصلية tribunatus militaris consulari potestate. وكان عددهم في البداية 3 حكام الا انه ارتفع إلى 4 ثم 6 يتم اختيارهم مبدئيا من بين أفراد الفئتين رغم أن المنصب ظل في البداية محصورا في البطاركة. لقد كان إحداث هذه الوظيفة مجرد حيلة حاول من خلالها البطاركة در الرماد في عيون العوام بإيهامهم أنهم استجابوا لمطلبهم. ولا شك أنهم استغلوا ظروف الحرب التي كانت تعيشها روما لتبرر تعويض القنصلية بهذا المنصب الجديد ذي الطابع العسكري والذي لا يقصي فئة العوام نظرا لدور أفرادها المتزايد في الجيش الروماني. غير أن هذه الوظيفة وان أوكلت لأصحابها بعض المهام القنصلية الا أنها أفرغت في حقيقة الأمر من محتواها الحقيقي. ذلك أن السلطة المالية وجزءا من السلطة

الإدارية كتلك التي تهم الإحصاء والأشغال العمومية تم تفويتهما إلى حكام جدد هم الكنصورات consores الذين يتم اختيارهم من البطاركة. ثم ان الوظيفة الجديدة لم تكن تخول للذين مارسوها التمتع ببعض الامتيازات التي كانت للقناصل عندما ينهون مهامهم[24]. فخلق هذا المنصب يعتبر قرارا مؤقتا. ولا شك أنه كان يستجيب لدوافع داخلية (التصدي لحملة العوام) أكثر منه لضغوطات خارجية. وكان العوام بدورهم واعين بأهداف واستراتيجية البطاركة ولذلك استمروا في نضالهم.

في سنة 390 ق. م. تعرضت روما لمحنة كبرى اثر الغزوة التي قام بها الغاليون الذين نهبوها وأحرقوها ثم عادوا أدراجهم بعد أن تلقوا من الرومانيين فدية كبيرة. وكانت الفترة التي تلت هذا الحدث فترة جد مضطربة على مستوى الأوضاع الداخلية. فلقد قام نقيبا العوام ليكنيوس Licinius وسيكستيوس Sextius اللذان تمكنا من الحفاظ على منصبهما لمدة عشر سنوات متتالية (وهي حالة استثنائية) بتنظيم معارضة منهجية وذلك باستعمالهما حق الفيتو لشل أعمال وقرارات القناصل وبمقاطعتهما للانتخابات. وكانوا يسعون من خلال ذلك إلى فرض العودة للعمل بنظام القنصلية والحصول على حق الترشيح لهذه الوظيفة. وكانوا واعين بأن أفضل وسيلة لإرغام البطاركة على الرضوخ لهذا المطلب هي استعمال السلط التي يخولها لهم الشعب والتي سبق للبطاركة أن اعترفوا بها لشل أجهزة الدولة. وبعد عشر سنوات من الاضطراب نجحت الخطة ، وتم تبني مشروع القانون الذي دعي بقانون ليكينيان وذلك سنة 367 ق. م. وقد نص هذا القانون على العودة إلى العمل بنظام القنصلية وعلى ضرورة انتماء أحد القنصلين السنويين إلى فئة العوام. ولقد حاول البطاركة بالطبع أن يغطوا هزيمتهم السياسية بتفكيك الوظيفة القنصلية وإفراغها جزئيا من مضمونها الأصلي وذلك بالاعلان عن انشاء وظيفتين جديدتين (القضاء ومراقبة الشؤون البلدية) فوتوا لهما قسما من مهام وسلطات القناصل، وحاولوا في نفس الوقت الاحتفاظ بهما للبطاركة. غير أن العوام سرعان ما حصلوا على حقهم في ممارسة جميع الوظائف الرسمية في الدولة شأنهم في ذلك شأن البطاركة.

أما الحق في عضوية مجلس الشيوخ فقد حصل عليه العوام منذ أن بدأوا يتولون مناصب الدولة باعتبار أن كل الحكام يصبحون أعضاء في المجلس بعد انهاء مهامهم. وهكذا انتهت فترة الصراع هذه التي دامت قرنا ونصف قرن تقريبا بإحداث تغييرات عميقة في المؤسسات الرومانية وكذا في شريحة المجتمع الروماني. ولا شك أن الآثار التي خلفها هذا الصراع ستؤثر على المسيرة الرومانية مدة طويلة.

[24] - كاللقب القنصلي والمكان الشرفي في مجلس الشيوخ والحق في صور تمجد الأجداد. . .

3 . النتـائج

ان الفترة التي تلت هذه الأحداث (أي من اعلان قانون ليكينيان 367 ق. م. إلى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد) تعتبر من أهم الفترات في تاريخ ارساء قواعد الدستور الجمهوري في روما. فبغض النظر عن الأحداث الخارجية (التي سنتعرض لها فيما بعد) يمكن أن نشير إلى ثلاث وقائع أساسية :

1. ضعف قوة البطاركة : لا نقصد بذلك فقط انهيارهم السياسي، ولكن أيضا تراجعهم العددي. وأسباب ذلك تعود إلى تفكك بعض العشائر التي لم يعد باستطاعتها تحمل الوضع الاقتصادي الجديد الذي عرفته روما. كما أن بعضها الآخر قد امحى بشكل نهائي بسبب انقراض النسل أو بسبب الدخول في حماية عشيرة أقوى. . . فعوض 73 عشيرة كانت تكون شعب روما في فترة نشأتها الأولى أصبحنا نعد 24 عشيرة فقط سنة 367 ق. م. وسيستمر هذا الانهيار طوال القرنين اللاحقين حتى أنه في الفترة الأخيرة من العهد الجمهوري لم تعد روما تضم سوى 30 أسرة تنتمي إلى 13 عشيرة بطركية. وحتى هذه الأسر كانت تنزع منذ مدة إلى استقلال أكبر في تدبير شؤونها. وبالطبع، كان معنى اندثار هذه الخلية المكونة لفئة البطاركة تراجع دورهم السياسي والاجتماعي أمام باقي عناصر المجتمع الأخرى.

ويبدو هذا التراجع العددي بجلاء في تركيبة مجلس الشيوخ الذي ظل يمثل، لفترة طويلة، حصنهم الحصين. ففي 400 ق. م. كان البطاركة يحتكرون وحدهم مجمل مقاعد المجلس. وخلال القرن الرابع كانوا لايزالون يستولون على حصة الأسد فيه رغم دخول بعض أفراد العوام (130 شيخا بطركيا مقابل 65 شيخا من العوام). وفي سنة 216 ق. م. كان البطاركة قد فقدوا الأغلبية (73 شيخا بطركيا ضد 75 شيخا عاميا). أما في سنة 179 ق. م. فلم يعد البطاركة يملكون سوى 88 مقعدا في المجلس مقابل 216 مقعدا للعوام.

أما على المستوى الأخلاقي، فقد أدت عقود الصراع بين البطاركة والعوام إلى خلق صورة مشبوهة للبطركي. فقد أصبح هذا الأخير رمزا لعهد قد ولى، أي أنه أصبح مرادفا للرجعية بلغة عصرنا.

2. مقابل هذا التراجع البطركي حقق العوام تزايدا مهولا بفضل ارتفاع أعدادهم الناتج عن ارتفاع نسبة الخصوبة لديهم، وخصوصا نتيجة تزايد عدد المهاجرين الذين استقروا بروما أو عن النتائج البشرية للفتح الروماني في إيطالية، ثم بفضل تزايد ثرواتهم نتيجة الانطلاقة الاقتصادية التي عرفتها روما.

3. غير أن أهم نتيجة تمخضت عن هذا الصراع تمثلت في تكوين طبقة اجتماعية جديدة هي التي ستعوض الارستقراطية التقليدية المنهارة. لقد تكونت الأرستقراطية الجديدة

من أثرياء البطاركة والعوام على السواء وستصبح الطبقة السائدة. انها نتيجة ما يمكن أن نسميه بالدستور البطركي- العامي الجديد الذي أقرته روما. فقد رأينا من قبل أن قوانين 450 ق. م. لم تؤد في نهاية المطاف إلى اقامة نظام ديموقراطي على غرار ما وقع في أثينا في القرن الرابع قبل الميلاد. ذلك أنها أفرزت طبقة جديدة هي التي اصطلح الرومان على تسميتها ب Nobilitas أي النبلاء.

بالإضافة إلى البطاركة تكونت هذه الطبقة من أغنياء العوام الذين فضلوا اقتسام بعض الامتيازات مع البطاركة على حساب مشروع المجتمع الديموقراطي الذي كان يناضل من أجله العوام. غير أن هناك عنصرا آخر ساهم مساهمة فعالة في ما يمكن أن نسميه تجاوزا «البورجوازية الناشئة». ذلك أن نهاية الأزمة الاقتصادية وارتفاع نسبة النمو الاقتصادي خلال القرن الثالث قبل الميلاد خلفت ظروفا مواتية لظهور فئات اجتماعية جديدة من رجال أعمال وتجار ووكلاء بحريين. . . حققوا ثروات مالية هائلة أصبحت تنافس بل تتعدى في بعض الأحيان الثروات البطركية القائمة على الملكية العقارية والرعي. وطبعا، فان طموح هذه الفئات لم يقتصر على الجانب الاقتصادي بل تعداه إلى الجانب السياسي : انهم يسعون إلى المشاركة في توجيه سياسة الدولة. وهكذا، فرضت المصالح المشتركة بين الفئتين اتحادهما في طبقة موحدة. كان ذلك التحالف بالطبع موجها بالأساس ضد طبقة العوام الفقيرة التي قد تعيق مطالبها الداعية إلى دمقرطة المجتمع ومؤسسات الدولة نمو مصالح البطاركة وأثرياء العوام، أي النبلاء الجدد. وهكذا ستعرف روما تقسيما طبقيا جديدا قائما على الثروة عوض النسب، وستصبح معه مفاهيم الديموقراطية ومبادئ المساواة التي نادى بها العوام منذ ما يزيد على قرن من الزمن مجرد سراب.

إن الانتماء إلى طبقة النبلاء يعني الحصول على مركز اجتماعي متميز. ولبلوغ هذا المنصب يجب توفر جملة من الشروط، منها مثلا أن يولد الشخص في عائلات بارزة، يتوفر لها عدد من الأتباع، ويكون أحد أفرادها على الأقل قد تمكن من تولي منصب من مناصب الدولة الرسمية. واذا ظل التمييز بين النبلاء والعوام قائما طوال العهد الجمهوري، فان مفهوم هذا الاسم قد تغير. فلم يعد يعني كما كان الحال عليه في السابق فئة اجتماعية واسعة يوحد بينها وضعها كفئة مقصاة من المجتمع المدني باعتبار أنها لا تنتمي إلى المجتمع العشائري، بل إنه أصبح يطلق على طبقة الفقراء في روما الذين تم اقصاؤهم من الحياة السياسية بعد تحالف الارستقراطية التقليدية وأغنياء العوام (أو البورجوازية الناشئة).

وسيطغى النبلاء على الساحة السياسية خلال القرون اللاحقة. فهم الذين سيتولون المهام السياسية و الدينية، وهم الذين سيحتكرون التجارة والأملاك العقارية، وهم الذين سيصبحون العقل المدبر لأمور الفتح الروماني في إيطالية وفي البحر الأبيض المتوسط. وباختصار هم الذين سيحكمون ويوجهون الجمهورية الرومانية.

الفصل الثالث

الصراع من أجل التوسع

1 . تكوين إيطالية الرومانية .

لقد سبق أن نبهنا إلى أنه بالرغم من كون البطاركة قد حاولوا جاهدين مواجهة العوام منذ بداية القرن الخامس قبل الميلاد والتصدي لمطالبهم ودورهم المتزايد على المستوى السياسي في روما، الا أنهم كانوا مرغمين كل مرة على تقديم تنازلات فرضتها عليهم التطورات التي كانت تشهدها الساحة الخارجية. فالقرنان الخامس والرابع قبل الميلاد يمثلان في ملف السياسة الخارجية لروما فترة أزمات متواصلة وصراعات عسكرية متعددة الجبهات خرجت منها هذه الأخيرة منتصرة الشيء الذي خول لها أن تقوم بدور الريادة في إيطالية.

أ. روما والشعوب المجاورة

بعد انهيار الملكية في روما وجدت هذه الأخيرة نفسها محاطة بمجموعة من الشعوب المعادية لها. فالأتروسكيون والشعوب الجبلية التي تعيش شرق اللاتيوم كانت تهدد اللاتينيين بشكل عام. وفي الوقت نفسه كانت روما قد دخلت في مواجهة مع جيرانها اللاتينيين منذ الفترة الملكية. وقد رأينا في الفصل السابق أن أسباب هذا النزاع كانت تتمحور حول العصبة اللاتينية التي كانت روما قد نقلت مقرها إلى داخل أسوارها. وقد حاولت بعض المدن اللاتينية أن تنشئ عصبة أخرى منشقة الشيء الذي سيؤدي إلى نشوب حرب لاتينية بين روما ومدن العصبة الجديدة سنة 496 ق. م. ، انتهت بانتصار روما في موقعة بحيرة ريجيلا Régille التي وقعت على اثرها مع اللاتينيين معاهدة تنص على اقامة تحالف بين الطرفين على قدم المساواة. وقد كان هذا التحالف بين المدن اللاتينية مصيريا على اعتبار أنها كانت معرضة لتهديدات القبائل الجبلية المتاخمة لسهل اللاتيوم والتي كانت تشن هجوماتها بشكل متواصل. بالاضافة إلى ذلك كانت هذه المدن لاتزال معرضة للخطر الأتروسكي في الشمال. لذلك كان من شأن ذلك الحلف العسكري أن يرفع من مستوى المواجهة اللاتينية تحت قيادة زعيمتها روما. وفي سنة 486 ق. م. بعد أن انهزم الهرنيكيون أمام روما تمكنوا من الحصول على معاهدة سلم وتحالف شبيهة بتلك التي وقعتها روما مع المدن اللاتينية، فزاد ذلك من قوة روما التي استطاعت خلال القرن الخامس قبل الميلاد أن تهزم الفولسك

(406 ق. م.) وبعض المدن الأتروسكية الواقعة في جنوب اتروريا، ثم شعوب الإيك التي أخضعتها بين سنتي 397 و392 ق. م.

أما الصابينيون وخصوصا منهم المستقرون في السهول، فقد خاضت ضدهم روما مجموعة من الحروب يبدو ان آخرها كانت سنة 449 ق. م. انتهت بعقد اتفاق سلم. ورغم ذلك، فقد كان على روما أن تنتظر ما يزيد على قرن ونصف قبل أن تتمكن من اخضاع الأراضي الصابينية بشكل نهائي. ولكن أخطر الحروب التي خاضتها روما كانت تلك التي واجهت فيها مدن الجنوب الأتروسكي وخصوصا مدينة فييزا Veies الواقعة في شمال التبر. وقد استمر الحصار الروماني لهذه المدينة مدة عشر سنوات (من 405 إلى 395 ق. م.) انتهى بدخول المدينة و تدميرها والحاق أراضيها بروما. وكان هذا الانتصار الروماني مؤشرا يدل على ضعف الاتروسكيين الذين كانوا يعانون، فضلا عن أزمتهم الاقتصادية الخانقة، من ضربات الغاليين (الكلتيين) في الشمال. ولقد استغلت روما ذلك الوضع لتنتقل بسياسيتها العسكرية من موقف الدفاع إلى موقف الهجوم. فقامت بمهاجمة مدينتي طاركيني، وفولزيني التي كانت مقر العصبة الأتروسكية. فدفع ذلك بالجيش الروماني إلى التغلغل أكثر فأكثر نحو الشمال. لكن سرعان ما ستجد روما نفسها مجبرة على توقيع اتفاقية سلام مع المدينتين، اذ كان عليها أن تواجه خطرا يهدد أمنها وسلامتها بل وحتى وجودها والذي لم تكن قد وضعته في الحسبان : الغزو الغالي.

ب. الغزو الغالي

تمكن الكلتيون القادمون من أوروبا الوسطى من الاستيلاء على بلاد الغال منذ القرن السابع قبل الميلاد. وقد أشار هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد إلى وجودهم في أوروبا الغربية حيث كانوا يمثلون أحد أكبر شعوبها. وقد تمكنت احدى القبائل الكلتية من اختراق جبال الألب حيث استقرت بسهل البو بعد أن استطاعت أن تنتصر على الشعوب المحلية، فأصبحت المنطقة تعرف ببلاد الغال ماقبل الألبية la Gaule cisalpine بالمقارنة مع بلاد الغال ما بعد الألبية la Gaule transalpine . وقد كان هذا الاستقرار يعني أن طريق شبه الجزيرة الإيطالية قد أصبح مفتوحا في وجه المحاربين الكلتيين. فسرعان ما تحركت جموعهم في اتجاه الجنوب حيث اخترقت جبال الأبنين الطوسكانية سنة 391 ق. م. وهاجمت مدينة كيوزي (Chiusi) أو كلوزيوم (Clusium) الأتروسكيتين.

منذ أن تمكنت روما من الانتصار في حربها ضد فييزا، كانت كلوزيوم قد دخلت في محيط التأثير الروماني. وتحكي الرواية اللاتينية أنه في الوقت الذي هاجم فيه الكلتيون المدينة كان بها بعض الدبلوماسيين الرومانيين الذين لم يقفوا موقف الحياد بل سارعوا إلى أخذ مواقعهم في صفوف الجيش الأتروسكي الذي حاول صد الهجوم. وقد كان ذلك

كافيا، حسب الرواية، لتوجيه أنظار الغزاة نحو روما التي فوجئت بهول الاكتساح حيث لم تستطع أن تستعد للمواجهة. ووقعت المعركة على ضفاف نهر أليا Allia (أحد روافد التبر) تكبدت خلالها الجيوش الرومانية هزيمة نكراء وفرت فلولها إلى مدينة فييزا. وعندما انتشر خبر الهزيمة في روما اضطربت أحوال ساكنتها وهاجرها جزء كبير منها، ودخلها الغاليون ودمروا أسوارها ومبانيها، وسلبوا ونهبوا، ثم أحرقوا. . . وتخبرنا الرواية أن كل الوثائق التاريخية التي تخص المدينة اندثرت خلال هذه الغزوة. ولم يصمد أمام الزحف الغالي سوى الكابتول، المركز الديني لروما، حيث استمات مانليوس Manlius في الدفاع عنه. واستقر المهاجمون في السوق الروماني مدة لا نعرف مقدارها بالضبط. وقع ذلك سنة 390 ق. م. حسب الروايات اللاتينية أو سنة 387-386 ق. م. حسب الجداول الزمنية الاغريقية. في حين أن بعض الباحثين المحدثين يؤكدون أن هذا الغزو تم سنة 381 ق. م.

المهم من ذلك كله هو أن هذه الغزوة شكلت كارثة كبرى في التاريخ الروماني رغم أن الكلتيين لم يحاولوا الاستيلاء على روما أو الاستقرار فيها بشكل نهائي. فقد كان هم هؤلاء المهاجمين مقتصرا على الغنائم وليس الفتح أو الاستيطان. فبعد أن استنفذوا ذخائرهم، وبعد أن استهلكوا كل المؤن التي حصلوا عليها في روما، بدأ شبح المجاعة يخيم عليهم وبدأت الأوبئة تنتشر في صفوفهم، ثم انهم تسامعوا بخبر مهاجمة شعوب الفينيت لأراضيهم بالشمال فقرروا الرجوع من حيث أتوا بعد أن فرضوا جزية كبيرة على الرومان الذين ركنوا إلى التفاوض من أجل تحرير مدينتهم.

وانتهت المحنة بعودة السكان إلى مدينتهم، ولكن كان عليهم أن يدفعوا ثمن هذه الغزوة التي زادت من حدة الأزمة الداخلية وزعزعت مكانة روما ومكتسباتها الترابية السابقة. وان كانت في الواقع قد قدمت خدمة لها باعتبار أن الغزو الكلتي لاتروريا كان قد خلص روما نهائيا من الخطر الأتروسكي الرابض في الشمال.

وكيفما كان الحال فقد تعرضت روما في الفترة التي تلت تراجع الكلت لهزات خارجية عنيفة. ذلك أن ردود الفعل العدائية شملت العديد من الشعوب والمناطق التي كانت قد أخضعتها من قبل. فقد ثارت مدن الجنوب الأتروسكي بما فيها تلك التي سبقت أن وقعت حلفا مع روما كطاركيني وكايري. وتمرد الفولسك بدعم من بعض المدن اللاتينية في الجنوب، ثم الهرنيكيون في الشرق. بل وظهرت في اللاتيوم نفسه حركة انشقاق قامت به بعض المدن التي أسست عصبة جديدة[25] . وبالاضافة إلى ذلك عمت الاضطرابات روما نفسها بفعل تمرد العوام الذين كانوا يطالبون بحقهم في الترشيح لمنصب القنصلية. فكان على الأرستقراطية أن تلجأ لاتخاذ كل الاجراءات اللازمة والاستثنائية لضبط الموقف.

---

[25] - قادتها على الخصوص مدينتا طيبور وبرينست. في حين ظلت المدن الجنوبية كأردي، أريسا، لافينيوم. . . وفية لروما.

في الشمال، استطاعت روما في وقت وجيز أن تستعيد سيطرتها على المناطق الأتروسكية مستغلة في ذلك ضعف الأتروسكيين وانهيار قوتهم العسكرية. فقد تمكنت بعد بضع سنوات من الغزو المغولي من الحاق جزء من الأراضي الجنوبية لاتروريا. كما وقعت معاهدة سلم جديدة مع كل من كايري وطاركيني سنتي 353 و351 ق. م. . أما في الجنوب فقد تمكنت روما من أن تستعيد مكانتها في اللاتيوم حيث وقعت معاهدة جديدة مع العصبة اللاتينية حوالي سنة 358 ق. م. وهي معاهدة قائمة على قدم المساواة (foedus aequum)، أي أنها كانت تحتفظ لكل مدينة باستقلالها ومؤسساتها الخاصة مع تمكين مواطني بعضها البعض من الحصول على حقوق المواطنة. أما على المستوى العسكري فقد كانت روما والعصبة اللاتينية تشاركان بشكل متساو في تشكيل الجيوش وفي توزيع الغنائم بل وفي تعيين دكتاتوريي الحلف. وقد تمكنت روما وحلفاؤها من الانتصار على الهرنيكيين المدعمين من قبل مدينتي طيبور وبرينيست اللاتينتين. ويبدو أن روما قد استغلت هذا الانتصار لانتزاع جزء من أراضي الهرنيكيين. واضطرت بعد ذلك برينست وطيبور إلى توقيع معاهدة مع روما والعصبة اللاتينية في سنة 354 ق. م. وهكذا استطاعت روما في ظرف العقود الأربعة التي تلت الغزو الغالي أن تستعيد قوتها ومكانتها في إيطالية، وأن تدافع عن وجودها، بل وأن تفتح مسيرة الوحدة الإيطالية.

ج. التوسع في إيطالية الوسطى

فمن البديهي أن تتوجه قوة نامية كروما إلى توسيع رقعتها الترابية في إيطالية لمواجهة حاجيات ساكنتها المتزايدة ولارواء عطش طبقتها الارستقراطية الجديدة. ثم ان روما استغلت استمرار قيام الخطر الكلتي الذي واجهته من قبل لكي تصبح زعيمة الوحدة الإيطالية في مواجهة كل الحملات التي من الممكن أن تأتي من الشمال لتهدد شعوب المنطقة كلها.

كل المؤشرات تدل على أن آفاق السياسة والاقتصاد الرومانيين كانت قد عرفت توسعا هاما في منتصف القرن الرابع قبل الميلاد. فالمصادر تخبرنا عن توقيع روما لمعاهدتين هامتين تبين كلتاهما أن الدبلوماسية الرومانية كانت قد أخذت تلعب دورا طلائعيا ليس على المستوى الجهوي فقط بل والمتوسطي أيضا :

ــ المعاهدة الأولى وقعتها روما سنة 354 ق. م. مع السامنيت الذين أصبحوا جيرانا للتراب الروماني بعد أن تمكنت روما من احتلال بلاد الفولسك.

ــ المعاهدة الثانية هي تلك التي وقعتها روما سنة 348 ق. م. مع قرطاج والتي يبدو أنها أضيفت إلى أول اتفاقية وقعها الطرفان سنة 509ق. م. ولقد نقل لنا بوليبيوس مضمون المعاهدة ونصوصها : فقد كان الاتفاق معقودا بين روما وحلفائها اللاتينيين من جهة وبين قرطاج وصور وأوتيكا من جهة أخرى. ولقد التزمت روما بمقتضاها بعدم المتاجرة في

المناطق الواقعة جنوب الرأس الجميل Cap Bon ولا نحو السواحل الواقعة جنوب Mastia Tarseiôn (أي جنوب الموقع الذي ستأسس فيه في وقت لاحق قرطاجنة)، ولا في سردينيا ولا حتى في شمال افريقيا. بينما ظل الجزء الغربي من جزيرة صقلية (حيث استقر القرطاجيون منذ فترة طويلة) وميناء قرطاج في افريقية مفتوحان في وجه التجار الرومان. كما نص الاتفاق على أنه اذا حصل واحتلت قرطاج مدينة لاتينية غير تابعة لروما فبامكانها أن تحتفظ برجالها وكل الغنائم التي تستولي عليها ثم تسلم المدينة لروما. أما اذا قدمت المراكب القرطاجية إلى أحد الموانئ الرومانية وعلى متنها أسرى مدينة مرتبطة بروما بمقتضى معاهدة ما فان هؤلاء السجناء يصبحون أحرارا.

إن هذه المعاهدة تدل على أن روما كانت قد أصبحت منذ هذه الفترة ميناءً متوسطيا يقوم بدور هام في التجارة البحرية، بل ربما أن التجار الرومان أصبحوا ينافسون تجار قرطاج في بعض المناطق. ولا شك أنه انطلاقا من هذا التاريخ أصبحت لروما علاقات منتظمة مع بعض الموانئ المتوسطية الكبرى كمرسيليا وسركوزة.

أما المعاهدة الأولى التي وقعتها روما مع السامنيت فقد كانت لها نتائج هامة قريبة المدى على السياسة التوسعية التي أخذت تنهجها روما. لقد كان الهدف الأساسي لهذه الأخيرة هو ايجاد حل نهائي للمسألة اللاتينية، ثم التطلع للاستيلاء على سهل الكامبانيا الذي يعتبر من أهم السهول الفلاحية الإيطالية. وكانت المعاهدة التي وقعت مع السامنيت واحتلال أراضي الفولسك قد سمحا لها بمحاصرة اللاتينيين. وسرعان ما تواكبت الأحداث بشكل استطاعت معه روما تحقيق مطامعها وأهدافها الاستراتيجية.

لقد بدأت الحرب السامنيتية الأولى بسبب نزاع نشب سنة 343 ق. م. بين السامنيت والسيديكيين حول الطريق الذي يربط اللاتيوم بسهل الكومبانيا. فطلب هؤلاء العون من كابو (عاصمة كامبانيا). غير أن السامنيت الذين تحالفوا مع المدن اللاتينية تمكنوا من هزم السيديكيين وحلفائهم أهل كابوا الذين سارعو إلى طلب العون من روما لكي تنقذهم من الخطر السامنيتي. وقد أرسلت كابوا سفارة إلى مجلس الشيوخ الروماني لمحاولة اقناعه بضرورة التدخل لإنهاء الحرب. وطبعا فقد أتت هذه السفارة في وقت كانت فيه الأرستقراطية الرومانية تبحث عن الفرصة التي ستمكنها من وضع قدمها في سهل الكامبانيا. ذلك أن احتلال هذا السهل ستكون له نتائج ايجابية على مصالحها السياسية والاقتصادية[26]. فبالاضافة إلى الثروات الفلاحية التي يتوفر عليها السهل كانت روما ترى في مراقبته ضرورة استراتيجية تسمح لها بمحاصرة شعوب الايك Eques والفولسك والحد من قوتهما. ثم كان عليها أن تمنع السامنيت من احتلال المنطقة لأن ذلك سيزيد من غير شك في قوتهم التي قد تهدد

[26] - Tite-Live, *Histoire romaine*, VII, 39, 7

مستقبل روما. تلك الأسباب السياسية والاقتصادية والاستراتيجية دفعت مجلس الشيوخ الروماني إلى قبول طلب سفارة كابوا والتحالف مع هذه المدينة رغم المعاهدة التي كانت تجمعها بالسامنيت من قبل. وكانت الحرب قصيرة الأمد انتهت بتوقيع معاهدة جديدة بين السامنيت وروما وضعت بمقتضاها كابوا وسهل الكامبانيا تحت مراقبة روما. غير أن المنهزم الحقيقي في هذه الحرب كانت هي المدن اللاتينية التي أحست بأن روما أصبحت تحاصرها من كل جانب وأن ذلك يشكل خطرا فعليا على استقلالهم. وسرعان ما أخذوا يعبرون عن موقفهم الرافض للسياسة الرومانية، وأخذوا يطالبون بالمساواة السياسية مع الرومان. ومعنى ذلك أنهم أخذوا يسعون إلى الاندماج الفعلي في روما وذلك من خلال مطالبتهم بالحصول على حق الانتخاب (Jus sufrajii) وحق الترشيح (Jus honorum)، والحق في أن يكون أحد القناصل بروما من اللاتينيين وأن يخصص نصف كراسي مجلس الشيوخ لأبناء المدن اللاتينية.

كانت روما مضطرة لأخذ هذه المطالب بجدية. فقد كان ساستها يعلمون أنهم سيواجهون عاجلا أو آجلا المشكلة اللاتينية وأن حل هذه المشكلة لن يتم الا بقوة السلاح. فكان أن عزموا على انهائها الآن. فاندلعت الحرب سنة 340 ق. م. ودامت ثلاث سنوات وانتهت بانتصار روما على اللاتينيين رغم قوتهم العددية وذلك لأنها استفادت فعلا من تخطيطاتها الاستراتيجية السابقة. وفي سنة 338 ق. م. كانت الحرب قد وضعت أوزارها وكانت روما هذه المرة تحتل مركز القوة ازاء المدن اللاتينية، فكان بامكانها بالتالي أن تفرض شروطها.

لقد كانت أول نتيجة مباشرة لهذه الحرب أن أصبحت روما بالفعل عاصمة لسهل اللاتيوم. وقد تم حل العصبة اللاتينية. فأخذت روما تتفاوض مع كل مدينة على حدة وتخولها من الحقوق وتفرض عليها من الواجبات ما يتلاءم ومواقفها من روما خلال الحرب. فبعضها كأريسيا ولافنيوم تم الحاقها بروما حيث أصبح وضعها القانوني كمستلحقة municipium يحتفظ سكانها بحق المواطنة الرومانية باستثناء حق التصويت، في حين أن بعض المدن الاخرى -خصوصا تلك التي وقفت من روما موقفا عدائيا واضحا- عقدت معها روما معاهدات بشروط قاسية غالبا ما نصت على اقتطاع أجزاء من أراضيها. أما مدينة كابوا التي استقر بها العديد من رجال الأعمال الرومانيين فقد حصلت على حق المواطنة الكاملة. وباحتلال سهلي الكامبانيا واللاتيوم أصبحت روما عاصمة لمنطقة لا تقل مساحتها عن 11000 كلم^2 وعدد سكانها يناهز المليون نسمة. الا أنها كانت تفتقر إلى وحدة عرقية و لسنية وهو الشيء الذي لن يتحقق الا بعد مضي وقت طويل.

ولقد أدى احتلال روما لسهل الكامبانيا بالسامنيت إلى اعداد العدة للانتقام. وكان ذلك بداية لصراع حاد بين القوتين حول السيادة في شبه الجزيرة الإيطالية. وقد تمكن

السامنيت من توسيع حدود دولتهم التي أصبحت تمتد من ساغروس Sagrus في الشمال إلى حدود لوكانيا Lucanie في الجنوب، بالاضافة إلى أنها أصبحت تملك منفذا على البحر التيريني جنوب الكامبانيا (بين رأس كامبنيلا cap Campanell ومصب نهر سيلاروس Silarus). وهكذا كان السامنيت والرومان يسيران كل على حدة في اتجاه واحد : فرض الهيمنة على إيطالية. فكان الصدام وشيك الوقوع لا محالة. أما المعاهدات التي وقعت فيما قبل فكانت تفرضها ضرورات ظرفية لكلا الطرفين. لقد كان السامنيت يبحثون عن منافذ بحرية للتمكن من رفع الحصار المضروب عليهم في منطقتهم الجبلية. وكان المنفذ في الجنوب هو وادي فولتورن Vulturne وفي الشمال وادي ليريس Liris. وكان الرومان قد أغلقوا المنفذ الأول منذ استيلائهم على الكامبانيا. أما الثاني فقد أصبح أيضا في ملك روما خصوصا بعد أن قامت هذه الأخيرة بانشاء ثلاث مستعمرات قوية : صورا Sora وفريجيل Frégelles وكالس Calès. كان معنى ذلك أن روما أخذت تشدد قبضتها من أجل خنق السامنيت.

طلب انسامنيت من روما اخلاء فريجيل فرفضت. فكان ذلك بمثابة الشرارة الاولى التي أثارت الحرب بين الجانبين. وكانت حربا طويلة دامت 37 سنة (327 -290 ق. م.) يميز فيها المؤرخون بين مرحلتين : الحرب السامنيتية الثانية (327 -312 ق. م.) التي واجه فيها السامنيت بمفردهم الجيوش الرومانية والتي انتهت بانتصار روما. ثم الحرب السامنيتية الثالثة (312-290 ق. م.) التي استطاعت خلالها الكونفدرالية السامنيتية أن تجر إلى جانبها شعوب إيطالية الشمالية (الأتروسكيون والأمبريون والغاليون) التي أخذت تتخوف من النفوذ المتزايد لروما في إيطالية واتساع رقعة مكاسبها الترابية، وهو الشيء الذي استغلته الدبلوماسية السامنيتية لعقد تحالف مع تلك الشعوب. بل إن المستعمرات الاغريقية في الجنوب وخصوصا طارونت Tarente فقد أخذت بدورها تحس بالخطر الروماني خصوصا بعد أن تمكنت روما من اخضاع سهل الأبولي. وهكذا تشكل حلف كبير ضد روما جمع بين طارونت التي التزمت بدفع الأموال من جهة والسامنيت والأتروسكيين والأمبريين والغاليين الذين التزموا بدفع الرجال. فانطلق الشطر الثاني من الحرب التي سميت بالحرب السامنيتية الثالثة والتي دامت 22 سنة. وكان على روما أن تقبل التحدي وأن تنازل أعداءها. ولكن، أمام قوة الخصم العددية، كان لابد لها من البحث عن مصادر جديدة لزيادة أفراد الجيش ونفقاته. وقد تأتى لها ذلك بفعل حكمة الكنصور أبيوس كلوديوس Appius Claudius (312-310 ق. م.) الذي أدخل تعديلات هامة على نظام السنتورات وعلى التنظيم العسكري سنتعرض لها في جزء آخر من هذا الكتاب. واستطاعت روما أن تحقق مجموعة من الانتصارات العسكرية في مواقع عدة أهمها تلك التي أحرز عليها الرومان في معركة سونتينوم Sentinum سنة 295 ق. م. والتي أجبرت حلفاء السامنيت على وضع السلاح، في حين تم اخضاع شعوب السامنيت نهائيا سنة 290 ق. م.

وقد أسفر هذا التوسع الجديد لروما في بلاد السامنيت عن نتيجتين أساسيتين :

1- تدعيم مركز روما في جنوب شبه الجزيرة الإيطالية حيث ستصبح انطلاقا من حينه على اتصال مباشر مع بلاد الاغريق الكبرى (أي المستعمرات الاغريقية في القسم الجنوبي من إيطالية)

2- ظهور روما بمظهر دولة جديدة مشكلة من الأرستقراطية الرومانية والأرستقراطية الكامبانية التي حصل بعض أفرادها على كراسي في مجلس الشيوخ الروماني فأصبحوا بذلك يساهمون في توجيه سياسة التوسع لخدمة أهدافهم الاقتصادية. وهذا التحالف بين الأرستقراطية الرومانية والأرستقراطية الكامبانية هو الذي سيطبع تاريخ الفترة اللاحقة التي تميزت باتساع رقعة الفتح لتشمل بعض المناطق المتوسطية.

وبفضل الامكانات الجديدة التي توفرت لروما، سارعت هذه الأخيرة إلى توسيع مسلسل الفتح هادفة إلى توحيد إيطالية تحت زعامتها السياسية. وفي هذا الاطار يندرج اخضاع صابينيا سنة 290ق. م. والحاق جزء مهم من منطقة غاليكوس البحرية Ager Gallicus انطلاقا من سنة 283 ق. م. ثم انها أخضعت بالتدريج العديد من المدن الأتروسكية عن طريق عقد اتفاقيات ثنائية أصبحت بمقتضاها هذه المدن مدنا فيدرالية. واستمرت هذه السياسة إلى سنة 256 ق. م. حيث استطاعت روما أن تحتل مدينة فولزيني Volsinies. وبتدمير هذه الأخيرة دقت روما آخر مسمار في نعش الفدرالية الأتروسكية.

د. حرب بيروس Pyrrhus (280–275 ق.م.) واخضاع الجنوب

كان من الضروري أن تصطدم روما الساعية إلى فرض هيمنتها على إيطالية بالمستعمرات الاغريقية في الجنوب. وكان اخضاع شعوب إيطالية الوسطى يعني أن روما قد أصبحت وجها لوجه مع هذه المستعمرات.

إن العلاقات التي تجمع روما و المدن الاغريقية تعود إلى قرون سابقة وكانت على العموم علاقة سلمية، بل تعدت ذلك إلى علاقة صداقة في بعض الأحيان. فقد رأينا أن كوماي لعبت دورا هاما في تخليص روما من هيمنة الملوك الأتروسكيين. كما أن روما كانت تهب عليها نسائم التأثيرات الحضارية الاغريقية. وحينما احتل الرومان سهل الكامبانيا توطدت العلاقات بينهم وبين مستعمرتي كوماي ونابولي. بل انه في الوقت الذي تحالفت فيه نابولي مع السامنيت وسقطت في يد الرومان بعد حصار طويل (326 ق. م.) فان روما عاملتها معاملة حسنة اذ وقعت معها روما معاهدة أصبحت بموجبها نابولي تحت حمايتها وتمكنت بذلك من الحفاظ على امتيازات كثيرة. ولقد استفادت روما في واقع الأمر من حالة الضعف التي كان يعاني منها الاغريق في جنوب إيطالية. ذلك أن الصراعات أخذت

تتوالى بين المدن الاغريقية بل وتشتد الانشقاقات حتى داخل المدينة الواحدة. فطرونت التي كانت تعتبر من أقوى المستعمرات الاغريقية على الساحل الجنوبي والتي كانت قد عرفت مرحلة ازدهار سياسي واقتصادي خلال القرن الرابع قبل الميلاد، أخذت انطلاقا من منتصف هذا القرن تسير بخطى وئيدة نحو الانهيار. أما سركوزة -منافستها في سردينيا- فستعرف بدورها اضطرابات عدة جعلتها تتأرجح بين القوة والضعف تبعا لشخصية حكامها. وكانت روما تتابع تنفيذ مخططها التوسعي في الجنوب ببطء ولكن بمنهجية محكمة. فقد كانت تحاول أن تشمل مراقبتها شرق وغرب بلاد الاغريق الكبرى وهو ما يفسر احتلالها لسهل الأبولي وبلد اليابيج Iapyges بين سنتي 320 و317 ق. م. وتأسيس مستعمرة بونتيا Pontia سنة 313 ق. م.

وكان تخوف طارونت من هذا الزحف الروماني هو الذي دفع بها للدخول في تحالف مع السامنيت خلال الحرب السامنيتية الثالثة. وفي نفس الوقت حاولت أن تكسب صداقة أغاطوكل Agathocle حاكم سركوزة مقابل السماح له بتحقيق حلمه في فرض سيطرته على السواحل الثلاثة الأدرياتيكي، والايوني والتيريني. لكن خطة طارونت فشلت بسبب انهزام السامنيت أمام الرومان سنة 295 ق. م. ووفاة أغاطوكل سنة 289 ق. م. وقد كانت طارونت قد استغلت في السابق موقف روما في الحرب ضد التحالف الايطالي لتوقيع معاهدة معها سنة 303 ق. م . حرمت بمقتضاها على البحرية الرومانية تجاوز رأس لاكينيا promontoire lacinien [27]. وكان هدفها من هذا التحريم حماية حقوقها التجارية في المنطقة. وقد وافقت روما على شروط طارونت لعدم رغبتها في خلق جبهة حربية جديدة في الجنوب قد تؤثر سلبا على جهودها في مقاومة التحالف الايطالي. فموافقتها كانت إذن خطة مرحلية هدفها تهدئة الوضع في الجنوب. فبمجرد أن انتهت الحرب، أصبحت روما مستعدة للتخلي عن التزاماتها السابقة مع طارونت.

استغلت روما الخلافات بين المستعمرات الاغريقية لتتدخل في شؤون جنوب إيطالية. ففي سنة 282 ق. م. استجابت لطلب ثوريي Thurii (التي كانت على خلاف مع طارونت) قصد مساعدتها على وقف التهديدات اللوكانية lucaniens، فأرسلت قوة عسكرية إلى المنطقة. وسرعان ما اندمجت ثوريي في الفدرالية الإيطالية. ثم ان روما أقامت حاميات عسكرية بمستعمرات لوكر Locre وكروتون Crotone وريجيون Rhegion الشيء الذي سمح لها بالسيطرة مؤقتا على مضيق ميسين Messine. ثم أرسلت روما بعض سفنها إلى البحر الايوني متجاوزة بذلك الحد الذي سطرته معاهدة 303 ق. م. مع طارونت. فأحست هذه الأخيرة بالخطر الذي يهددها. لقد أخذت المسألة بجد بل انها اعتبرتها قضية حياة أو

27 - cap di Nao الحالي.

موت. فقررت مواجهة البحرية الرومانية. وانتصرت طارونت. الا أنها سرعان ما تنبهت إلى كونها أقدمت على الدخول في حرب لا يمكن أن تخرج منها منتصرة بمفردها أمام إيطالية الموحدة تحت قيادة روما. فكان عليها أن تبحث عن العون من حليف قوي. وقد وجدت ذلك الحليف في شخص بيروس Pyrrhus ملك الابير Epire (280 ق. م.). لقد كان هذا الأخير يحكم مملكة أغلب أراضيها جبلية، فقيرة من حيث الموارد، ومحاصرة بمناطق مقدونيا و طيساليا وايطوليا. وقد كانت قبيلة المولوس التي تشكل أهم عنصر بشري في المملكة قد اعتادت منذ عهد الإسكندر الأكبر على اعتبار الحرب صناعة وطنية ذات مردودية. وعندما تولى بيروس الحكم سنة 296 ق. م. وهو شاب عمره لا يزيد عن 23 سنة، أخذ يوجه هجوماته نحو مقدونيا وطيساليا فاستطاع ضمهما وبذلك ضاعف من مساحة مملكته ومن عدد ساكنتها. ولم تكن طموحاته التوسعية لتقتصر على ذلك الحد. فقد كان متأثرا بشخصية الإسكندر المقدوني وتخيل أن بامكانه القيام بفتوحات شبيهة بتلك التي حققها هذا الأخير. غير أنه سرعان ما ثارت مقدونيا وطردت بيروس في الوقت الذي وصلت فيه سفارة طارونت حاملة له دعوة الحزب الوطني في المدينة الذي يطلب منه التدخل لمساعدة أهل طارونت ضد الخطر الروماني. فكان أن فكر في استغلال الفرصة لتكوين دولة قوية تعتمد على موارد بلاد الاغريق الكبرى الاقتصادية بشكل يسمح له بالعودة إلى مقدونيا منتصرا فيما بعد.

وفي ربيع سنة 280 ق. م. حطت في ميناء طارونت سفن الملك بيروس حاملة مايناهز 25000 رجل وعدة فيلة. وبعد أن فشل في فرض نفسه كوسيط بين طارونت وروما قرر اعلان الحرب. فسيرت روما جيشها بقيادة القنصل فاليريوس لييفينوس Valerius Laevinus نحو هرقلة Heraclée حيث التقى الجمعان. ولقد أثار استعمال الفيلة في القتال فزع الرومان الذين فروا من المعركة، فتمكن بيروس من الانتصار وواصل زحفه نحو سهل الكامبانيا. ورغم الهزيمة التي مني بها بالقرب من كابوا أراد مواصلة السير في اتجاه روما. الا أنه اضطر للتوقف في أنغني Anagni عندما علم بأن روما هيأت جيشا آخر لمهاجمته في الوقت الذي ظلت فيه المدن اللاتينية وحتى مدن الكامبانيا على وفائها لروما مما شكل خطرا استراتيجيا على بيروس الذي خشي أن تأخذه الحرب من الخلف. فكان أن فضل التراجع إلى سهل الكامبانيا وهناك بدأ مفاوضات مع روما (280-279 ق. م.) انتهت بالفشل. وفي 279 أرسلت روما جيوشها (حوالي 40000 رجل) ضد بيروس فتكبدت هزيمة أخرى أجبرتها هذه المرة على ارسال مفاوضيها لطلب السلم. واستمرت المفاوضات طيلة خريف عام 279-278ق. م. وحينما أوشك الطرفان على التوصل إلى صيغة اتفاق دخلت قوة أخرى إلى مسرح الأحداث : انها قرطاج.

لقد أرسلت هذه الأخيرة بواخر حربية إلى ميناء أوستيا Ostia الروماني بقيادة الأميرال الروماني ماغون Magon. وتم التوقيع على معاهدة جديدة بين روما وقرطاج نصت على أنه اذا قررت احدى القوتين توقيع معاهدة مع بيروس فإنها ستحتفظ للقوة الأخرى بكل الحقوق التي تم الاتفاق عليها بمقتضى معاهدات سابقة. كان ذلك يعني أن قرطاج تعترف رسميا بسلطة روما في إيطالية. ثم إنها كانت تخشى من أن تصبح مصالحها بصقلية مهددة من طرف بيروس بعد أن يتمكن من انهاء مشاريعه في إيطالية وخصوصا اذا تمكن من الوصول إلى عقد معاهدة سلم مع روما. ولذلك نص البند الذي ذكرناه آنفا على الربط بين مصالح روما في إيطالية ومصالح قرطاج في صقلية بشكل يمنع القوتين من توقيع حلف أو معاهدة منفردة مع بيروس. وقد نصت المعاهدة أيضا على التعاون العسكري بين القوتين، اذ التزمت قرطاج بتقديم دعم بحري لروما عند الحاجة.

اذا كان هذا التدخل القرطاجي قد حقق هدفه الرامي إلى افشال المفاوضات مع بيروس فقد كانت له نتائج عكسية على مصالح قرطاج الصقلية. فقد تنبه بيروس إلى هذا العدو الجديد وقرر نقل الصراع العسكري إلى الجزيرة حيث تمكن في وقت وجيز من السيطرة على مجموعة من المدن الاغريقية بها وخاصة منها سركوزة التي توج بها ملكا (278 ق. م.) ثم أجريجونت Agrigente (277 ق. م.) التي تسلل منها إلى المنطقة الواقعة تحت سيطرة القرطاجيين وفتح بعض مدنها كسيلمونت Sélimonte وسجيست Segeste وباليرمو Palerme بشكل اضطرت معه قرطاج التي لم تعد تحتفظ الا بليليبي Lılybée إلى طلب السلم. غير أنه أخذ يفكر في الانتقال بقوته العسكرية إلى الأراضي الافريقية لمحاصرة قرطاج. لكن الهزيمة التي مني بها قرب ليليبي Lilybée في ماي 276 ق. م. أثرت كثيرا على سمعته العسكرية ودفعت بالصقليين الذين أثقلت كاهلهم الضرائب التي فرضها بيروس إلى الثورة والتمرد الشيء الذي جعل هذا الأخير يقرر العودة إلى إيطالية سنة 275 ق. م.

وقد استغل الرومان الفترة التي قضاها بيروس بصقلية لاعادة سيطرتهم على إيطالية الوسطى والجنوبية. فحاربوا السامنيت، واللوكانيين والبروتيين وحتى سكان طارونت وأحرزوا على انتصارات هامة أعادت لهم هيبتهم العسكرية في شبه الجزيرة. وقد دفعت الحاجة إلى المال ببيروس إلى فرض ضرائب على سكان المستعمرات الاغريقية في جنوب إيطالية ومعاملتهم معاملة قاسية بعد عودته من صقلية وهو الشيء الذي أثار حفيظتهم. وفي نفس الوقت تكبد هزيمة شنعاء أمام الجيش الروماني سنة 275 ق. م. في بينيفون Benévent. فقرر الرجوع إلى بلده لمواصلة الحرب من أجل عرش مقدونيا تاركا حامية عسكرية بطارونت (خريف 275 ق. م.).

لقد شكل هذا الحدث نقطة حاسمة في تاريخ روما. فقد فشل مخطط بيروس التوسعي وأثبتت روما بالمقابل قوتها العسكرية الشيء الذي جلب اليها أنظار المصريين والاغريق. وقد كان تراجع بيروس يؤذن بنهاية العصر الذهبي للحضارة الاغريقية في الجنوب الايطالي. فقد استغلت روما انتصارها لتتخلص نهائيا من الوجود الاغريقي في الجنوب ولكي تثبت دعائم الوحدة الإيطالية تحت قيادتها. وهكذا بدأت روما حربها ضد المستعمرات الاغريقية معتمدة في ذلك على سياستين مختلفتين. فالمدن التي فضلت الاستسلام (venire in fidem) عاملتها روما معاملة الدولة الحامية (مثال Locres). أما المدن الأخرى التي عزمت على مواجهة روما (خاصة طارونت) فقد استعملت معها قوة السلاح من أجل اخضاعها. فبعد أن استولت روما على منطقة لوكانيا Lucanie حيث أسست مستعمرة بايستوم Paestum سنة 273 ق. م. ، سارعت إلى ضرب الحصار على طارونت في الوقت الذي أرسلت فيه قرطاج قطعا حربية لاحكام الحصار من جهة البحر الايوني. فاضطرت الحامية الابيرية التي تركها الملك بيروس بقلعة المدينة إلى الاستسلام. ودخل الجيش الروماني طارونت وفرض عليها قائده غرامة حربية كبيرة رغم أنه سمح لسكانها بالمحافظة على استقلالهم وعلى وضع مدينتهم القانوني كمدينة حرة مقابل أن تحتل حامية عسكرية رومانية مكان الحامية الابيرية المنهزمة (272 ق. م.). وقد أدى ذلك إلى القضاء نهائيا على قوة طارونت وبالتالي على كل عناصر المقاومة الاغريقية في الجنوب الايطالي، حيث تم اخضاع كل المستعمرات وأصبحت هذه المنطقة جزءا من التراب الروماني. وكان تأسيس مستعمرة بينيفون Benévent اللاتينية سنة 268 ق. م. يهدف إلى تأكيد هذا الوجود وتأمين عمليات الربط والاتصال بين سهل الكامبانيا والجنوب.

وقد ورث الرومان التراث التجاري لطارونت بعد سقوطها وأصبحوا يشرفون على التجارة في البحر الأدرياتيكي. غير أن إخضاعهم للجنوب كان يعني أيضا أنهم أصبحوا في مواجهة صريحة مع القوى البحرية التي كانت لها الغلبة في البحر الأبيض المتوسط منذ فترة طويلة ونقصد بالخصوص قرطاج التي أخذت تتخوف من الزحف الروماني الذي اكتسح إيطالية، ونجح في توحيدها محولا اياها إلى قوة سياسية قد تعرض مصالح قرطاج الاقتصادية و الاستراتيجية للخطر. فاذا كان سقوط طارونت يعني نهاية عهد الصراع من أجل الزعامة في إيطالية فانه كان مؤشرا على بداية عهد جديد تميز بالصراع حول السلطة في البحر الأبيض المتوسط.

2 . تنظيم الفتح الروماني

منذ أن وقعت روما معاهدة 272 ق. م. مع طارونت لم يعد ثمة شعب أو مدينة في إيطالية جنوب نهر الأرنو Arno يتمتع باستقلال حقيقي. فقد أصبحت كل شعوب المنطقة

خاضعة لروما بشكل أو بآخر باعتبار أن روما كانت تحتل مركز القوة. ونظرا لتعدد أشكال الارتباط والتبعية بين المدن الإيطالية وروما فانه لا يوجد مصطلح يمكن أن يطلق على هذه الكتلة السياسية التي اكتملت وحدة أشلائها في القرن الثالث قبل الميلاد. فبعض المؤرخين يطلقون عليها اسم الفدرالية الإيطالية وهو اسم لا يمكنه أن يجسد الا جزءا من الروابط التي كانت تجمع روما ببعض المدن. أما الرومان أنفسهم والمؤرخون اللاتينيون فقد تعودوا على أن يصطلحوا على هذه الشعوب الموحدة ب«الرومان و اللاتينيون وحلفاؤهم الايطاليون». فهذه التسميات تعبر بشكل دقيق نسبيا عن مختلف أشكال الروابط القانونية التي تربط روما بالمدن والشعوب التي أصبحت تحت سيطرتها.

والواقع أنه اذا كان التوسع الروماني قد تم عبر مراحل واستمر مدة طويلة من الزمن تمخضت عن افراز إيطالية الموحدة في القرن الثالث قبل الميلاد فان تنظيم هذا الخليط الايطالي لم يكن وليد خطة مهيأة، ولم يولد بين عشية وضحاها، بل انه كان نتيجة قرارات اتخذتها روما حسب الظروف المرحلية التي حتمتها تطورات الفتح. ثم ان التوسع التدريجي في إيطالية كان يعني توسيع دائرة روما الترابية الشيء الذي كان يفرض اعادة تنظيم روما نفسها. ففي نهاية القرن 3ق. م. أصبحت روما قوة متوسطية في حين ظل تنظيمها السياسي هو تنظيم دويلة المدينة. فهذه الأخيرة أصبحت تملك بقعة تمثل عشر مساحة إيطالية وتسيطر على الأجزاء التسعة الباقية. ان هذا التوسع الكبير يحمل تناقضا مع مبادئ التنظيم السياسي التقليدي في دويلة المدينة. فمعلوم أن دويلة المدينة تتكون من المدينة التي تشكل مركز التجمع وبادية Chora التي تحيط بها، ويشارك كل مواطنيها في تسيير الشؤون السياسية عبر مؤسساتها. إن هذا التعريف أصبح لا يتطابق والواقع الجديد في روما خصوصا مع اتساع رقعتها الترابية. ولذا وجب ايجاد حلول من شأنها أن تسمو بالتنظيم السياسي إلى مستوى الدولة الجديدة.

في البداية، كانت الأراضي الرومانية تشمل روما وضواحيها التي يطلق عليها الأراضي الرومانية Ager romanus . وكانت الاصلاحات الملكية قد قسمت هذا المجال إلى أربع قبائل حضرية وعدد آخر من القبائل البدوية التي اعتبرت بمثابة الاطار الاداري الذي يسجل فيه المواطنون، ويدفعون فيه الضرائب ويستنهضون عبره للحرب. . . لكن هذه الأراضي التي كانت تضم في القرن الخامس المناطق الواقعة بالقرب من روما أصبحت في القرن الثالث تمتد على حوالي 27000 كلم^2 . كيف تم هذا التوسع المفاجئ؟

إن علاقة روما بكل قطعة ارضية مفتوحة كانت تحددها في واقع الأمر وضعية ساكنتها القانونية. ولقد عرفت روما نظامين متوازيين طبقتهما حسب الظروف على المناطق المفتوحة : نظام الإلحاق ونظام الفدرالية.

أ. نظام الالحاق annexion

لقد عرفت روما هذا النظام في عهدها الأول وطبقته أول الأمر في اللاتيوم، الا أنه عرف فيما بعد تطورات سواء من حيث الشكل أو من حيث طرق تطبيقه. بالنسبة للرومان، فالعلاقة التي تربط روما بالمدن التي انهزمت أمامها يحددها ذلك التقليد الذي تستسلم بمقتضاه المدينة المنهزمة للمنتصر والذي يصطلح عليه ب deditio in fidem [28]. ومعنى ذلك أن المهزوم يصبح ملكا للمنتصر ويخول له الحق في التصرف كيفما شاء بأملاكه وبنفسه. وغالبا ما كانت روما تستجيب للمستسلم receptio in fidem، ويقوم مجلس الشيوخ أو القائد العسكري الذي يشرف على العمليات الحربية باتخاذ قرار مناسب في التعامل مع المدينة المهزومة. وفي كل الأحوال تصبح هذه الأخيرة خاضعة لسلطة روما وفي نفس الوقت تتمتع بحمايتها : فهي خاضعة لسلطتها لأن الفضل في استمراريتها يرجع لروما التي منحتها حق الحياة ولذلك تجب عليها الطاعة، ومتمتعة بحمايتها لأن روما التزمت بحماية المدينة عندما أعلنت عن استسلامها. تصبح اذن علاقة روما بالمدينة قائمة على حسن النية والثقة المتبادلة fides كما هو الشأن تماما بالنسبة للعلاقة بين البطركي وتابعه. وذلك هو المضمون الروحي للمعاهدة التي تعقد بين الطرفين foedus.

الآن وقد استسلمت المدينة، كيف يتم التعامل معها؟

لقد طبقت روما في البداية طريقتين مختلفتين :

ــ يقوم الرومان بضم أراضي المدينة إلى ترابهم الوطني. أما السكان فإما أن يبيدوهم عن طريق القتل الجماعي أو يتم بيعهم في سوق النخاسة أو يتم ترحيلهم إلى روما. وهذه الصيغة الأخيرة هي الصيغة الغالبة باعتبار أنها كانت تحمل ثلاث نتائج ايجابية : توسيع الأراضي الرومانية، الزيادة في عدد ساكنة روما، والحصول على الأمن المطلق في المنطقة. هذه هي الطريقة التي اتبعتها روما في معاملة بعض المدن المحيطة بها خلال الفترة الملكية كبوليتوريوم Politorium و تلين Tellène. . . وخصوصا ألبا Alba. أما الطبقة الأرستقراطية فانها اذا ما أعلنت خضوعها في الوقت المناسب فانها تحصل على حق المواطنة الرومانية.

ــ الطريقة الثانية تتمثل في كون الرومان يقومون بإلحاق أراضي المدينة المنهزمة لكن دون أن يرحلوا سكانها. وفي هذه الحالة تقوم الدولة بمصادرة جزء من أراضيها (يتراوح بين النصف والثلثين) تحوله إلى أراض عمومية Ager publicus، أي أنها تصبح في ملكية الدولة الرومانية التي تتصرف فيها بالشكل الذي يحلو لها. ومع حلول القرن الرابع قبل الميلاد - وهو قرن الفتوحات في إيطالية الوسطى على الخصوص- تطورت هذه الصيغة ليظهر نظام

[28] - في بعض الأحيان كانت بعض المدن تلجأ إلى هذه الصيغة دون أن تكون قد نازلت روما في موقعة ما بل لمجرد أن تصبح في حمايتها وذلك شأن كابوا مثلا.

المستلحقة municipium. فالمدينة المهزومة تفقد استقلالها الخارجي بحيث لا يمكنها أن تربط علاقات مع الشعوب الأخرى ولكنها تحافظ على نوع من الاستقلال الذاتي بالشكل الذي يمكنها من الاحتفاظ بجزء كبير من مؤسساتها المحلية. أما سكانها فانهم يحصلون على حق المواطنة الرومانية الجزئي civitas sine suffragio. فهم يتمتعون بالحقوق المدنية الأساسية كحق الزواج من الرومانيات connubium وحق الملكية commercium ولكنهم يحرمون من الحقوق السياسية كحق الانتخاب jus suffragii وحق الترشيح لمزاولة مهام الدولة jus honorum. ومقابل حق المواطنة الجزئي هذا يلزم سكان المستعمرة بدفع الضرائب والخدمة العسكرية على غرار باقي المواطنين الرومانيين. ولذلك اصطلح على تسميتهم بالمستلحقين municipes وهي كلمة لاتينية تعني تلك الجماعة من الناس التي تساهم في المصاريف العامة munus. وكانت هذه الصيغة تسمح لحكام روما بالزيادة في قوة مدينتهم من حيث عدد سكانها ومن حيث رقعة أراضيها ومن حيث أعداد جيشها ومداخيل خزينتها، وفي نفس الوقت تمنع المدن المستلحقة من التأثير في اتخاذ القرار السياسي ما دامت محرومة مبدئيا من الحقوق السياسية. أقول مبدئيا لأن تطبيق هذا النظام لم يخل من بعض الاستثناءات.

أما الأراضي المصادرة فهي لا تبقى بالطبع مهجورة بل غالبا -وليس دائما- ما تقوم الدولة بمنحها لافراد من أصل روماني خالص viritim يستقرون فوق أراضي المدينة المهزومة. وهكذا بدأت تظهر بمختلف المناطق الإيطالية جموع من السكان الذين يتمتعون بحقوق المواطنة الكاملة conventus civium romanorum. وفي بعض الأحيان تقوم الدولة بخلق قرى صغيرة fora خصوصا اذا ما تعلق الأمر بتكليف جماعة ما بأعمال صيانة الطرق الرئيسية حيث يحصل هؤلاء مقابل تلك الأعمال على حق استغلال جزء من أراضي الدولة. وطبعا، ففي هذه القرى كما هو الشأن في المستلحقات اختلط المواطنون الرومانيون بعناصر أخرى غير رومانية. هذه الازدواجية الاثنية والقانونية لن تستمر طويلا. فقد نتج عن التفاعل بين هذه العناصر الإيطالية والرومانية أن شملت الرومنة بمعناها الثقافي والسياسي جميع سكان المستلحقات. فعن طريق التسجيل الفردي أو الجماعي في قوائم القبائل الرومانية، وعن طريق منح حق الانتخاب للأفراد والجماعات حصل سكان المستلحقات على حقوق المواطنة الكاملة مع حفاظهم على خصوصياتهم الدينية والمؤسساتية، وهكذا أصبحوا يساهمون في الحياة السياسية الرومانية كباقي المواطنين. وتعتبر مدينة كابوا أفضل مثال لهذا التطور. ففي 343 ق. م. استسلمت بمحض إرادتها لروما دون أن يكون ذلك نتيجة صراع ما. وبعد سنوات قليلة أصبحت مستلحقة بعد أن حصل أفرادها على حق المواطنة الجزئية، أي أنهم حصلوا على الحقوق المدنية دون السياسية وفي نفس الوقت احتفظوا بحكامهم وبمؤسساتهم السياسية. وقد كان سكانها مجندين في الجيش الروماني

باعتبارهم مواطنين. ثم ان الاندماج بين ساكنتها والرومان أخذ يتم تدريجيا إلى أن أصبح هؤلاء يتمتعون بالحقوق السياسية التي خولت لهم الحق في حمل صفة المواطنة الكاملة. لكن سياسة الادماج هذه طبقت في فترة كان فيها التوسع الروماني مقتصرا على المناطق القريبة من روما والتي يمكن حصرها في إيطالية الوسطى وخصوصا سهل اللاتيوم والكامبانيا. فحينما أخذت دائرة النفوذ الروماني تتسع بوتيرة سريعة تخلت روما عن هذه السياسة واعتمدت على إقامة المستعمرات لتحافظ على مركز العنصر الروماني.

والمستعمرة عبارة عن مدينة تؤسسها روما في منطقة ما لأسباب اقتصادية أو استراتيجية أو سياسية. وتتم عملية التأسيس حسب تقاليد وعادات دأبت سلطات روما على احترامها. فقد كانت ترسل مجموعة من المعمرين تحت قيادة لجنة مشكلة من ثلاثة حكام يقومون باختيار جزء من الأرض العمومية يوزع على المعمرين بالتساوي ثم يخططون بقعة لإنشاء المستعمرة التي تحتل مركز الأرض المخصصة للمشروع. ويميز بين نوعين من المستعمرات :

ــ المستعمرة الرومانية : وهي التي يتمتع سكانها بحق المواطنة الرومانية الكاملة ويشكلون بذلك تجمعا بشريا رومانيا خارج حدود روما. وقد ظل الهدف من انشاء هذا النوع من المستعمرات استراتيجيا وعسكريا إلى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد، حيث أقيم أغلبها على السواحل لحماية أمن الأراضي الرومانية. وكانت هذه المستعمرات التي لا تضم عادة أعدادا كبيرة من السكان عبارة عن صورة مصغرة لروما، اذ أنها تكون مشكلة من المواطنين الرومانيين فقط وتكون مؤسساتها المحلية مماثلة لمؤسسات المدينة الأم. فلها مجلس الشعب (comitia) وحكامها الذين يقومون بدور القناصل (praetores أو duoviri) ومجلس الشيوخ (decurionum ordo) وكهانها (flamines) وتتمتع بحرية تامة في مجال التسيير الاداري.

ــ المستعمرة اللاتينية : وهي أكثر عددا من سابقتها. وتتميز عن الأولى بكون معمريها لا يتمتعون بحقوق المواطنة الكاملة بل بالحقوق المدنية فقط. ولكن كان بامكانهم أن يستقروا في روما وأن يحصلوا آنذاك على الحقوق السياسية. إن وضعيتهم القانونية شبيهة بوضعية المدن اللاتينية في الفترة التي كانت موحدة مع روما في عصبة واحدة، وذلك أصل تسميتها بالمستعمرات اللاتينية. وغالبا ما كانت هذه المستعمرات تضم أعدادا كبيرة من المعمرين بالمقارنة مع سابقتها. وكانت تتمتع باستقلال ذاتي وتتوفر على مؤسسات خاصة بها وهي تساهم ماليا وعسكريا في جهود روما الحربية. وعلى العكس من المستعمرات الرومانية أنشئ أغلب هذه المستعمرات في المناطق الداخلية وكانت تقوم بدور اقتصادي أكثر منه عسكري او استراتيجي (استغلال الأراضي).

ب. النظام الفدرالي

إن الأراضي التي تم فتحها ولم تلحق أراضيها بالأراضي الرومانية، والتي أصبحت خاضعة لسلطة روما السياسيةتتميز بخاصيتين أساسيتين :أن سكانها لا يتمتعون بحق المواطنة الرومانية، فمن وجهة النظر القانونية يعتبرون أجانب بالنسبة لروما. ثم ان هذه المناطق تضم كل المدن أو الشعوب التي تحالفت مع روما فضلا عن المستعمرات اللاتينية التي تصنف بدورها ضمن هذا الصنف.

فبما أن هذه الشعوب ليست رومانية وليست عدوة فهي تعتبر بالضرورة حليفة لروما وكانت علاقة هذه الأخيرة بها تحدد بمقتضى معاهدات تعقد بشكل ثنائي وتنص على الوضعية القانونية والسياسية التي تتمتع بها المدينة. ولذلك كانت الامتيازات التي تحظى بها تلك المدن تختلف حسب الظروف وحسب المواقف التي عبرت عنها أثناء التفاوض. الا أن المبدأ الغالب هو أنها تحتفظ بهويتها وبشخصيتها وبحريتها في الوقت الذي تصبح فيه مجبرة على المساهمة في تحمل نفقات الدولة. وذلك هو الفرق الأساسي بينها وبين نظام المستلحقات التي تضع حدا لوجود تلك المدن ما دام نظامها يعمل على ادماجها في روما.

لقد تفاوضت بعض المدن الحليفة مع روما على قدم المساواة ووقعت معها عقدا مبنيا على قاعدة المساواة بين الطرفين foedus aequum. ويتعلق الأمر بعدد قليل من المدن التي ظلت حليفة لروما مثل كامرينوم Camerinum وهرقلة Heraclée ونابلس Naples وبرينست Prénestc. . . لقد احتفظت هذه المدن بحقوق السيادة خاصة منها امتياز سك العملة النحاسية، وبمؤسساتها المحلية وبحكامها وبمحاكمها القضائية وبلغتها. أما غالبية شعوب ومدن إيطالية فقد وقعت معاهدة مع روما بعد انهزامها ووقفت أثناء التفاوض في مرتبة غير متساوية معها foedus iniquum، أي أنها وقعت معاهدة المهزوم. وهنا تختلف شروط المعاهدة حسب اختلاف المدن واختلاف مواقف روما منها. ولكن القاعدة العامة كانت تتضمن مبدأين أساسيين : الحد من سيادة المدينة بحيث تصبح كمحمية لروما، ومقابل ذلك تتمتع باستقلالها الذاتي وبمؤسساتها الخاصة.

وسواء تعلق الأمر بالنوع الأول أو الثاني، فهذا التمييز يبقى في نهاية المطاف رمزيا، باعتبار أن روما لا تسمح لأي منهما بالقيام بأي نشاط أو مبادرة تعبر عن استقلال وطني. فقد كان على كل تلك المدن أن تساهم في جهود روما الحربية عن طريق اعداد قوة بحرية (بواخر و بحارة) بالنسبة للمدن الساحلية (وجلها مستعمرات اغريقية)، أو بتقديم قدر من المال وعدد معين من الرجال. وكانت الواجبات المفروضة على كل مدينة محددة في لائحة تدعى formula tagatorum وهي التي تعين الواجبات التي على كل مدينة دفعها لروما بناء على مبدأ التناوب الدوري *(كل أربع سنوات)*.

وهكذا تم تنظيم السيطرة الرومانية على إيطالية بطريقتين مختلفتين نتج عنهما في نهاية المطاف كتلتين مختلفتين من حيث وضعيتهما القانونية والسياسية ازاء روما. فمقابل المركز الذي تمثله الأراضي الرومانية Ager romanus المقسمة إلى 35 قبيلة التي ضمت اليها الشعوب والمدن التي منح افرادها حق المواطنة الجزئية في انتظار ادماجها التدريجي، نجد الهامش المكون من المدن المتحالفة ومن المستعمرات اللاتينية التي كانت مضطرة رغم استقلالها الاداري إلى دفع الضرائب وتجنيد الجيش دون أن تتمع بحقوق المواطنة الكاملة. ومن هذين العنصرين تشكلت القوة العسكرية الرومانية خلال القرن الثالث قبل الميلاد بشكل باتت معه قادرة على مواصلة التوسع خارج حدود شبه جزيرة إيطالية. ولكن قبل أن نتطرق لهذا الجانب من المسيرة الرومانية لا بد وأن نتساءل عن نوعية الدولة التي أفرزتها صراعات الفترة الأولى من العهد الجمهوري والتي كان عليها أن تسير شؤون هذه البلاد الكبيرة والمعقدة وأن تقود مسيرة الفتح.

الفصل الرابع

الدولة والمجتمع الرومانيان خلال القرن الثالث قبل الميلاد

1 . مكونات المجتمع الروماني (المواطنة)

لقد تكونت المؤسسات الرومانية تدريجيا خلال العقود الأولى للعهد الجمهوري في جو مشحون بالصراعات الداخلية والخارجية على السواء. والدستور الذي تمخض عن جملة الاصلاحات أو التعديلات التي أدخلت خلال القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد كان يشبه في بعض جوانبه دساتير دويلات المدن الاغريقية : فقد كان هذا الدستور يرتكز كما هو الشأن بالنسبة لأثينا مثلا على مبدإ تقسيم السلط بين الشعب ممثلا في مجالسه، والحكام المنتخبين الذين يمارسون مهامهم بشكل جماعي لمدة محدودة، ومجلس استشاري أعلى (مجلس الشيوخ). ورغم هذا التشابه، فان المؤسسات الرومانية تختلف كثيرا في روحها عن المؤسسات الاغريقية. ذلك أن هذه المؤسسات هي في الوقت نفسه أقرب إلى النظام الاوليغارشي بالمقارنة مع الدستور الأثيني مثلا الذي كان أكثر ديموقراطية نتيجة للدور الكبير الذي تلعبه مجالس الشعب في تخطيط السياسة العامة، وأقرب إلى النظام الديموقراطي إذا ما قورنت بالنظام الاسبارطي على سبيل المثال. ان هذا التعقيد هو الذي يجعل تحديد هوية النظام الجمهوري في روما أمرا صعبا. وهنا تكمن خصوصية هذا النظام.

لكن هذه المقارنة ستصبح دون معنى إذا لم نأخذ بعين الاعتبار نقطتين أساسيتين تميزت بهما روما عن دويلات المدن الإغريقية : أولاهما أن روما كانت تسيطر خلال القرن الثالث قبل الميلاد على أراض شاسعة تجاوزت بكثير مساحة دويلات المدن الاغريقية، بل حتى مساحة أثينا في الوقت الذي كانت فيه هذه الأخيرة تتزعم عصبة ديلوس. ولا شك أن تسيير هذه المناطق الايطالية كان يفرض حتما تطوير المؤسسات التقليدية بشكل يتجاوب مع الضرورات السياسية والادارية الجديدة. وثانيتهما كون روما عرفت ظهور طبقة جديدة (النبلاء Nobilitas) التي لم تحتكر فقط ادارة الشؤون السياسية ولكن أيضا مغانم وفوائد التوسع في ايطاليا.

وحتى يتسنى لنا فهم المؤسسات السياسية الرومانية لا بد من القاء بعض الضوء على أسس النظام الاجتماعي.

فكما هو الشأن في أغلب المجتمعات القديمة، نميز في روما بين ثلاث فئات من السكان :

ـــ المواطنون الذين يتمتعون بكل الحقوق.

ـــ العبيد الذين يعتبرون كأدوات تخدم مصالح المواطنين وبالتالي فهم محرومون من كل الحقوق.

ـــ ثم فئة من السكان وسيطة بين الفئتين المذكورتين لأن أفرادها يتمتعون بالحرية ولكنهم لا يحصلون على الحقوق التي يتمتع بها المواطن. انها فئة أجنبية عن المدينة بمفهومها السياسي.

ولا تهمنا من هذه الفئات الثلاث إلا الفئة الأولى التي تشارك قانونيا في اقامة قواعد الدولة الرومانية. ففيها يتميز المواطن بكونه يتمتع بأربعة حقوق أساسية تشمل الجانب المدني والسياسي وهي التي تجعل منه مواطنا بكل ما تحمله الكلمة من معنى :

حق ربط علاقة زواج شرعية مع مواطنة رومانية conubium .

حق الملكية: commercium كان هذا الحق يعني في بداية الأمر الحق في امتلاك العقار غير أن مفهومه توسع فيما بعد نتيجة التطور الاقتصادي فأصبح يعني حق التصرف كمواطن أي أنه يخول لصاحبه امكانية البيع والشراء والملكية ورفع القضايا أمام المحاكم وترك الوصية. . .

حق الانتخاب jus suffragii ويشمل حق المشاركة في الحياة السياسية في روما بشقيها : حق التصويت في المجالس وحق الترشيح لممارسة مهام الدولة.

حق طلب معونة الشعب : provocatio ad populum ويخول لصاحبه أن يطلب من مجلس الشعب أن يبت في قضيته إذا ما تعرض لتعسف من قبل الحكام.

تلك إذن هي الحقوق السامية للمواطن الروماني optimo iure. ولكن لا ننسى أن هناك فئة من المواطنين تعرضنا لها فيما سبق لا تتمتع الا بالحقوق الدنيا أو الجزئية minuto iure أي الحقوق المدنية دون الحقوق السياسية sino suffragio وان كانت هذه الوضعية على العموم عبارة عن مرحلة انتقالية في طريق الحصول على حقوق المواطنة الكاملة.

إن صفة المواطنة هي التي تحدد الانتماء أو عدم الانتماء للشعب الروماني. فالشعب الروماني من حيث المفهوم القانوني للكلمة هو مجموع المواطنين الرومانيين. ولم يكن هناك أي قانون يحدد الطريقة التي يصبح بها الشخص مواطنا رومانيا. أي أن القانون الروماني لم يفرض شروطا مسبقة للحصول على المواطنة كما هو الحال في أثينا مثلا حيث

أصبح الحصول على حق المواطنة رهينا بثلاثة شروط أساسية : أن يكون الأبوان من أصل أثيني، أن يبلغ 18 سنة وأن يكون مسجلا على لوائح الديم (القرية) dème. ولذلك عرفت روما تزايدا مستمرا في أعداد المواطنين نظرا للمرونة التي عرفها قانون المواطنة بها الذي كان يبيح تخويل صفة مواطن للأجانب. ثم يجب أن لاننسى أن المعاهدات التي وقعت مع المدن أو الشعوب التي مُنحت الحق اللاتيني كانت تسمح لهؤلاء بأن يصبحوا مواطنين رومانيين إذا ما اختاروا الاستقرار في روما. ثم ان حكام هذه المدن يصبحون مواطنين رومانيين بمجرد توليهم مهام الحكم والادارة في مدنهم.

ولكن إذا كان بامكان الشخص أن يصبح مواطنا فان بامكانه أيضا أن يفقد حقوق مواطنته. ولكن القانون الروماني يعتبر أن فقدان حقوق المواطنة يتم بشكل ارادي : فمثلا الأشخاص الذين يصبحون مواطنين في مدن أخرى غير رومانية يفقدون مباشرة حقوق المواطنة الرومانية. ذلك شأن المواطنين الذين كانوا يقطنون روما ثم فضلوا لأسباب اقتصادية أن يستقروا في احدى المستعمرات اللاتينية. انذاك، تسقط عنهم المواطنة الرومانية ولا يحتفظون الا بالحقوق اللاتينية مثلهم في ذلك مثل باقي سكان المستعمرة. ثم ان الذين صدرت في حقهم أحكام في القضايا التي تهم الامتناع عن الخدمة العسكرية أوالخضوع للزوميات الاحصاء الخماسي (أي أداء الضرائب) تنزع عنهم حقوق المواطنة، بل ويفقدون حريتهم اذ يتم بيعهم في سوق النخاسة. وذلك لأن القانون الروماني يعتبرهم أشخاصا متملصين من واجبات التضامن الذي يفرضه العيش في المدينة والدفاع عنها بمحض إرادتهم. ثم ان الذين يختارون النفي عوض الخضوع للعقوبات القضائية يعتبرون أيضا كأشخاص اختاروا التنازل عن حقوق مواطنتهم.

ما هي الطريقة العادية التي يصبح بواسطتها الشخص مواطنا؟

يكون الشخص مواطنا إذا ولد في روما. فكل طفل ولد من زواج شرعي من أب روماني وأم تتوفر على حق الزواج conubium الذي يسمح لها بعقد قران شرعي يطابق الشروط التي يضعها القانون الروماني iustum matrimonium أو legitimum matrimonium يعتبر مواطنا. ويمكن أيضا للشخص أن يصبح مواطنا رومانيا إذا توفرت فيه بعض الشروط أو إذا تم تحريره إذا كان عبدا. فالمعتقون يحصلون مباشرة بعد تحريرهم على حقوق المواطنة وان كان العرف السائد لا يسمح لهم بالتمتع عمليا بالحقوق السياسية. وقد دأبت روما على تخويل حقوق المواطنة للأفراد والجماعات (مدن أو شعوب). وتجدر الاشارة إلى أن تخويل صفة مواطن لفرد ما خلال الفترة الجمهورية يعتبر منحة شخصية، أي أنها لا تسري على كل أفراد أسرته.

إن المواطنين هم سادة روما والأراضي الرومانية ager romanus. وصفة «مواطن» تجسد عمليا بالتسجيل في قوائم الاحصاء الذي ينظم مرة كل خمس سنوات، وفي قوائم القبائل الرومانية. فذلك شرط أساسي تصبح بموجبه صفة المواطنة رسمية. ومن خلال بعض الأرقام التي نجدها في كتابات بعض المؤرخين القدماء وخصوصا عند تيتوس ليفوس يبدو واضحا أن عدد المواطنين قد ارتفع بشكل ملحوظ وذلك بفعل ادماج بعض المدن والقبائل الايطالية في روما ومنح افرادها حقوق المواطنة. وهكذا أخذ عدد المواطنين المقيمين خارج روما يتكاثر. ورغم ذلك فان هؤلاء المواطنين لا يمكنهم ممارسة حقوقهم السياسية كحق الانتخاب مثلا الا إذا كانوا حاضرين بروما. ولذلك فان جزءا من المواطنين الذين يشكلون الشعب الروماني بمفهومه القانوني هو الذي كان يساهم فعليا في الحياة السياسية.

ولقد رأينا من قبل أن الفرق بين البطاركة والعوام كان قد اندثر منذ أن تمكن العوام من الحصول على مجمل الحقوق الاجتماعية والسياسية التي ناضلوا من أجلها مدة تزيد عن قرن ونصف. ورغم أن العوام قد نجحوا من وجهة النظر القانونية في فرض مبدإ المساواة السياسية فان بعض المهام الدينية أو بعض المناصب والمسؤوليات داخل مجلس الشيوخ قد ظلت حكرا على البطاركة. غير أن تراجع هذا الفرق بين الطبقتين لم يؤد إلى اقامة مجتمع ديموقراطي، بل انه خلق تقسيما جديدا مبنيا على الثروة وليس على الأصل كما في السابق وتميزت فيه طبقة النبلاء التي احتكرت المناصب العليا في الدولة ووجهت سياستها العامة طيلة الفترة الجمهورية.

فمن هو النبيل؟

انه ذلك الشخص الذي ينتمي إلى وسط عائلي متميز بثرائه المادي وبمركزه السياسي الذي تجسده ممارسة أحد أفراده احدى المهام العليا في الدولة. أما الذي يتمكن بفضل امكاناته الذاتية من الوصول إلى ممارسة احدى هذه المهام دون أن يكون أحد أفراد عائلته قد سبقه اليها فيدعى بالرجل الجديد homo nuuos. وتمكنه ممارسة هذه المهمة من الدخول هو وأسرته في طبقة النبلاء. وطبعا فداخل هذه الطبقة لم يعد للتقسيم السابق بين البطاركة والعوام أي معنى، ذلك أن أفرادها ينتمون في أصولهم إلى الطبقتين اللتين اختلطتا بفعل علاقات الزواج. في البداية كانت هذه الطبقة مفتوحة في وجه كل الذين يملكون ما يكفي من الثروة والمال للدخول في عالم السياسة ومباشرة مهام الدولة الا أنها أخذت منذ نهاية القرن الثالث قبل الميلاد في الانغلاق على نفسها قصد الحفاظ على مكاسبها السياسية. وقد تميزت في اطارها بعض الأسر التي تمكنت بفعل أموالها وقيامها بمسؤوليات هامة في الدولة لفترة طويلة من التأثير على الحياة السياسية في روما (عائلة Cornelii Scipiones مثلا).

فضلا عن هذه الطبقة العليا في المجتمع هناك تراتب تدريجي نظمه منذ قرون الدستور السنتوري الذي رأيناه من قبل والذي وضع على رأسه طبقة أولى تميزت فيها فئة الفرسان.

ومن هذه الفئة تكون النبلاء. ولكن ذلك لا يعني أن الانتماء إلى الفئة الأولى أو إلى فرقة الفرسان equites يؤدي حتما إلى الانتماء لطبقة النبلاء. فعلينا أن نفرق بين الطبقتين : فالنبلاء طبقة سياسية بينما الفرسان وباقي أفراد الفئة الأولى في التقسيم السنتوري طبقة اجتماعية.

وفي مقابل هؤلاء وأولئك نجد العامة أو العوام. لكن مفهوم هذا المصطلح كان قد تغير اذ أصبح يطلق على كل المواطنين الذين لا ينتمون إلى الطبقة العليا. فهم يشكلون الطبقة الشعبية في روما. وكان العوام يقسمون إلى فئتين حسب انتمائهم الجغرافي : فهناك العوام الحضريون الذين يقطنون روما والعوام البدويون الذين يشكلون في واقع الأمر طبقة متوسطة مادامت هذه الفئة مشكلة من صغار الملاكين. ان كل أفراد هذه الطبقات كانوا يساهمون كل حسب مرتبته وموقعه في السلم الاجتماعي في حياة روما السياسية وفي تسيير أجهزة الدولة.

2- المؤسسات الجمهورية

ان الحياة العامة في روما وتسيير الدولة كانت تخضع لمبدإ تعاقدي. ذلك أن لكل من المؤسسات الثلاث التي تتولى الاشراف على تسيير أمور الدولة (مجلس الشعب، الحكام، مجلس الشيوخ) اختصاصات لا يمكن تجاوزها. ويعتبر الدستور الروماني دستورا «مُرَكَّباً» constitution mixte يجمع بين عناصر تنتمي إلى ثلاثة نظم عرفتها المجتمعات المتوسطية القديمة : الملكية، الاوليغارشية والديموقراطية. ولقد عبر بوليبيوس عن هذا الاختلاط والانسجام في آن واحد بين الأنظمة الثلاثة حينما كتب : «حينما ننظر إلى سلطات القناصل، يبدو النظام ملكيا للغاية ، غير أنه من خلال اعتبارنا لسلطة مجلس الشيوخ ، يبدو هذه المرة و كأنه نظام حكم أرستقراطي . وإذا نظرنا الآن لسلطة الشعب ، فيبدو واضحا أنه ديمقراطي. . . »[1] . وبالفعل كان الدستور الروماني يتضمن عناصر من نظم الحكم الثلاثة التي تتعايش في توازن تام.

لم يكن في روما دستور مكتوب يحدد اختصاصات كل مؤسسة ولكن كانت هناك جملة من القواعد والأعراف التي كانت تتطور محترمة تقاليد الأجداد (mos majorum) ومبدأ سيادة الشعب الروماني الذي كان يأخذ معناه السياسي في اطار مجالسه.

أ. المجالس الشعبية (comitia)

حينما وصف بوليبيوس سلطات الشعب قال بأنه «سيد العقوبات» أي أنه هو الذي يصدر الأحكام في القضايا الكبرى، و«سيد الجزاء أو المكافأة» وهو يقصد بذلك سلطته في

[1] - أنظر الملحق، ص.

انتخاب الحكام، ثم إنه هو الذي يصوت على القوانين ويوافق على إعلان الحرب وعقد السلم. انطلاقا من ذلك يمكن تلخيص سلطات الشعب في كونها انتخابية وتشريعية وقضائية. إذن فبإمكان الشعب أن يعبر عن إرادته وأن يساهم بفعالية في إدارة شؤون الحياة العامة. ولكن القانون يضع حدودا لمبادرات المجالس الشعبية. فلا يمكن للشعب أن يتحرك ويجتمع ويتخذ القرارات بمفرده. اذ عليه أن ينتظر الدعوة للاجتماع. وإذا لم يستدعه أحد للاجتماع فلا رأي له ولا قرار. والذين لهم الحق في استدعاء المجالس للاجتماع هم بعض الحكام فقط[2].

إذن لا يمكن للشعب أن يعبر عن مواقفه إلا في إطار مجالسه. ولكن يجب التنبيه إلى أنه حينما نقول إن الشعب الروماني قد اجتمع لا نقصد بذلك أن كل المواطنين الرومانيين الذين يشكلون الشعب الروماني قد اجتمعوا للبت في قضية ما ولكن قسما منهم فقط. وهذا القسم لا يمكنه أن يجتمع الا في اطار وحداته التي ينتمي اليها والتي اما أن تكون سنتورات أو كوريات أو قبائل. ولهذا فالقرار الصادر عن مجلس من المجالس لا يمثل قرار أغلبية الشعب الروماني ولكن قرار أغلبية الأصوات التي عبرت عنها الوحدات المذكورة.

إن أهم خصوصيات الدستور الروماني تكمن في تعددية واختلاف المجالس الشعبية. فهي متعددة لأننا نجد على الأقل ثلاثة مجالس شعبية. وهي مختلفة لأن لكل منها خصوصياته من حيث تكوينه وتنظيمه وتسييره واختصاصاته.

ــ مجلس الكوريات : comitia curiata

لقد رأينا في السابق أن أصول هذا المجلس تعود إلى الفترة الملكية حيث كان المواطنون الرومانيون مقسمين على وحدات تدعى كوريات وعددها ثلاثون. غير أنه خلال العهد الجمهوري تراجع دور هذا المجلس أمام المجالس الشعبية الأخرى. بل ان المواطنين أنفسهم لم يعودوا يجتمعون في الكوريات اذ تم تعويضهم بثلاثين فائسا. ولقد اصبحت له قيمة شكلية باعتبار أنه من بقايا التقليد القديم. فنادرا ما كان يجتمع تحت رئاسة الكاهن الأعظم لاتخاذ بعض الاجراءات أو القرارات الشكلية كإقرار عملية التبني adrogatio[3] أو التصويت على قانون تخويل السلط للحكام الجدد. ذلك أن الحكام الذين يتم انتخابهم كل سنة لا يمكنهم ممارسة مهامهم الا بعد التصويت على هذا القانون الذي كان يكتسي صبغة قانونية

[2] – القنصل والبرايطور ونقيب العوام.

[3] – أي تبني رب أسرة معينة لعائلة أخرى. فالعائلة الرومانية وخصوصا تلك التي تنتمي للعشائر الأصلية التي تكون مهددة بالانقراض نتيجة فقرها بامكانها أن تطلب من عائلة قوية وغنية أن تتبناها. وكان ذلك يؤدي بالعائلة الفقيرة إلى الدخول تحت سلطة أب الأسرة التي تبنتها. ولكن هذه العملية لا تصبح سارية المفعول الا بعد الحصول على موافقة مجلس الكوريات.

خاصة باعتباره يجعل سلطات هؤلاء الحكام فعلية. لكن هذه العملية تبقى مجرد طقس سياسي شكلي كما هو الشأن بالنسبة للتصويت على سلطة الملك في العهود الأولى ولكنها ضرورية ليتمكن الحكام من مزاولة مهامهم بشكل طبيعي ولكي تأخذ سلطاتهم مضمونها الحقيقي. أما من الناحية الدينية فقد كان المجلس يشرف على تعيين ملك المقدس وكبار الكهان.

ـــ مجلس السنتورات أو المجالس المئوية comitia centuriata

إنه أهم مجلس شعبي في روما وربما الوحيد الذي كانت له السيادة الفعلية. لقد رأينا في فصل سابق أن الرواية التاريخية تنسب انشاء هذا المجلس إلى الملك سيرفيوس توليوس على اثر الاصلاحات التي أدخلها على نظام الدولة والمجتمع في روما والتي كانت تقوم على أساس احصاء ثروة المواطنين census. ان هذا المجلس هو في واقع الأمر التعبير السياسي للاصلاحات الاجتماعية السيرفية التي أعادت تنظيم المجتمع بتقسيمه إلى خمس طبقات متفاوتة الثروات والتي قسمت بدورها إلى عدد من الوحدات المئوية التي تدعى «سنتورات» centuries. فالعلاقة بين هذا المجلس وبين النظام المالي والعسكري لروما هي علاقة وطيدة، باعتبار أن الأساس الذي يحدد مساهمات كل فرد في هذا النظام هو انتماؤه لهذه الطبقة أو تلك. وكان الانتماء إلى احدى هذه الطبقات الخمس يحدد في لوائح الاحصاء التي يتم اعدادها من قبل الكنسور مرة كل خمس سنوات.

إن نظام السنتورات هو بمثابة اطار تتراتب فيه الوحدات ذات الاعداد المحددة بشكل قار والتي يوزع فيها المواطنون بشكل غير متساو. إن الهدف من هذا الاطار هو الحصول على «توزيع عادل» للمساهمات في ميدان المالية والجيش على المواطنين. فكل سنتورة لها نفس القيمة بالمقارنة مع باقي السنتورات وكلما قل عدد المواطنين المسجلين فيها الا وكانوا أغنياء والعكس صحيح، ذلك يعني أنه كان على كل وحدة أن تقدم نفس الواجبات المالية والسياسية والعسكرية : أي عددا معينا من الجنود (100)، وضريبة مباشرة موحدة وصوتا واحدا في المجالس. إن مبادئ التنظيم السنتوري بسيطة وواضحة : فكل المواطنين الذكور البالغين يوزعون على الطبقات الخمسة حسب مقدار ثرواتهم census التي يقدرها الكنسور أثناء الاحصاء بناء على تصريحاتهم، وداخل كل طبقة يوزع المواطنون على عدد محدد من السنتورات حسب سنهم كما رأينا ذلك من قبل. وما دامت عملية التصويت تتم حسب نظام تراتبي حيث تصوت الطبقة الأولى ثم بعدها الطبقات الاخرى فإن هذا النظام قد حبك بشكل يوفر الأغلبية لسنتورات الطبقة الأولى المكونة من الأغنياء (أي الأرستقراطية) التي تملك 98 سنتورة. وداخل الطبقة الأولى كانت الأولوية في التصويت تعطى لسنتورات الفرسان الثمان عشرة على أن يتم تعيين أول السنتورات المصوتة عن طريق القرعة.

ويعتقد بعض الباحثين أن تعديلات ما قد تم ادخالها على هذا النظام لاضفاء طابع «ديموقراطي» عليه قبل سنة 123 ق. م. فقد تم تقليص عدد سنتورات الطبقة الاولى التي أصبحت تضم 70 سنتورة فقط الشيء الذي لم يعد يوفر للطبقة الأولى أغلبية الأصوات، وبالتالي سمح لسنتورات الطبقة الثانية بالمشاركة في عملية التصويت. كما افترض البعض أنه تم ادماج سنتورات الطبقة الأولى في التنظيم القبلي بحيث ان السنتورات السبعين المكونة للطبقة الأولى تشكلت داخل القبائل الخمس والثلاثين (أي سنتورتان داخل كل قبيلة). لكن هذه الاصلاحات ما زالت غامضة وكل الآراء التي تتعلق بها ما زالت مجرد فرضيات. وعلى كل حال فان أهم اصلاح ادخل على النظام السنتوري، وبالتالي على مجلس السنتورات، وقع في مطلع العهد الميلادي (سنة 5 بعد الميلاد).

ان اختصاصات هذا المجلس تشمل جوانب انتخابية وتشريعية وقضائية :

1- من أهم اختصاصات مجلس السنتورات انتخاب الحكام الكبار أي القناصل، والبرايتورات (القضاة) والكنسورات.

2 - كما أنها تصوت على القوانين ولكنها لا تملك حق المبادرة في اصدار قانون ولا حق تعديله. غير أن هذه المجالس فقدت أهميتها كمؤسسة تشريعية منذ نهاية القرن الثالث قبل الميلاد. فلم تثبت المصادر سوى ثلاث حالات صوتت فيها هذه المجالس على مشاريع قوانين خلال القرن الأول قبل الميلاد[4].

3 - ثم إن هذه المجالس كانت تساهم في اتخاذ القرارات الخاصة باعلان الحرب أو بعقد معاهدات السلام عن طريق المصادقة على قرارات مجلس الشيوخ. غير انها كانت في بعض الأحيان تنافس مجلس الشيوخ في هذا الاختصاص[5].

4 - أما دورها القضائي فقد كان يتمثل أساسا في اصدار الأحكام المتعلقة بالقضايا الجنائية الكبرى كمقتل أحد الشيوخ أو الخيانة العظمى. كما أنها كانت تتدخل في «القضاء المضاد» خصوصا عندما يتعلق الأمر بتلقيها لطلب العون من أحد المواطنين provocatio ad populum الذي يكون مهددا بالاعدام أو النفي بمقتضى حكم صادر عن أحد الحكام.

تلك إذن هي أهم السلطات التي كانت تتمتع بها المجالس السنتورية. ورغم انها تبدو واسعة الا انها كانت محدودة بفعل الطريقة التي كانت تجتمع بها هذه المجالس. فقد نبهنا إلى كونها لا تملك حق المبادرة، أي أنها لا تجتمع الا إذا استدعاها أحد الحكام للاجتماع.

[4] - مشروع قانون يقضي برجوع شيشيرون من المنفى سنة 57 ق م. ، قانون كورنيليا الذي منح حق المواطنة لفولتراي Volaterrae في 82 ق. م. وبعض مشاريع القوانين التي أعدها قيصر في 46 ق. م.

[5] - اتخذت قرارا باعلان الحرب مرتين ضد مقدونيا سنة 200 ق. م. و 46 ق. م.

وكان هذا الاستدعاء يخضع لأعراف وقواعد تجعل من الحاكم الشخص الذي يتحكم في سير أعمالها. فهو يقوم باستشارة الآلهة عن طريق ضرب الفأل ليرى إذا كانت هذه الأخيرة موافقة أو لا على عقد الاجتماع، ثم بعد استدعاء المجالس يتولى الحاكم رئاسة الجلسات. فإذا كان الغرض من الاجتماع انتخابيا، يقدم المرشحون ثم تتم عملية التصويت ثم ينفض الجمع. أما إذا كان غير ذلك فان الرئيس يلقي خطابا يشرح فيه سبب الاجتماع ثم يستمع المجلس لبعض الخطباء الذين يهيئون قبل الاجتماع خطبهم ثم يمر المجتمعون دون اي نقاش إلى اتخاذ القرار عن طريق التصويت. وكان بإمكان الرئيس أن يرفع الجلسة متى شاء، فما عليه الا أن يخبر الجميع بأن الآلهة غير راضية على استمرار الاجتماع. أليس هو الوحيد القادر بحكم تمتعه بالأمبريوم على تأويل مشيئة الآلهة؟

ـ المجالس القبلية comitia tributa

إنها المجالس التي يجتمع فيها المواطنون حسب انتماءاتهم القبلية. فالعلاقة بين المواطنة والانتماء إلى قبيلة من القبائل الرومانية وطيدة جدا. بل إن إشهار الانتماء إلى قبيلة معينة هو جزء من هوية المواطن. لذلك جرت العادة على أن يذكر المواطن قبيلته مباشرة بعد ذكر اسمه واسم عائلته ولقبه. ولقد رأينا في السابق أن التقسيم إلى قبائل يرجع إلى الفترة الملكية وأن هذه القبائل كانت بمثابة دوائر ترابية، لكن خلال العهد الجمهوري أصبح الكنسور هو المكلف بتسجيل المواطنين وتوزيعهم على قائمة القبائل. ولم تعد هذه القبائل عبارة عن دوائر ترابية بالضرورة بل إطارا بشريا. ذلك أنه لم تعد هناك أية علاقة بين التسجيل في قبيلة ما ومحل سكنى المسجل أو أصله العرقي. فقد كانت القبائل الحضرية مثلا مخصصة لتسجيل المعتقين وأبنائهم عندما يحصلون على حقوق المواطنة في حين أن العديد من أغنياء المدينة كانوا يسجلون في قبائل بدوية. ثم ان الذين حصلوا على حقوق المواطنة بعد أن توقفت روما عن خلق قبائل جديدة حشروا في القبائل التي كانت موجودة من قبل. بل اننا نجد في بعض الأحيان أن الأب والابن قد سجل كل منهما في قبيلة. وقد كان الكنسور هو المشرف على عملية التسجيل وهو الذي يقرر في الحاق هذا المواطن بهذه القبيلة أو تلك. غير أنه غالبا ما كان يبني قراره على تصريح المواطن باعتبار أن هذا الأخير كان عادة يحافظ على القبيلة التي سجل بها والده. لكن العرف الذي ظل سائدا لدى الكنسورات هو تسجيل الفقراء والمعتقين في القبائل الحضرية الأربع أما الأغنياء فيسجلون في القبائل القروية وان كانوا يقطنون روما[6].

---

[6] – كان الهدف من ذلك سياسيا. فقد عمدوا إلى تجميعهم في تلك القبائل لكي يتمكنوا من الحد من نفوذهم داخل المجالس خصوصا اذا تعلق الأمر بالتصويت على قرار ما.

وحينما تنعقد المجالس القبلية فاننا لا نجد ترتيبا مشابها لذلك الذي نعرفه عند مجلس السنتورات ولا حق الأولوية الذي تتمتع به سنتورات الطبقة الاولى. بل ان هذه المجالس هي أكثر شعبية من سابقتها لأن كل المواطنين يتقدمون للتصويت دون أي تراتب يذكر. غير ان الأصوات المعبر عنها ليست هي أصوات الأفراد ولكن أصوات القبيلة. ذلك أن الأغلبية تتحقق بثمانية عشر صوتا من أصل خمسة وثلاثين يمثل العدد الاجمالي للقبائل. وتتوقف عملية التصويت عندما تتوفر الأغلبية.

ما هي اختصاصات هذه المجالس؟ انها كسابقتها تشمل الجوانب الانتخابية والتشريعية والقضائية. فهي تقوم بانتخاب الحكام المرشحين للمناصب الدنيا وتصوت على مشاريع القوانين خصوصا تلك التي يعدها نقباء العوام وهي مهمة أصبحت تشكل النشاط الأساسي لهذه المجالس خلال القرنين الأخيرين من العهد الجمهوري. وكان من اختصاصها أيضا النظر في القضايا التي يرفعها المواطنون ضد الحكام الذين أصدروا في حقهم أحكاما أقل قسوة من تلك التي تبت فيها المجالس السنتورية (حكم بغرامة مالية مثلا).

ـ مجمع العوام :

إن وجود هذا المجلس أو عدم وجوده في الفترة التي تلت نهاية الصراع بين البطاركة والعوام يشكل محور جدل عميق بين الباحثين. فقد رأينا أن العوام قد أسسوا هذا المجمع اثناء عصيانهم الأول (494 ق. م.) وجعلوه خاصا بهم. ففي اطاره كانوا ينتخبون نقباءهم ويتخذون القرارات التي تلزمهم (قوانين العوام plebescites). وفيما بعد نرى ظهور مجلس آخر يجتمع فيه كل المواطنين حسب انتماءاتهم القبلية، تماما كما هو الشأن في مجمع العوام، وليس حسب الثروة والانتماءات الطبقية كما كان معمولا به في مجلس السنتورات. وانطلاقا من هذه الملاحظة، بالاضافة إلى كون قانون هرتونسيا Hortensia الصادر سنة 287 ق. م. كان قد عمم الزامية القوانين الصادرة عن مجامع العوام على كل المواطنين الرومانيين بحيث أصبحت لها قوة القانون، اعتبر بعض الباحثين أن مجمع العوام والمجالس القبلية هما اسمان مختلفان لمؤسسة واحدة وأن اختلاف الاسمين يعبر عن التطور الذي عرفته مجامع العوام بعد 287 ق. م. لكن باحثين آخرين اعتمدوا على كون نقباء العوام ونظار شؤونهم البلدية Aediles ظل يشترط فيهم طيلة العهد الجمهوري الانتماء إلى العوام، وأن العوام وحدهم هم الذين كانوا يقومون بانتخابهم. وما دامت المجالس القبلية تضم كل المواطنين عواما وبطاركة فان هذا الانتخاب لا يمكن أن يتم الا في اطار مجمع العوام. ولذلك يعتبرون مجمع العوام مؤسسة قائمة بذاتها لا علاقة لها بالمجالس القبلية.

غير أنه من الممكن افتراض أن مجمع العوام هو جزء من مجالس القبائل، وأن هذا المجمع لا يتم استدعاؤه الا عندما يتعلق الأمر بانتخاب ممثلي العوام المذكورين. بصيغة أخرى، تجتمع المجالس القبلية دون أن يكون للمواطنين الذين لا ينتمون لفئة العوام حق المشاركة في هذه الاجتماعات التي كانت قد أصبحت نادرة. وعلى كل حال فالعناصر البطركية عرفت تراجعا عدديا كبيرا في الفترات الأخيرة من عهد الجمهورية كما رأينا. فكان من السهل عقد اجتماعات المجالس القبلية لانتخاب ممثلي العوام مع اقصاء البطاركة من عملية التصويت.

ب. الحكام

كما هو الشأن في كل دويلات المدن القديمة، كانت مهام تسيير الشؤون الادارية والسياسية وتنفيذ قرارات المجالس في روما توكل لبعض الافراد. وكان ذلك يفرض تخويل هؤلاء الأفراد بعض السلط التي قد تكون واسعة وقد تكون محدودة حسب المنصب الذي يشغلونه. ان الاسم الذي يطلق على هؤلاء الأفراد هو magistratus الذي نترجمه تجاوزا ب«الحكام». فصفة magister أو magistratus تطلق على الشخص الذي ينتمي إلى جماعة أو مدينة يكون أفرادها متساوين مبدئيا في الحقوق ثم يتميز عنهم لأنه يصبح أقوى وأهم من غيره. ان السلطة التي يتمتع بها الحاكم و التي ترفعه إلى هذه المرتبة مصدرها الشعب الذي يخولها له عن طريق الانتخاب. وعلى العكس من أثينا حيث تبقى سلط الحاكم بعد انتخابه رهينة بموقف الشعب منه، فان الحاكم في روما كان يكتسب سلطه من الشعب ولكنه يصبح مستقلا عنه طيلة المدة التي يمارس فيها مهامه. ورغم ذلك فهو ليس مطلق السلطة، وليس متعسفا أو جائرا لانه كان يمارس السلطة لما فيه خير الجماعة الرومانية كلها. فإذا كان القانون يمتعه بسلطات ما فانه يفرض عليه القيام بوظيفة أو وظائف متعددة. ولقد وضح شيشيرون هذه الأسس المبدئية حينما قال بان على الحاكم أن يدير شؤون المدينة وأن عليه أن يعمل قدر المستطاع من أجل الرفع من قدرها وهيبتها. ولكن عليه أيضا أن يحترم قوانينها وأن لا ينسى أن مصالح المدينة قد أوكلت اليه.

إن نظام الحكام قد ظهر وتطور بعد انهيار النظام الملكي. ولم يكن هناك أي قانون أو دستور مكتوب منظم لهذه الوظائف. فقد رأينا أن ظهورها كان نتيجة صراع حاد بين أفراد طبقتي العوام والبطاركة. الا أنه كانت هناك أعراف سائدة يتم بمقتضاها تأمين انتخاب الحكام.

ولكي نتمكن من استيعاب دور الحكام في الدولة ومهامهم واختصاصاتهم لا بد من التعرض لمفهوم السلطة في القانون العام الروماني باعتباره عنصرا أساسيا يحدد طبيعة الوظائف الرسمية.

يفرق القانون الروماني بين نوعين من السلط :سلطة القيادة العليا imperium والسلطة الإدارية الدنيا potestas[7]. فسلطة القيادة العليا imperium التي سبق لنا أن تعرضنا لها تخول للحكام الكبار عكس السلطة الدنيا التي تخول للحكام الصغار. وطبيعي أن يملك الحكام الكبار السلطة الدنيا أيضا. أما سلطة القيادة العليا فهي تشمل السلطة المدنية والعسكرية والقضائية والزجرية (أو سلطة العقاب). فصاحب هذه السلطة يتمتع وحده بحق قيادة الجيوش أثناء الحملات العسكرية. ولكي يتمكن من ممارسة هذا الحق منح له حق مباشرة عملية استنهاض الجيوش وتعيين الضباط وفرض الضرائب الحربية. ولصاحب هذا الحق وحده الحق في تخليد الانتصار حيث يلقب خلال مدة الاحتفال ب«الامبراطور» imperator[8] الذي كان خاصا بالاله جوبيتر Jupiter. ثم انه كان يملك سلطة مطلقة على الجنود بما فيها الحق في الحكم على الجندي بالاعدام دون الرجوع للمجالس الشعبية. غير أنه لا يمارس سلطاته العسكرية الا خارج أسوار المدينة تبعا لتقليد قديم جعل من أسوار المدينة بقعة مقدسة لا يجوز حمل السلاح فيها. ولذلك وجب التمييز بين سلطات الحاكم العسكرية imperium militiae التي لا يمكن أن تمارس الا خارج المدينة وسلطاته المدنية imperium domi التي يمارسها داخل المدينة. وتشمل هذه الأخيرة الحق في محاكمة القضايا الجنائية والمدنية، والحق في معاقبة الجناة، والحق في استدعاء المجالس ورئاستها والاشراف على عمليات التصويت، والحق في إصدار المراسيم. . . ومن جملة الحقوق التي يتمتع بها هذا الصنف من الحكام والتي تضفي على سلطاتهم طابعا دينيا مقدسا حقهم في مباشرة العمليات الخاصة باستشارة الآلهة (ضرب الفأل) وتأويل إرادتها سواء داخل أو خارج حدود المدينة. ولذلك يمكن القول بان هذا الحاكم كان يتمتع بجملة الحقوق التي كانت للملك في العهد السابق.

أما السلطة الادارية الدنيا فهي تعني في مفهومها العام السلطة التي يملكها شخص ما على شخص آخر أو على أملاك ما. فمثلا رب الأسرة في روما كان يملك السلطة الأبوية patria potestas التي تخول له التصرف كما شاء في أملاكه بما فيها زوجاته وأبناؤه. أما بالنسبة للحكام فهي تخول لهم الحق في إصدار تعليمات تهم ادارة شؤون المدينة كل في مجال اختصاصه والتي تصبح ملزمة للمواطنين. كما تخول لهم الحق في ممارسة سلطة الاكراه لضمان احترام تنفيذ التعليمات ومحاكمة بعض القضايا المتواضعة التي لا يتجاوز فيها الحكم غرامة مالية صغيرة. إذن هي مجرد سلطات إدارية لا ترقى إلى مستوى السلطات المخولة للحكام الكبار. ولكن الحكام الكبار والصغار يشكلون معا الجهاز التنفيذي.

---

[7] - لا بد من التنبيه إلى أنه من الصعب ايجاد مرادفات لهذه المصطلحات اللاتينية باللغة العربية

[8] - وهو اسم مشتق من impero وهو فعل «قاد».

خصوصيات الوظائف الرسمية :

قبل التعرض لهذه الخصوصيات تجدر الإشارة إلى أنه من الممكن اعتماد عدة معايير للتمييز بين مختلف أنواع هذه الوظائف.

ـــ فهناك الوظائف التي تدعى وظائف الشعب الروماني magistratus populi وهي تشمل كل الوظائف باستثناء تلك التي كانت خاصة بالعوام magistratus plebii. ولكن من الناحية القانونية هذه الوظائف هي أيضا وظائف رسمية. فالمعيار هنا تاريخي فقط. وحينما نسمع في الفترة الجمهورية عن الوظائف البطركية مقابل وظائف العوام، فليس المقصود بذلك أن هناك وظائف خاصة بالبطاركة. فقد رأينا انه بعدما حصل العوام على حق الترشيح لكل وظائف الدولة سقط الفرق بين العنصرين. ولكن المقصود من تلك التسمية هو التمييز بين الوظائف التي من حق كل المواطنين ممارستها وتلك التي بقيت خاصة بالعوام.

ـــ ثم هناك معيار آخر يعتمد على أهمية المنصب : فهناك وظائف عليا majores ووظائف دنيا minores.

ـــ ثم هناك وظائف عادية ودائمة أي يتم تعيين أصحابها كل سنة بشكل منتظم، ثم هناك وظائف استثنائية وغير دائمة تحدث بموجب قانون خاص لظروف خاصة (كالديكتاتور أو الحكام العسكريين ذوي السلطات القنصلية). ثم هناك وظائف تحدث مرة واحدة لمعاينة وحل مشكلة ما كمجلس المشرعين العشرة الذين أصدروا قوانين اللوحات الاثنتى عشرة. . .)

ـــ ثم يمكن التمييز بين الوظائف الانتخابية (أي التي يعين فيها المرشحون عن طريق الانتخاب المباشر) والوظائف الغير انتخابية وهي عادة ما تكون استثنائية كالديكتاتور وقائد الخيالة.

ولا بد أيضا من الاشارة إلى أن هناك ثلاثة مبادئ أساسية تحدد جملة الوظائف الرومانية :

السنوية : فمبدئيا ينتخب الحاكم لمدة سنة واحدة. ففي نهاية كل سنة تصبح سلطات الحكام باطلة شرعيا بشكل اوتوماتيكي. وبامكان الحاكم في بعض الحالات -وهي حالات استثنائية ونادرة- أن يستقيل من منصبه ويتخلى عن سلطاته abdicatio إذا كان يرى في ذلك خدمة للصالح العام. ولا يستثنى من التحديد السنوي الا الديكتاتور الذي يعين لمدة قصوى لا تتعدى ستة أشهر والكنسور الذي يمارس وظيفته لمدة ثمانية عشر شهرا وهي المدة اللازمة لإتمام عملية الإحصاء.

غير أن هذه القاعدة كانت تهدد بإحداث قطيعة في مهمة الحكام التي قد تتطلب وقتا يزيد عن السنة. فلنتصور مثلا أن قنصلا من القناصل كان يباشر مهمة قيادة الجيوش في

جبهة من الجبهات ثم تزامن ذلك مع انتهاء مدة ولايته وهو لم ينته بعد من منازلة الأعداء. ولذلك كان على هذا النظام أن يتسم بشيء من المرونة بشكل يسمح للقنصل بمتابعة مهامه رغم انتهاء صلاحية سلطاته على الأقل إلى حين وصول القنصل الجديد الذي سيخلفه في منصبه. وهكذا كان بالامكان تمديد فترة وظيفته زمنيا فيصبح بذلك حاكما مفوضا أو موكلا promagistratus، أي أن مهامه لا تنبثق عن عملية انتخابية ولكن عن تفويض للسلط حتى يتمكن من انهاء مهمته أو من ضمان استمرارية المهمة. وسنعود فيما بعد للحديث بتفصيل أكثر عن هذه الصيغة.

لقد كانت لهذه الخاصية (أي السنوية) نتائج هامة على نظام الجهاز التنفيذي : فمبدئيا كل القواعد التي يسنها أحد الحكام لا تكون ملزمة للحاكم الذي سيخلفه في منصبه. فمثلا كان كل قاض يقوم عند توليه لمهمة القضاء بنشر مرسومه الخاص الذي يضمنه جملة القواعد التي سيطبقها شريطة أن تكون تلك القواعد مطابقة للأعراف والنصوص القديمة. ثم ان هذه السنوية أدت في نهاية المطاف إلى تتابع أو تراتب الوظائف. وسنرى في فصل آخر كيف تطور نظام الوظائف هذا بشكل أصبح معه مرتبا بشكل دقيق cursus honorum.

المجمعية : ان هذه الخاصية تميز القانون العام الروماني وتجسد ابداع الرجل الروماني في مجال المؤسسات السياسية. فباستثناء خليفة الملك interrex الذي يعتبر وسيطا بين حاكمين، والديكتاتور الذي يتم اللجوء إلى تعيينه بهدف اعادة النظام في وقت الأزمات الشيء الذي يفرض تركيز السلط وتوحيدها، فان كل وظيفة من الوظائف الأخرى توكل إلى شخصين، أو أكثر، متساوين من حيث السلط يقومون بمزاولة المهام بشكل جماعي[9]. ان تعددية الحكام في المنصب الواحد وتعددية المناصب تفسر بأربعة أسباب رئيسية :

1. تطور المدينة وتوسعها المجالي بعد الفتوحات أدى إلى تعدد المهام والأعمال التي فرضت الرفع من عدد الحكام الذين يتقاسمون المهام.

2. تعدد الولايات فرض الرفع من عدد الحكام الذين يقومون بممارسة السلطة بها.

3. قبل الوصول إلى هذه المرحلة كانت الرغبة في اشراك العوام في تحمل مقاليد السلطة إلى جانب البطاركة من مسببات تعدد الوظائف والحكام.

4. أما أهم سبب مافتئ الكتاب القدامى يرددونه قصد تفسير هذه الظاهرة فيتمثل في تجنب تمركز السلطات بين يدي شخص واحد قد تسول له نفسه أن يقلب النظام إلى نظام استبدادي.

[9] - هناك قنصلان منذ سنة 267 على الأقل، وبرايتوريان (قاضيان) منذ 241 ق. م. ثم رفع العدد إلى أربعة سنة 223 ق. م. ثم إلى ستة سنة 197 ق. م. ثم إلى ثمانية في 80 ق. م. ثم إلى عشرة فأربعة عشر وأخيرا إلى ستة عشر في عهد قيصر.

إن التصور الروماني لهذه الجمعية فريد من نوعه : فلكي يتمكن الحكام من التصرف بفعالية إزاء الأمور التي تطرح عليهم ترك لكل واحد منهم الحق في التصرف بمفرده. فما يسميه الرومان بمجمع القناصل ما هو إلا إطار نظري. ذلك لأن هذا المجمع لا يمثل هيئة تناقش القضايا وتتخذ القرارات وتنفذها بشكل جماعي. بل إن كل واحد منهم كان له من السلط ومن الاختصاصات ما يمكنه من التصرف بمفرده. فهذا المجمع ليس مجبرا علياالاجتماع. بل إن كل قنصل كان باستطاعته أن يتصرف دون استشارة زميله. وما يجوز بالنسبة للقناصل يجوز لغيرهم من الحكام. ومقابل هذه الحرية في التصرف هناك وسيلة أخرى تسمح لكل منهم بمناقشة القرارات التي يتخذها زملاؤه بل وبمعارضتها وذلك باستعمال حق الفيتو (النقض) prohibitio et intercessio وذلك لأنهم كلهم متساوون في السلط. وسوف نرى أن هذا المبدأ كان وراء نشوب العديد من الأزمات السياسية في روما.

كيف يباشر حكام المجمع الواحد مهامهم؟ وبصيغة أخرى كيف يستطيعون التوفيق بين مبدأي الجمعية وحرية التصرف الفردي؟

ما دام أنهم متساوون في السلط فانهم يقومون بتقسيم مهام الوظيفة اما بالتناوب الزمني حيث يقوم كل قنصل مثلا بادارة شؤون المدينة لمدة ستة أشهر قبل أن يخلي السبيل لزميله الثاني أو أن يتفقا على قيادة الجيوش يوما لكل واحد بالتناوب. واما أن يتفقا -وهذا هو العرف المتبع- على توزيع المهام كأن يقوم أحدهما بممارسة السلطات العسكرية وذلك بقيادته للجيوش في الحملات العسكرية السنوية في حين يقوم الآخر بممارسة الجانب المدني للسلطة القنصلية بروما.

الانتخابية : باستثناء الديكتاتورية وخلافة الملك وقيادة الخيالة التي تعتبر كلها وظائف استثنائية ومؤقتة، فان كل الوظائف الأخرى العادية والدائمة تعتمد على مبدإ الانتخاب. فلكي يصبح الشخص حاكما عليه أن يقدم ترشيحه طبقا للشروط المطلوبة وأن ينتظر نتائج التصويت الذي يتم داخل المجالس الشعبية مرة كل سنة. ولذلك، فمن وجهة النظر القانونية، تعتبر السلطات التي يتمتع بها الحكام مخولة من قبل الشعب. بمعنى آخر فالشعب هو الذي يوكل هؤلاء الحكام لادارة شؤونه.

بالاضافة إلى هذه المبادئ الثلاثة يجب الاشارة إلى أن الشخص الذي ينتخب للقيام بوظيفة ما لا يتلقى أية أجرة أو تعويض من خزينة الدولة، بل انه في بعض الأحيان يستعمل وسائله المادية الخاصة من اجل اتمام بعض المهمات. ولذلك كان هؤلاء الموظفون ينتمون إلى الفئات الميسورة.

الوظائف الاستثنائية :

أ. الديكتاتور :

لقد ظهرت هذه الوظيفة سنة 501ق. م. لكنها ظلت استثنائية، ذلك أن تعيين الديكتاتور يتم في الحالة التي تكون فيها روما مهددة اما بخطر خارجي أو باضطرابات داخلية الشيء الذي يفرض تركيز السلط عوض تقسيمها. آنئذ تخول روما جميع السلط لشخص واحد يدعى الديكتاتورdictator، الذي يتم تعيينه من طرف القنصل بناء على قرار لمجلس الشيوخ[10].
وبمجرد تعيينه تصبح سلطات القنصلين لاغية ويصبح الموظفون الآخرون تابعين للديكتاتور الذي يملك كل السلطات مدنية كانت أو عسكرية، ولا يمكن لأحد من الحكام أو من المواطنين أن يعارضه أو أن يستخدم ضده حق الفيتو. بل ان سلطاته العسكرية تشمل حتى مدينة روما التي لم يكن العرف يسمح لأحد من الحكام غيره بممارستها داخل الأسوار. ثم انه عندما يتم تعيينه يتسلم سلطه مباشرة دونما حاجة إلى تصويت مجلس الكوريات. . .
وعندما ينهي مهامه لا يمكن لأحد أن يتابعه قانونيا عن القرارات أو الاجراءات التي اتخذها أثناء الفترة التي باشر فيها السلطة. ومن بين الشارات التي تميزه عن غيره من حكام الجمهورية حقه في 24 فائسا يتقدمونه في الموكب وهو نفس العدد الذي كان للملك في السابق أو للقنصلين معا في الفترة الجمهورية. ورغم هذه السلطات الواسعة التي يتمتع بها الديكتاتور فانه لا يمكنه أن يتصرف بحرية في خزينة الدولة aerarium اذ عليه أن يراجع مجلس الشيوخ.

ان تعيين الديكتاتور لا يعني الغاء الوظائف الأخرى ولكنها تصبح خاضعة له طيلة مدة حكمه التي يحددها القانون في مدة قصوى لا تتجاوز ستة أشهر. ويفسر هذا التحديد بكون الرومان كانوا دائما حذرين من عودة الأنظمة الاستبدادية ولذلك عمدوا إلى تحديد الفترة التي تخول فيها السلطة المطلقة لفرد واحد من أبناء المدينة في ستة أشهر غير قابلة للتجديد حتى لا يحاول ذلك الشخص تثبيت مركزه في السلطة. وطبعا، كانت مهمة الديكتاتور الأولى والأخيرة هي اعادة النظام والهدوء إلى روما وحل الأزمة التي تعصف بها أو القضاء على الخطر الخارجي الذي يهددها. وقد لجأ الرومان غير ما مرة إلى تنصيب ديكتاتور خلال القرنين الرابع و الثالث قبل الميلاد وهي الفترة التي عرفت فيها عدة اضطرابات داخلية بفعل تمردات العوام وهي أيضا فترة الحروب الايطالية. ثم اندثرت مدة طويلة قبل أن تعود للظهور مع سيلا Sylla في حلة جديدة. ولقد كان للديكتاتور الحق في اختيار وتعيين مساعد له يلقب بقائد الخيالة.

[10] - لكن طريقة التعيين عرفت بعض الاختلافات فيما بعد. ففي سنة 217 ق. م. تم انتخاب ديكتاتور، وفي سنة 82 ق. م. تم تعيينه بموجب قانون اقترحه حليفة الملك. وفي سنة 49 ق. م. تم تعيينه من طرف أحد القضاة. غير أن هذه الحالات كلها يجب اعتبارها حالات خاصة.

ب. قائد الخيالة : magister equitum

ظهرت هذه الوظيفة مع ظهور الديكتاتورية سنة 501 ق. م. فالديكتاتور مجبر بحكم القانون على تعيينه حتى ولو كانت المهمة التي نصب من اجلها غير عسكرية. ومدتها الزمنية هي نفس مدة الديكتاتورية (6 أشهر). وكان هذا القائد يساعد الديكتاتور في الأمور العسكرية أي أنه كان يشرف على قيادة الجيوش.

ج. خليفة الملك : interrex

لقد تعرضنا في فصل سابق لهذه الوظيفة والميكانزمات التي تحكمها. وقد استمرت خلال العهد الجمهوري ولكنها ظلت استثنائية يتم اللجوء اليها في حالة غياب مفاجئ للقنصلين (وفاة أو استقالة. . .) في وقت يستحيل فيه تنظيم انتخابات لتعويضهما. ففي هذه الحالة -وهي نادرة جدا- تعود سلطاتهما إلى مجلس الشيوخ الذي يقوم بتعيين احد أعضائه خليفة للملك شريطة أن يكون من أصل بطركي لمدة خمسة أيام ثم يخلفه آخر لنفس المدة وهكذا إلى أن يتم تنظيم انتخابات جديدة. وكانت مهمة خليفة الملك الأساسية هي تهيىء المرشحين والاشراف على الانتخابات.

الوظائف العادية التي تعتمد على مبدإ الانتخاب :

يجب التمييز بين نوعين من الوظائف حسب الأهمية :

ـــ **الوظائف العليا أو السامية**[11] وفيها نميز بين الوظائف التي تخول لأصحابها سلطة القيادة العليا المدنية والعسكرية cum imperio وهي القنصلية والقضاء وتلك التي لا تخول لأصحابها تلك السلطة sine imperio ويمثلها صاحب الاحصاء والمراقب البلدي. وكل هؤلاء الحكام يتم انتخابهم من قبل المجالس السنتورية.

ـــ **الوظائف الدنيا** : وهي التي لا يملك أصحابها سوى سلطة مدنية وهم أمين المال والمراقب البلدي الذي يتم انتخابه من قبل العوام ونقباء العوام. وكان هؤلاء ينتخبون من قبل المجالس القبلية أو مجامع العوام.

الوظائف السامية

أ. الكنسور أو صاحب الإحصاء :

تحدد الرواية تاريخ انشاء هذا المنصب بـ 443 ق. م. وينتخب الكنسوران من بين قدماء القناصل من طرف المجالس السنتورية مرة كل خمس سنوات ويحتفظان بمنصبهما لمدة

[11] - وتسمى أيضا الوظائف الكورولية curules أي التي يحصل أصحابها على مركز متميز في مجلس الشيوخ يرمز إليه كرسي عاجي.

ثمانية عشر شهرا عكس كل الحكام الآخرين الذين ينتخبون سنويا. إذن فهم حكام عاديون ولكن ليسوا دائمين. وإذا حصل وتوفي أو استقال أحدهم أثناء فترة الولاية فان زميله الآخر يستقيل بالضرورة. وكانا يلعبان دورا أساسيا يضفي على مهامهما طابعا أخلاقيا.

إن مهمة الكنسور الأساسية تتمثل في اشرافه على عملية احصاء المواطنين التي تنظم مرة كل خمس سنوات. فهو يقوم مع زميله بتسجيل المواطنين على القوائم وتقدير ثرواتهم ثم توزيعهم على القبائل والسنتورات حسب سنهم أو مركزهم الاجتماعي. وبموازاة مع ذلك كان يتم تعديل اللوائح السابقة وتسجيل المواطنين الجدد. وإذا كانت وظيفة الاحصاء تابعة في البداية للقنصل فانها أخذت تتطور بشكل جعلها تصبح في نهاية القرن الثالث قبل الميلاد من أهم وأرفع مناصب الدولة باعتباره منصبا شرفيا لا يحصل عليه الا الذين سبق لهم أن مارسوا القنصلية.

وبالاضافة إلى مهمة الاحصاء فانهم أصبحوا يكلفون منذ 318 أو 313 ق. م. بتهييء سجل مجلس الشيوخ[12] Album senatorium أي لائحة أعضاء المجلس مع الحق في تسجيل أعضاء جدد أو طرد أعضاء قدماء[13]. كما كانت لهم اختصاصات مالية فهم مكلفون بادارة أملاك الدولة ككراء الأراضي العمومية والاشراف على المزايدات العلنية الخاصة بانجاز المشاريع الكبرى ومراقبة الحسابات بشكل عام. . . وقد خول لهم القانون سلطة مطلقة للقيام بمهاهم. فباستثناء نقيب العوام لا يمكن لأحد أن يعترض على قراراتهم. بل ان حق نقباء العوام في الاعتراض هو نظري فقط طبقا لمبدإ وضعه مجلس الشيوخ سنة 205 ق. م. والقاضي بأن كل حاكم كلف بمهمة مراقبة وابراز الحسابات خاصة كانت أو عامة لا يمكن لأحد أن يطلب منه تقريرا حول مهمته.

أما من حيث السلطات فهم لا يتمتعون بسلطة القيادة العليا (imperium) باعتبار أنهم انتخبوا قصد القيام بمهام ادارية محض. ولذلك فهم يخولون السلطة المدنية وسلطة قضائية خاصة بمجال المالية. ولم يكن لهم الحق في دعوة مجلس الشعب للاجتماع. وبعد مرور ثمانية عشر شهرا على انتخابهم عليهم أن يبادروا بتقديم استقالتهم اللهم إذا كانت مهامهم لم تنته بعد وخاصة منها تلك التي تتعلق بالأشغال الخاصة بالمباني الرسمية الكبرى. ففي هذه الحالة يمكن أن تمدد فترة حكمهم بضعة أسابيع أو أشهر أخرى. وقد جرت العادة على

---

[12] - وهي السلطة التي منحهم إياها قانون أوفينيان Ovinien.

[13] - إن هذه المهمة جعلت من الكنسور حامي التقاليد والمراقب الذي يسهر على حسن الأخلاق في أوساط مجلس الشيوخ cura morum. فله الحق بحكم السلط التي يخولها له القانون في توجيه توبيخات nota censoria تسجل مع تفسير أسبابها على قوائم الاحصاء، وهذه التوبيخات تشمل الخروج عن الآداب العسكرية، وتجاوزات الحكام أو المبالغة في الترف أو التعاطي للطلاق بشكل مبالغ فيه. . . . وقد كانت أسماء هؤلاء الذين توجه لهم هذه التهم تمحى من لائحة الشيوخ ويتم تسجيلهم في احدى ستورات الطبقات الدنيا.

أن يقدم الكنسورات استقالتهم طبقا لمراسيم واعراف خاصة. حيث يتم استدعاء الشعب الروماني إلى احتفال ديني Lustrum [14] يقام بميدان الاله مارس. ثم بعد طواف في الميدان يقوم الكنسوران بتقديم ثلاث أضحيات للاله : ثور وكبش وخنزير ويقرآن صلاة يدعوان فيها الاله الزيادة في قوة روما. وبعد هذا الحفل تكون مهامهما قد انتهت بصفة رسمية.

ب. القنصل : Consul

يمثل القنصلان أعلى سلطة تنفيذية في روما. وقد ظهرت هذه الوظيفة حسب ما تخبرنا به الرواية سنة 509 ق. م. أي بعد زوال الملكية مباشرة. وقد نبهنا فيما سبق إلى أن هذا التاريخ ليس صحيحا وأن ظهور القنصلية كوظيفة رسمية جاء بعد فترة طويلة من انهيار الملكية. وكيفما كان الحال فقد نظمت هذه الوظيفة سنة 367 ق. م.

يتم انتخاب القنصلين من طرف مجلس السنتورات ويمكنهما القيام بمهامهما جماعيا[15] أو بشكل فردي إذا اتفقا على اقتسام المهام[16] . ويعتبر القنصل الوريث الحقيقي لسلطات الملك. فهو يتمتع بالسلطتين المدنية والعسكرية ويهتم بادارة شؤون روما السياسية. وتمييزا له عن باقي الحكام وتعبيرا عن السلطات الواسعة والسامية التي يملكها فان له الحق في أن يكون محاطا باثني عشر فائسا (24 للقنصلين معا).

ويعتبر القنصل بمثابة القائد الأعلى للجيش فهو الذي يقوم باعداد الجيوش بعد موافقة مجلس الشيوخ وهو الذي يعين قوادها ويرأس القضاء العسكري ويفرض الضرائب الحربية. أما فيما يتعلق بالجانب المدني فهو المسؤول الأول على الحفاظ عن الأمن في روما والمناطق التابعة لها ومن أجل ذلك يخول له القانون سلطات واسعة لا يحدها سوى استخدام حق الفيتو من قبل نقباء العوام. وللقناصل سلطة دينية أيضا. فهم يعتبرون بمثابة المؤولين الرسميين لارادة الآلهة. ولذلك كانوا يرأسون عملية ضرب الفأل التي يتم اللجوء اليها قبل الاقدام على اتخاذ أي قرار هام. كما أن للقناصل الحق في دعوة المجالس للاجتماع بما فيها مجلس الشعب. وحتى بعد انتهاء مهامهم فانهم يصبحون ضمن أعلى فئة سياسية في روما حيث يحتفظون باللقب القنصلي.

---

[14] - كلمة مشتقة من Lustre «خمسية» (أي خمسة أعوام).

[15] - وهذا هو السبب الذي يفسر كون العديد من القوانين التي اقترحها القناصل وصوتت عليها المجالس كانت تحمل اسمين.

[16] - وقد جرت العادة أن يمارسا مهامهما بالتناوب شهرا لكل منهما اذا كانا في روما. أما حينما يقرران القيام بحملة عسكرية فان أحدهما يقود الجيوش في حين أن الآخر يبقى في روما لادارة شؤونها.

ج. البرايتور (القاضي) Praetor:

تخبرنا الرواية أنه في الوقت الذي تم فيه اقتسام القنصلية بين البطاركة والعوام قام هؤلاء بخلق وظيفة جديدة أسندوا اليها الوظائف القضائية التي كان يقوم بها القنصل فيما قبل وجعلوها خاصة بهم. غير أنها سرعان ما أصبحت مفتوحة في وجه مرشحي العوام انطلاقا من سنة 356 ق. م. ولا شك في أن خلق هذا المنصب لا يفسر فقط بموقف البطاركة الذي يعكس رغبتهم في الاحتفاظ بالسلطة القضائية ولكن أيضا لكون التطور الذي عرفته روما واتساع رقعة ترابها أديا إلى تزايد مهام ومشاغل القناصل بشكل أصبح معه تخفيف حمله وتوزيع سلطته أمرا ضروريا لضمان حسن سير الجهاز التنفيذي وفعاليته. ولعل الدليل على ذلك هو أن الوظيفة لم تكن خاضعة في بدايتها لمبدا الجمعية. فمن سنة 367 إلى 242 ق. م. لم يتم انتخاب سوى قاض واحد يساعد القنصل ويقوم بدله بالنظر في النزاعات.

و يبدو أن البرايتور كان في بداية الأمر ملحقا بالإدارة القنصلية وكان مكلفا بالنظر في القضايا التي تعرض على القضاء . غير أن تكاثر القضايا والرغبة في خلق مؤسسة قضائية مختصة بفض النزاعات بين الأجانب أديا إلى خلق منصب قضائي جديد سنة 242 ق. م. ، فسمي الأول «القاضي الحضري» و الثاني «قاضي الأجانب». وقد تزايد عدد القضاة بتزايد المجال الجغرافي لروما بسبب الفتوحات فبلغ ستة سنة 197 ق. م. ، ثم سيرتفع فيما بعد إلى ستة عشر . و قد كان هؤلاء يتمتعون بكل السلطات القضائية و المدنية بالإضافة إلى السلطة العسكرية. حيث كان بإمكانهم قيادة الجيوش خصوصا في الفترة التي تتعدد فيها جبهات القتال .

ولقد كان قاضي المدينة و قاضي الأجانب متميزين عن غيرهما من القضاة، وكان عليهما أن يقيما في روما عكس زملائهما الذين يمارسون مهامهم في الولايات. وكان قاضي المدينة أعلى مرتبة من غيره لكونه مسؤولا عن محاكمة القضايا التي تخص المواطنين الرومانيين. أما قاضي الأجانب فكانت مهمته تقتصر على النظر في القضايا التي يكون أحد الطرفين فيها أجنبيا (أي غير مواطن وان كان مقيما بروما). و كان لكليهما الحق في نشر مرسوم قضائي يتضمن القواعد القضائية التي في ضوئها سيباشران مهامهما وتشكيل محاكم استثنائية للبت في القضايا الجنائية. كما كان لهما الحق في استدعاء المجالس للاجتماع بما فيها مجلس الشيوخ. وكانا يترأسان اجتماعات المجالس القبلية أثناء انتخاب الحكام الصغار. كما كان من حقهما اقتراح مشاريع القوانين على هذه المجالس. أما باقي القضاة فقد كلفوا بإدارة شؤون الولايات[17].

---

[17] – قد يتساءل البعض عن السبب الذي دفع الرومانيين إلى الزيادة في عدد القضاة في حين ظلوا متشبثين بمبدإ الثنائية في الوظيفة القنصلية. إن مرجع ذلك هو رغبتهم في الحفاظ على مكانة وهيبة «القنصلية» كأعلى وظيفة رسمية في الدولة.

الوظائف الدنيا

أ. المراقب البلدي (أو قيم المدينة) :Aedilis

لقد ظهرت هذه الوظيفة في بداية الأمر سنة 494 ق. م. أو بعدها بقليل في الأوساط العامية. فقد انتخب العوام أشخاصا أوكلوا اليهم مهمة صيانة معابدهم وأسواقهم. ولقد ظلت هذه الوظيفة إلى غاية سنة 366 ق. م. مقتصرة على العوام. ففي هذه السنة -ودائما في اطار تشتيت المهام القنصلية بعد أن تمكن العوام من اقتسامها مع البطاركة- لجأ هؤلاء إلى خلق منصبين جديدين لمراقبي المدينة. وإذا كان هذان المنصبان خاصين بفئة البطاركة في البداية فان العوام قد تمكنوا بعد فترة وجيزة من الحصول على حق الترشيح لهما مع احتفاظهما بالمنصبين السابقين اللذين ظلا حكرا على فئتهما. وهكذا أخذنا نرى في روما مجمعين للمراقبين يتكون الأول من مراقبي العوام والثاني ينتخب من بين مرشحي الشعب الروماني بمختلف شرائحه ويسمون بالمراقبين الكوروليين Ediles curules. ويتميز هؤلاء بكونهم يحصلون على الامتيازات التي تخصص لحكام لشعب الروماني وتتمثل في لباس خاص وحجاب (viatores) والحق في أن يقيموا في فناءات منازلهم تماثيل لأجدادهم (ius imaginum)، بالاضافة إلى حصولهم على الكرسي العاجي في مجلس الشيوخ ومن هنا الاسم الذي يطلق عليهم Aedilis curules. ويتم انتخابهم من قبل مجلس السنتورات عكس مراقبي العوام الذين يتم انتخابهم في اطار مجامع العوام. الا أن الأواخر يتميزون عن الأوائل بكونهم يتمتعون بالحصانة ضد الحكام الآخرين وضد مجلس الشيوخ.

أما مهام المراقبين فهي تتمثل في مراقبة الأسواق، وتأمين تزويد روما بالمواد الغذائية، ومراقبة عمليات البناء وصيانة المرافق العمومية وخاصة منها المعابد والاعتناء بالقنوات التي تزود المدينة بالماء وبالساحات العمومية، اضافة إلى ذلك كانوا يقومون بدور البوليس الحضري في الحفاظ على الأمن وزجر المخالفات وتحويل المخالفات الخطيرة إلى القنصل أو القاضي[18]. وكانوا أيضا يمثلون مصالح الوقاية المدنية (محاربة الحرائق). . . وقد كانوا يجندون بعض الموظفين الذين يساعدونهم في مهامهم فمنهم من كان مكلفا بمصلحة المياه (aquarii) أو بمصلحة التنظيف quatuoruiri uiis purgandis. . . وكانت أهم مسؤولية يقوم بها المراقب هي تنظيم الألعاب التي تقام في روما على شرف الآلهة وعليه أن يبذل كل ما في وسعه لانجاح هذه التظاهرات لأن نجاحها سيحدد مدى شعبية المراقب وبالتالي سيفتح له الأبواب لتولي المناصب العليا[19]. ويضاف إلى تلك المهام كلها مهمة صيانة الوثائق الرسمية التي يتم الاحتفاظ بها في معبد الاله ساتورن Saturne.

[18] - كان القانون الروماني يخول لهم حق تغريم المخالفين أو تحويلهم إلى القضاء.

[19] - كانت الدولة تقدم اعتمادات لهذه الألعاب، ولكن هذه الاعتمادات لم تكن تكفي لسد جميع المصاريف وتوفير كل الحاجيات. فكان على المراقب أن يتصرف من ماله الخاص ليضمن النجاح للتظاهرة. واذا كانت الالعاب على مستوى جيد من التنظيم فان ذلك كان يزيد من شهرة المراقب الذي يأخذ بعين الاعتبار هذا الجهد المبذول أثناء عملية التصويت في الانتخابات الخاصة بالمناصب السامية.

ب. أمناء المال :Quaestores

لا نعرف تاريخ ظهور هذه الوظيفة على وجه الدقة. فلربما كانت موجودة منذ العهد الملكي[20] فقد كان على الملك أن يخلق ادارة خاصة بالشؤون المالية. غير أنه على غرار باقي الوظائف الاخرى تمت اعادة تنظيم هذه الوظيفة مع النظام الجمهوري.

يتم انتخاب أمناء المال من قبل المجالس القبلية ويشكلون مجمعا ارتفع عدد أفراده مع تطور التوسع الروماني. فقد انتخب أمينان اثنان في بداية العهد الجمهوري ثم ارتفع العدد إلى أربعة أمناء في نهاية القرن الخامس ، ثم إلى ثمانية في بداية القرن الثالث لكي يصل إلى عشرة في بداية القرن الثاني قبل الميلاد. . . وسيستمر في الارتفاع خلال الفترات اللاحقة.

ويبدو أن الأمناء كانوا في بداية الأمر ملحقين بالوظائف العليا وخاصة منها الوظيفة القنصلية. حيث كانوا يعينون من قبل القناصل ويعملون تحت اشرافهم. ثم أخضعت الوظيفة لمبدا الانتخابية وأصبحت قائمة بذاتها وأصبح أصحابها متخصصين في ادارة الشؤون المالية. وهم يتمتعون بالسلطة المدنية التي تخول حق متابعة الأشخاص أو التحقيق معهم في القضايا المالية. ويمكن التمييز بين الأمناء حسب اختصاصاتهم أو حسب مجالات عملهم الجغرافية. فأهمهم على الاطلاق هم أمناء الحاضرة (روما) Quaestores urbani أو Quaestores aerarii saturni الذين توكل اليهم مهمة حفظ خزينة الدولة المحفوظة في معبد الاله ساتورن وكذا حفظ وثائق الحكام الرسمية التي يسلمونها للدولة عند انهاء مهامهم. ويساعد الأمناء في ذلك بعض الكتاب scribae aerarii. أما الأمناء الأخرون فمنهم من يكلف بإدارة الشؤون المالية في إيطاليا أو في الولايات الجديدة كصقلية وسردينيا. وآخرون يقومون بمرافقة القناصل في حملاتهم العسكرية قصد الإشراف على العمليات المالية التي تخص الجيش.

ج. نقباء العوام

إن هذه الوظيفة لها خصوصيات تجعلها مختلفة تماما عن الوظائف الأخرى فأصحابها كانوا يتوفرون على سلطات خاصة تمكنهم في بعض الأحيان من التحكم في القرار السياسي. ولقد رأينا أن هذه الوظيفة أنشأها العوام أثناء تمردهم سنة 494 ق. م. لاختيار ممثلين لهم تجسدت مهمتهم الأساسية في الدفاع عن مصالح العوام. ولقد ظلت هذه الوظيفة خاصة بالعوام حتى بعد أن تمكنوا من الحصول على الحقوق السياسية التي ساوت بينهم وبين البطاركة. فقد كانوا ينتخبون في اطار مجامع العوام تحت رئاسة النقباء الذين أنهوا مهامهم. وإذا كانت الوظيفة قد اكتست في البداية طابعا ثوريا الا أنها سرعان ما ستصبح مدمجة في وظائف الدولة الرسمية بعد ان انتهى الصراع بين العوام والبطاركة.

---

[20] - يفترض البعض أنهم ينحدرون من Quaestore perricidii الذين كانوا يقومون في العهد الملكي بمهام قضائية.

لقد كان النقيب يتمتع بسلطة المحاماة potestas tribunitia ذات الطابع الديني. فهو يعتبر محميا من قبل الآلهة فيصبح شخصه مقدسا لا يجوز التعرض له أو الاعتداء عليه. . . انه يتمتع بالحصانة المطلقة. وللنقيب الحق في استعمال سلطه في ثلاثة مجالات أساسية :

1 - في المجال القضائي، و عن طريق «الحق في تقديم العون» auxilium ius، يمكنه أن يساعد ويدافع عن كل مواطن تعرض لحكم جائر من طرف الحكام الآخرين وذلك باستعماله حق الفيتو وتحويل القضية، حسب نوعيتها وأهميتها، إلى احد مجالس الشعب .

2 - في المجال السياسي بامكان النقيب بمقتضى «حق النقض أو الفيتو» intercessio الذي يخوله له القانون أن يعارض كل قرار يعتبره لا يخدم مصالح الشعب الروماني سواء كان صادرا عن أحد الحكام[21] أو عن مجلس الشيوخ.

3 - في المجال التشريعي يمكن للنقيب استدعاء المجالس القبلية وتقديم مشاريع قوانين plebescites قصد التصويت عليها.

وكانت هذه المهام تفرض على المقيم أن يظل حاضرا في روما وأن لا يغيب عنها مدة تزيد عن اليوم الواحد. فعليه أن يكون مستعدا للتدخل في كل وقت. وعليه أيضا أن يترك باب منزله مفتوحا بشكل مستمر حتى يتمكن المتضررون من الوصول اليه بسهولة. وكانت سلطته تسمح له بالقاء القبض على كل من حاول عرقلة جهوده وتحويله إلى القضاء أو محاكمته اما بغرامة مالية أو بالإعدام. كما كان بامكان النقيب استدعاء مجلس الشيوخ للانعقاد للنظر في القضايا الهامة التي يعتبرها من اختصاصه. إن سلطة النقيب في المجالات الثلاثة المذكورة لا حدود لها سوى السلط الموازية لها، أي سلط زملائه في الوظيفة. فإذا اتخذ مجمع النقباء قرارا ما وعارضه أحدهم مستعملا حقه في الفيتو فان القرار يصبح لاغيا. وقد رأينا من قبل أن الميكانزمات التي تخضع لها الوظيفة ستستغل في البداية من طرف البطاركة ثم من طرف مجلس الشيوخ و القناصل فيما بعد قصد شل مبادراتهم.

السلك الشرفي : cursus honorum

في بداية العهد الجمهوري لم تكن هناك أية قاعدة قانونية خاصة بالنظام أو التراتب الذي يجب أن يحكم شغل هذه المناصب. ذلك أنها ظهرت في فترات مختلفة بشكل غير منتظم. ولكن، ومنذ البداية كان الجمع بين عدة مناصب والاستمرارية في شغل منصب ما بعد انتهاء المدة القانونية (18 شهرا للكنسور، 6أشهر للديكتاتور و سنة واحدة لباقي الحكام) محرما. ومنذ سنة 342 ق. م. صدر قانون يمنع شغل وظيفة رسمية مرتين متتاليتين وفرض

[21] - كان بامكانهم أن يعارضوا كل الحكام باستثناء الديكتاتور الذي لا يخضع لمبدإ الفيتو. غير أن بعض المؤرخين يعتقدون أن حق الفيتو هذا يسري على كل الحكام بدون استثناء.

احترام مدة 10 سنوات كفاصل بين وظيفتين. وفي سنة 265 ق. م. صدر قانون آخر يمنع شغل منصب الكنسور مرتين. وهكذا بدأنا نرى شيئا فشيئا تكون قانون خاص يضع المبادئ العامة لتنظيم وظائف الدولة وفرض شروط معينة على الراغبين في تقلدها وهي التي تضمنها قانون فيليا lex Vilia أو Vilia annalıs الصادر سنة 180 ق. م. . وبذلك أصبح التراتب المتبع على الشكل التالي (من الوظيفة الدنيا إلى الوظيفة العليا) :

أمين المال

نقيب العوام

مراقب المدينة

البرايتور

القنصل

الكنسور

3 . مجلس الشيوخ Senatus

لنترك المؤرخين اللاتينيين يقدمون لنا صورة عن هذا المجلس :

«ان المقيم بروما أثناء غياب القناصل يجد النظام هذه المرة أرستقراطيا تماما. فكثير من الاغريق ومن الملوك أيضا مقتنعون بذلك لأن الأمور التي تخصهم تحل كلها من طرف مجلس الشيوخ. »[22] وكتب شيشيرون يقول : «ان أجدادنا جعلوا من مجلس الشيوخ الوصي والمدافع الذي يحمي الدولة. وقد أرادوا أن يجعلوا من الحكام وزراء هذا المجلس الجليل»[23]. كما لخص دور المجلس في كتاب آخر بقوله : «إن مجلس الشيوخ هو سيد السياسة العامة فإذا كانت السلطة للشعب، فان السيادة يجب أن تكون لمجلس الشيوخ»[24].

تبين هذه الشهادات الدور الهام الذي يلعبه مجلس الشيوخ في الحياة العامة والنفوذ الكبير الذي يتمتع به كجهاز رئيسي يقع في قمة الهرم المؤسساتي الروماني. إنه وريث العهد الملكي[25] وسلطاته تشمل كل المجالات، وتأثيره في اتخاذ القرار لا يضاهيه أي تأثير.

---

22 - Polybe. VI, 8-10

23 - Cicéron. Prosestro, 137

24 - Cicéron. De legibus. III, 27

25 - يحكي بلوتاكوس أنه حينما عاد الفيلسوف الاغريقي كينياس Cinéas من روما حيث كان يرأس وفد المفاوضات الذي مثل الملك بيروس سنة 280 ق. م. ، سأله بعضهم عن مجلس الشيوخ فأجاب : «كان يبدو لي وكأنه مجلس ملوك».

وقد دفع ذلك بالعديد من الباحثين إلى نعت الجمهورية الرومانية بالجمهورية «السيناتورية» كدليل على قوة وأهمية هذه المؤسسة. فهو يشكل مركز الحكم بمفهومه العام في روما باعتبار أنه من الناحية القانونية يمكنه التدخل في كل الأمور الهامة في الحياة المدنية ويقرر في علاقاتها الخارجية، أما من الناحية السياسية فهو يعتبر معقل الأوليغارشية الحاكمة.

ولقد رأينا في السابق أن هذه المؤسسة كانت تساهم في ادارة الشؤون السياسية لروما منذ الفترة الملكية وأنها كانت مشكلة من شيوخ العشائر الرومانية دون غيرهم الذين كانوا يلعبون دور مستشاري الملك ويساعدونه في مهامه. وعندما انهارت الملكية كان ذلك بمثابة انتصار حقيقي لمجلس الشيوخ الذي ورث كل السلطات الملكية قبل أن يفوتها للحكام. ولكنه بقي من الناحية النظرية الهيئة التي تملك السلطة العليا وان كان يبدو خلال العهد الجمهوري وكأنه يلعب دور مجلس استشاري يلجأ اليه الحكام في الحالات التي تستعصي عليهم حلولها قصد طلب المساعدة.

ولقد رأينا من قبل أن هذا المجلس قد ظل مقتصرا خلال العهد الأول من الجمهورية على الآباء البطاركة patres دون غيرهم من أفراد المجتمع، ثم أصبح مفتوحا في وجه العوام انطلاقا من اللحظة التي حصل فيها هؤلاء على المساواة السياسية. وهكذا أصبح أعضاؤه ينعتون بالآباء المسجلين patres conscrepti وهي بدون شك صفة تميز الآباء الذين ينتمون إلى العشائر الرومانية عن غيرهم من الأعضاء الذين تمكنوا من الحصول على مقاعد في المجلس. ولم تكن عضوية المجلس تخضع لمبدإ الانتخاب بل كانت هناك مجموعة من الشروط التي يجب توفرها في المرشح للعضوية عرفت بدورها تطورات سايرت التطور السياسي العام الذي عرفته روما.

أ . **تكوين المجلس** : تزعم الرواية أن عدد أعضاء المجلس كان يقدر بـ300 خلال الفترة الملكية. غير ان هذا الرقم نظري فقط باعتبار ان عدد الأعضاء لم يكن ثابتا، فهو مرتبط بعدد العشائر الرومانية كما أنه مرتبط بقرارات الملك الاصلاحية[26]. ان هذا الرقم (النظري) لم يعرف تغييرا قانونيا الا سنة 123 ق. م. ويمكن التسليم بكون المجلس كان يضم بالفعل هذا العدد من الشيوخ مرة كل خمس سنوات عندما يتم وضع السجل السيناتوري. أما خلال الخمس سنوات اللاحقة فانه كان يفقد بعض أعضائه بسبب الوفيات الطبيعية أو بسبب الحروب[27] . ولهذا االغرض بالذات تم إقرار نظام خاص يهدف إلى تجديد المجلس

[26] – أنظر اعلاه ص72.

[27] – ففي سنة 216 ق. م. مثلا كان المجلس يضم 177 شيخا من أصل 300 أي أنه فقد ما لا يقل عن 84 شيخا خلال معركة كان Cannes ضد هانيبال. أما الآخرون فقد فقدوا في ظروف أخرى.

بشكل دوري. وما دامت العضوية لا تخضع لمبدإ الانتخاب فان ايجاد سلطة رسمية ووضع قانون خاص لتعيين الشيوخ كانا يفرضان نفسيهما على المشرع الروماني.

في العهد الملكي، كان الملك هو الذي يعين أعضاء المجلس بناء على اختيار تقوم به العشائر على ما يبدو. وفي بداية العهد الجمهوري لا نعرف كيف كانت تتم التعيينات ولكن من المحتمل أن يكون القناصل هم المسؤولون عنها. غير أنه من المؤكد أن عضوية المجلس كانت قد أضحت وراثية الشيء الذي لم يكن يطرح مشكلة الاختيار بحدة. ولكن انطلاقا من نهاية القرن الرابع قبل الميلاد أوكل قانون أوفينيا lex Ovinia للكنسور مهمة وضع لوائح الشيوخ. وفي حالات استثنائية عينت روما ديكتاتورا للقيام بهذه المهمة (بعد هزيمة كان مثلا) بمقتضى قانون استثنائي يصدره المجلس.

إن تجديد المجلس يقوم على أساس lectio أي الاختيار عن طريق النداء[28]. حيث يقوم الكنسور بمناداة الأسماء المثبتة على القائمة القديمة وفي نفس الوقت يقوم بالتشطيب على أسماء الشيوخ الذين فقدوا أو الذين طردوا من المجلس ثم يضيف إلى الباقي أسماء الشيوخ الجدد الذين تم تعيينهم. أما الشروط التي يجب أن تتوفر في الشيوخ فهي اجتماعية وسياسية وأخلاقية. ولقد أقر قانون أوفينيا قاعدة عامة على أساسها يقوم الكنسور باختيار الشيوخ وتعيينهم : «اختيار الأفاضل من كل الفئات». وقد أثارت هذه القاعدة جدلا واسعا بين المؤرخين وفقهاء القانون. فبعضهم يعتقد أن المقصود بالفئات هي الطبقات الاجتماعية على اختلاف أنواعها، في حين يرى آخرون -وهذا هو الرأي المرجح- أن فئات الحكام هي المقصودة بذلك. ولا شك أن هذه القاعدة كانت تتضمن غموضا حتى بالنسبة للرومان أنفسهم. فإذا كانت العادة قد جرت لدى الكنسورات بتعيين قدماء الحكام في المقاعد الشاغرة في المجلس فان بعضهم كأبيوس كلوديوس Appius Claudius (312 ق. م.) قام بتعيين الشيوخ من فئات أخرى كالفرسان وأبناء المعتقين.

و من الشروط التي يجب توفرها في الشيخ أن يكون مواطنا رومانيا وأن يكون مقيما بروما. و أن لا يكون من الذين صدرت في حقهم أحكام في قضايا أخلاقية. ثم إن مزاولة بعض المهن التي تعتبر شائنة (كالنخاسة والتمثيل والكتابة و المصارعة. . .) كانت تقصي أصحابها من عضوية المجلس، لأن هذه الأخيرة هي قبل كل شيء منصب شرفي dignitas. ولقد منع قانون كلوديا lex claudia (218 ق. م.) المرشحين من التعاطي لكل نشاط تجاري. و من أهم الشروط العرفية لاختيار المرشحين للعضوية أن يكونوا قد سبق لهم أن شغلوا أحد المناصب الرسمية، الشيء الذي جعل من مجلس الشيوخ هيئة مكونة من قدماء الحكام.

---

[28] - فكلمة lectio اللاتينية تحمل معنين «الاختيار» و«القراءة بصوت مرتفع».

و قد تم تحديد تراتب دقيق داخل المجلس. فالأعضاء ينقسمون إلى جماعات حسب الصف الذي يحتلونه في المجلس، ويعبر عن هذا الصف موقع اسم الشيخ في السجل السيناتوري الذي يبقى معروضا في قاعة الاجتماع. فهناك تمييز بين البطاركة وغيرهم من الشيوخ وهو تمييز ظل قائما إلى نهاية العهد الجمهوري رغم أنه لم تعد له أهمية تذكر اللهم عندما يتم اللجوء إلى تعيين خليفة الملك الذي يختار من بينهم. ثم إن الأعضاء يصنفون حسب أهمية الوظائف التي أسندت لهم حيث تبدأ القائمة بذكر أسماء الذين سبق لهم أن كانوا دكتاتوريين ، ثم الكنسورات ، ثم القناصل ، ثم القضاة، ثم مراقبو المدينة، ثم نقباء العوام، وأخيرا أمناء المال. وفي كل صنف من الأصناف يتم الترتيب حسب أقدمية الشخص في القيام بالمهمة، وفي كل مرة يحافظ الترتيب على حق الأسبقية للبطاركة. أما الشخص الذي يوضع اسمه على رأس القائمة فيختاره الكنسور من بين قدماء القناصلة ويصبح مركزه شرفيا حيث يدعى بأمير الشيوخ princeps senatus ويكون أول من يتم استدعاؤه للتعبير عن رأيه خلال مناقشات المجلس.

بالاضافة إلى هؤلاء يضم المجلس فئة من الأعضاء يطلق عليهم «الراجلون» pedarii الذين لا يحصلون على مقعد للجلوس في المجلس. ولا شك أن هؤلاء يشكلون مؤخرة الترتيب، وهم الأشخاص الذين شغلوا مناصب دنيا لا تخول لهم الحق في الحصول على كرسي العاج. وهم نادرا ما كانوا يعبرون عن أصواتهم في المجلس أثناء المناقشات بل يكتفون بالاستماع، ولكنهم يصوتون على مشاريع القرارات. أما الحكام الذين كانوا أعضاء في المجلس ولكنهم يشغلون وظيفة من وظائف الدولة فكان من حقهم حضور الجلسات دون أن يشاركوا في عملية التصويت. وقد جرت العادة على أنه في الوقت الذي تبدأ فيه المناقشات يتم استدعاء امير الشيوخ للتعبير عن رأيه ثم جملة من الشيوخ الذين عبروا عن رغبتهم في المشاركة في المناقشة، ثم يمر المجلس للتصويت. وكان العرف السائد هو أن يتقدم الشيوخ راجلين ثم يقف كل منهم خلف صاحب الرأي الذي يؤيده.

وبالطبع، كان الشيوخ يتمتعون بمكانة عليا في المجتمع تعبر عنها جملة الامتيازات التي يحصلون عليها. فلهم الحق في لباس خاص، وتحجز لهم أماكن خاصة في المسارح وفي الاحتفالات العامة كما كانوا يتمتعون بحصانة تحميهم من المثول أمام المحاكم اللهم إذا تعلق الأمر بارتكاب جناية خطيرة (كالقتل، او استعمال العنف أو تزوير الوثائق. . .) آنئذ ترفع عنهم الحصانة ويحاكمون أمام المجالس.

ب - **الاختصاصات** : باعتبار مجلس الشيوخ أعلى هيئة سياسية في البلاد ومادام أنه يلعب دور مجلس استشاري يلجأ اليه الحكام قبل اتخاذ القرارات في الأمور الهامة فان اختصاصاته لا حدود لها، فهي تشمل كل جوانب الحياة العامة في روما وخارجها.

فمجلس الشيوخ هو قبل كل شيء الضامن لاستمرارية التقاليد الجمهورية وهو حامي مؤسساتها. وبهذا المعنى لا يمكن أن نحصر مدى اتساع هذه الاختصاصات ولكن يمكننا أن ندرس طبيعتها.

يجب الاشارة إلى انه من وجهة النظر القانونية الصرف فان المجلس لا يملك سلطة القرار على اعتبار أن دوره استشاري فقط. فهو ينعقد بناء على طلب أحد الحكام الذي يطرح عليه القضية التي تشغله، ثم بعد المناقشات يصوت الأعضاء على قرار ما يسمى «استشارة» أو «رأي» Senatus consuitum المجلس الذي لا يتمتع بقوة القانون. وبالرغم من ذلك، وبالرغم من أن نفوذ المجلس كان يحده نفوذ نقباء العوام (حق الفيتو) ومجالس الشعب فانه كان يلعب دورا رياديا في الحياة السياسية ويؤثر تأثيرا بليغا في اتخاذ القرارات. ومن خلال الارتسامات التي خلفها بوليبيوس عن المجلس يمكن تحديد ثلاثة مجالات رئيسية يبدو فيها مجلس الشيوخ هو صاحب السلطة المطلقة عن طريق المراقبة التي يفرضها على الحكام الذين أوكلت اليهم شؤونها :

المالية : فمجلس الشيوخ هو الذي يوافق على مصاريف الدولة التي يقوم الأمناء بالاشراف عليها وتنفيذها، وهو الذي يحدد قيمة الضريبة التي تدفع سنويا على الملكية والتي تدعم بيت المال. وهو الذي يشرف على ادارة أملاك الدولة التي تكونت نتيجة المصادرات التي واكبت الفتوحات الرومانية وهو الذي يقرر تفويتها لشخص أو لجماعة ما ويصدر توجيهاته في هذا الشأن للكنسورات. فكل الأملاك العامة (أراض، غابات، مناجم. . .) تعتبر وكأنها ملك للمجلس الذي يتصرف فيها وكأنه مفوض من طرف الشعب الروماني. وتذهب مداخيل هذه الأملاك إلى خزينة الدولة وبالتالي فللمجلس الحق في مراقبة كل الحكام الذين يكلفون بمهام مالية كالكنسورات والقناصل والأمناء.

الحرب و الشؤون الخارجية : ككل المدن القديمة كانت روما مدينة محاربة. فالحرب تشغل حيزا هاما في اهتماماتها السياسية اليومية. وقد رأينا أنه على رأس الجهاز التنفيذي يوجد القنصلان اللذان يجسدان السلطة العسكرية، وأن أهم مجلس شعبي هو مجلس السنتورات الذي يجتمع فيه الشعب المحارب حاملا سلاحه ولو كان الغرض من اجتماعه لا علاقة له بالنشاط العسكري. ولذلك كانت الحرب من أهم مواضيع النقاش بين الحكام والمجلس. فمجلس الشيوخ هو الذي يعلن حالة الحرب ضد عدو ما. وإذا كان القنصل هو المسؤول عن اعداد الجيوش عن طريق مباشرة عملية استنهاض المحاربين dilectus [29] فإنه لا يمكنه اتخاذ المبادرة الا بعد استشارة مجلس الشيوخ وكذلك الشأن بالنسبة لضريبة الحرب التي تفرض على المواطنين لمواجهة حاجيات الحملات العسكرية والتي يبت المجلس في

[29] – روما لم تكن تتوفر على حيش نظامي دائم فقد كانت تلجأ إلى استنهاض المواطنين كلما دعت الضرورة إلى ذلك.

مقدارها (tributum) ويصدر قراراته في اطاره في اطار مرسوم يعتمد عليه القنصلان في اصدار منشور يدعو إلى التجنيد حسب نظام سنفصله في فصل آخر.

كما أن مجلس الشيوخ يتخذ قرارات حول عقد معاهدات السلم ويصادق على الاتفاقيات التي يوقعها القناصل مع المدن أو الشعوب الإيطالية أو غيرها قبل أن تحال على مجلس الشعب. فهو الذي يتحكم في السياسة الخارجية، حيث يستقبل السفارات ويستمع لما تحمله من مطالب أو اقتراحات، كما يستقبل مندوبي الشعوب الإيطالية أو المدن التابعة لروما حيث يبت في شكاويهم و يتخذ القرارات التي تبدو له صالحة. و هو الذي يقرر إرسال سفارات رومانية إلى الخارج و يحملها الرسائل. . . و يبقى مجلس الشيوخ سيد السياسة الخارجية بحيث لا تنافسه مؤسسة أخرى في هذا المجال.

3. و في المجال الديني يعتبر مجلس الشيوخ حامي التقاليد الدينية التي ورثتها روما عن الأجداد. فهو يراقب عن كثب الوظائف الكهنوتية التي تربطه بها علاقة دائمة و مستمرة، و هو الذي يقرر في قبول آلهة جديدة في روما و يخصص لها مجالا في الحياة الدينية و قد حصل ذلك مثلا سنة 204 ق. م. عندما قرر تخصيص استقبال رسمي لإلهة الشرق سيبيل Cybèle. كما كان بإمكانه منع أو الحد من بعض التظاهرات الدينية المتطرفة كما وقع سنة 186ق. م. في قضية البكانلة Bacchanales.

4 . الجيش الروماني

إن دراسة المؤسسة العسكرية في روما تكتسي أهمية خاصة باعتبارها شكلت الأداة الرئيسية التي سمحت لروما بتوسيع حدودها و الانتقال من دويلة مدينة إلى عاصمة أمبراطورية متوسطية. وككل المدن القديمة شكلت الحرب أحد الهموم اليومية للدولة والمواطنين على السواء، ولذلك فقد كان الجهاز العسكري على علاقة وطيدة بمؤسسات الدولة من جهة، وبدور المواطن في مجتمع المدينة. ذلك أن المواطن هو قبل كل شيء جندي عليه أن يؤدي الخدمة العسكرية للدولة.

لقد لخص المؤرخ كلود نيكولي خصوصيات الجيش الروماني في الكلمات الثلاث : انه وطني، ستنوري (أي قائم على أساس ضرائبي) وغير دائم :

فهو جيش وطني لأن المواطن الروماني وحده كان له شرف الخدمة العسكرية التي كانت تعتبر واجبا وحقا من حقوق المواطنة في آن واحد. وقد رأينا أنه خلال الفترة الملكية لم يكن العوام يجندون في الجيش وأن دخولهم في هذه المؤسسة كان من أهم أهداف الاصلاحات الملكية التي منحت حق المواطنة الجزئي لهؤلاء مقابل أدائهم للخدمة العسكرية. وبعد التوسع الروماني في ايطاليا فرضت روما على المدن والشعوب الايطالية التي أصبحت

خاضعة لها تقديم وحدات عسكرية وذلك بمقتضى المعاهدات والاتفاقيات التي وقعتها معها. وقد ظلت هذه الفرق اللاتينية أو الايطالية معزولة عن الجيش الروماني الرسمي رغم أنها تحملت العبء الأكبر من برنامج الفتوحات الرومانية في البحر الأبيض المتوسط. ورغم ذلك فهي تعتبر جيوشا وطنية لأنها تخضع لنفس المبادئ التي يخضع لها الجند الروماني : أي أنها سنتورية واكتتابية armée de conscription.

أما الخصوصية الثانية فهي السنتورية التي تعرضنا لها باسهاب أثناء حديثنا عن اصلاحات الملك سيرفيوس توليوس التي قسمت المواطنين إلى خمس طبقات حسب مداخيلهم وفرضت على كل طبقة تقديم عدد معين من الوحدات المئوية (السنتورات) للجيش. وكان الانتماء إلى طبقة معينة يفرض واجبات معينة من حيث التجنيد وقيمة الضرائب ويعطي حقوقا سياسية في اطار مجلس السنتورات.

وأخيرا فان هذا الجيش لم يكن جيشا نظاميا بل مؤقتا يتم استدعاؤه كلما قرر القناصل القيام بحملة عسكرية ما، فهو بالتالي جيش اكتتابي.

التجنيد :

عندما يدعو القنصل أو الحاكم الذي يملك السلطة العسكرية لتجميع الجيش فان على كل مواطن تلبية النداء للدفاع عن مدينته. فهو جندي تفرض عليه الخدمة العسكرية حيث يجند في سنتورات الشبان عندما يتراوح سنه بين 17 و 46 سنة ثم بعد ذلك يلتحق بسنتورات الكبار. ولكن الخدمة العسكرية تقتصر في الأوقات العادية على الذين صنفوا ضمن الطبقات الخمس، أي على دافعي الضرائب dilectus. أما حينما يكون أمن روما مهددا من طرف خارجي (كالغزو الغالي مثلا) فان الخدمة العسكرية تكون عامة وتشمل حتى الفقراء tumultus. والمواطن الذي لا يستجيب لنداء القنصل يعتبر متهربا من اداء واجب المواطنة المتمثل في الدفاع عن المدينة وبالتالي ينظر اليه كمن تخلى عن حقوق مواطنته. الشيء الذي يؤدي إلى فقدانه لحقوق المواطنة هذه بل ولحريته حيث يباع في سوق النخاسة. أما المدة التي يجب على المواطن أن يكون فيها مجندا فتقتصر حسب ما يخبرنا به بوليبيوس على 10 سنوات بالنسبة للفرسان و16 سنة بالنسبة للمشاة قبل أن يلتحق بالجيش الاحتياطي (أي بسنتورات الكبار).

عندما يقر الحكام القيام بحملة عسكرية ما فانهم يعرضون الأمر على مجلس الشيوخ الذي يصدر مرسوما يدعو المواطنين للتجنيد ويحدد عدد الوحدات وكذا الضريبة الحربية التي سيتم جمعها. وقد جرت العادة على أن يتم استنهاض جيشين قنصليين كل سنة (جيش لكل قنصل) مكونين من أربعة فيالق. كيف تتم عملية التجنيد؟ يصدر القنصل أمرا

بتجميع الرجال الخاضعين للخدمة العسكرية في ميدان الاله مارس حيث يتم انتخاب 24 ضابطا من بين المرشحين الذين ينتمون إلى فئة الفرسان (الطبقة الأولى) وهم الذين سيقودون الفيالق بالتناوب (6 ضباط لكل فيلق) تحت القيادة العليا للقنصل. ثم تتم عملية سحب القرعة للرجال الذين يساهمون في الفيالق الأربعة[30] مع الأخذ بعين الاعتبار لعدد الحملات التي ساهموا فيها من قبل. وفي نفس الوقت يتم توزيع المجندين على الفيالق الأربعة سواء تعلق الأمر بالفرسان أو بالمشاة. وهذه العملية هي التي يطلق عليها الرومان اسم delictus التي تعني اختيار الجنود المساهمين في الفيالق القنصلية عكس tumulus الذي يعني الاستنهاض الجماعي للجيش الذي لم يكن يخضع لعملية اختيار. وبعد أن تكون الفيالق يؤدي الجميع وبشكل فردي قسم الاخلاص والطاعة للقنصل sacramentum ثم تقدم القرابين فيكون الجيش جاهزا للمعركة.

التنظيم والتأطير :

يعتبر الفيلق الوحدة الاستراتيجية للجيش الروماني. وقد رأينا أن الجيش القنصلي كان يتكون في الأوقات العادية من أربعة فيالق. وكل فيلق مكون من 4500 رجل موزعين كالتالي : 300 فارس، 3000 جندي من المشاة ذوي الأسلحة الثقيلة و 1200 من فرق المشاة الخفيفة التي كانت تشكل من المواطنين الفقراء vélites. أماالفرسان فقد كانوا يقسمون إلى عشر سرايا تضم كل سرية منها 30 فارسا turmae كانوا يتقدمون بمجموعات مشكلة من 10 فرسان ويقودها قائد يدعى decurion. وقائد المجموعة الأولى توكل اليه مهمة قيادة السرية كلها.

أما تنظيم المشاة فقد كان يعتمد على المانبولة Manipule التي تعتبر الوحدة التكتيكية القاعدية في الفيلق. فكل فيلق كان يضم 60 سنتورة تشكل بدورها 30 مانبولة. والمانبولة تتشكل من اجتماع سنتورتين. ولم تكن كلها تضم نفس العدد من الجنود. فكانت مانبولات الصفوف الأولى princeps ومانبولات الصفوف الثانية hastati مكونة من 120 رجلا (60 رجلا في كل سنتورة) في حين أن مانبولات الصف الثالث و التي كانت مخصصة لقدماء الجنود لم يكن يزيد عدد رجالها عن 60 رجلا (30 في كل سنتورة). أما الفيليت Vélites فكانوا مقسمين إلى وحدات صغرى تضم كل منها 20 رجلا وتوزع بين السنتورات لملء الفراغ.

[30] - كان ذوو العاهات يقصون بالطبع من التجنيد. كما يستثنى من هذا الأخير كل الذين ساهموا في عدد كاف من الحملات السابقة وأيضا الأشخاص الذين لهم بعض الالتزامات الدينية التي تحتم عليهم البقاء في روما. كما أن مجلس الشيوخ كان في بعض الأحيان يصدر استشارة تقضي باعفاء أحدهم من الخدمة العسكرية اذا كان قد قدم خدمة عليا للمدينة. وعلى أي فان القانون كان يخول للقناصل الوسائل الزجرية اللازمة لفرض الجندية على المواطنين.

و طبعا كان لهذه الوحدات مؤطروها. ففي قاعدة التأطير نجد «قواد السنتورات» centurions الذين يختارهم القنصل من بين قدماء الجنود الذين أنهوا خدمتهم العسكرية نظرا لخبرتهم في أمور الحرب. وكان كل واحد منهم يقود سنتورة. وما دامت المانبولة تتكون من سنتورتين فان أحدهما كانت توكل اليه مهمة قيادة المانبولة بالاضافة إلى سنتورته. وكان مجموع هؤلاء القواد يصل إلى 60 قائدا في الفيلق الواحد. وكان لهم نفوذ كبير على وحداتهم. أما الحكام العسكريون فقد رأينا أنهم كانوا ينتخبون من قبل المجالس الشعبية وكان يشترط فيهم أن يكونوا من الذين صنفوا ضمن فئة الفرسان. وكان مفروضا عليهم أداء خدمة عسكرية تتراوح ما بين 5 و10 سنوات.

بالاضافة إلى هذه الفيالق المكونة من المواطنين الرومانيين والتي تعتبر النواة الأساسية للجيش الروماني نجد أيضا جيوشا مجندة من اللاتينيين والحلفاء الايطاليين. وكان الجيش اللاتيني يتشكل من فيالق تشبه في تنظيمها الفيالق الرومانية. أما الحلفاء فقد كانوا يشكلون كتائب تحارب كأجنحة في الفيلق الروماني alae. وكانت كتيبة المشاة مكونة من ثلاث مانبولات ويقودها ضابط ايطالي praefectus cohortis. وكل جناح كان يضم جنودا تقارب أعدادهم عدد الجنود في الفيلق الروماني الواحد. وكان على رأس الجناح 3 ضباط حلفاء praefecti sociorum يشترط فيهم أن يكونوا من أصل روماني ويعينون من طرف القنصل. أما جناح الفرسان فقد كان يتشكل من 300 فارس يقسمون على خمس سرايا على رأس كل منها قائد décurion من الحلفاء. أما قائد الجناح فكان من أصل روماني يعينه القنصل ويدعى praefectus equitum.

ورغم أن الجيش الروماني كان يشكل أساسا من المواطنين الذين يدفعون الضرائب فانه انطلاقا من القرن الرابع قبل الميلاد على الأقل أصبح الجنود يتقاضون أجرا stipendium من خزينة الدولة. فكل جندي يحصل على حصة من المواد الغذائية الأساسية وكذلك كان الأمر بالنسبة لجنود الحلفاء الايطاليين. أما الربح الحقيقي للجنود فكان مصدره الغنائم التي يوزع جزء منها عليهم.

وحينما تنتهي الحملة العسكرية يحل الجيش ويعود الجنود إلى حياتهم العادية. ولكن ذلك كان من الناحية المبدئية فقط. فعندما دخلت روما مرحلة التوسع وأخذت تجهز الجيوش إلى أماكن نائية أصبحت تحتفظ بنفس الجيش لمدة طويلة حيث يقوم بحملات متعددة.

نصوص

1 . اختيار روملوس الصائب

«كيف أمكن لروملوس أن يضمن بشكل الهي امتيازات البحر وأن يتجنب في نفس الوقت سلبياته لولا قيامه باختيار موقع مدينته على ضفة نهر لا ينضب ومنتظم، يتوفر على مصب واسع على البحر، يمكن للمدينة أن تستورد عبره الأشياء التي تحتاجها وأن تصدر فائضها؟. . . فهي لا تستغل هذا النهر لاستيراد المواد الضرورية لحياتها المادية والثقافية عن طريق البحر فقط، بل إنها تستقبلها بواسطة السفن من المناطق الداخلية أيضا. وبالتالي فقد سبق لي أن تنبأت بأن مدينتنا كان [مقدرا لها] أن تصبح ذات يوم المقر الذي يحوي كرسي السلطة العليا. وبالفعل فان سلطاننا على العالم واسع، لم يكن أبدا بمقدور أية مدينة أخرى خارج ايطاليا أن تحافظ عليه.

«وبالنسبة لعناصر الحماية الطبيعية للمدينة نفسها، فمن هذا الأبله الذي لا يستطيع أن يلاحظها وأن يتبينها بوضوح؟ ان تخطيط ومحيط سورها الذي تتاخمه من كل جهة – بفضل حكمة روملوس والملوك الآخرين– تلال منحدرة ووعرة بشكل أصبحت معه الطريق الوحيدة التي يمكن أن تربط الأسكلان بالكيرنال مقطوعة بسور جد مرتفع محاط بخندق واسع. أما الحصن الذي يعتمد في حمايته على سور مرتفع فهو يقع على صخرة منحوتة. . . ذلك أنه حتى في العهود القديمة والكارثية [التي عرفت فيها روما] الغزوة الغالية فان الحصن لم يتعرض لاية آفة. . . لقد اختار [روملوس] مكانا غنيا بالعيون، مكانا صحيا في منطقة غير صحية. والتلال نفسها تتصدى للرياح وتمنح الظلال للوديان. . . »

شيشيرون ، *الجمهورية* ، *II*، 5-6

2 . روما : خصوصيات الموقع

«لم يكن اختيار الآلهة والناس لهذا الموقع قصد تأسيس مدينتنا بدون أسباب : فهذه التلال ذات الهواء النقي، وهذا النهر الذي يأتي لنا بمنتجات المناطق الداخلية والذي تسير

فيه السفن نحو علية النهر، وبحر قريب [لقضاء] حاجياتنا ولكن تفصلنا عنه مسافة كافية تحمينا من الأساطيل الأجنبية، وموقعنا في مركز ايطاليا نفسها : كل هذه الايجابيات تشكل الموقع الأكثر امتيازا [لاستقرار] مدينة موعودة بالمجد. »

تيتوس ليفوس، التاريخ الروماني، V، 54، 4.

3. روما : البداية

«يحكى أن الذين أسسوا روما وسكنوها في البداية هم الطرواديون الذين ظلوا الى ذلك الحين مشردين دون مقر اقامة ثابت بعد فرارهم من وطنهم بقيادة ايناس. وقد انضم اليهم الأبوريجان Aborigènes، وهو شعب خشن، لا يعرف القوانين ولم تكن له حكومة [بل] يعيش في فوضى عارمة. وحينما اجتمع هؤلاء الرجال ذوو الأصول المختلفة واللغات والتقاليد المختلفة داخل نفس الأسوار، امتزجوا بسهولة لا تصدق في جسم أمة واحدة. لدرجة أنهم احتاجوا الى وقت قصير لكي تحول الوحدة هذه الجموع المتنوعة والمتسكعة الى دويلة-مدينة.

«غير انه حينما زاد عدد سكان دولتهم وزادت عاداتها وأراضيها، وما دام أنها بدت وقد بلغت درجة من القوة والازدهار، وتبعا للمجرى العادي لشؤون البشر، فان رخاءها ولد الطمع. وهكذا، [قام] الملوك والشعوب المجاورون لها بمحاربتها، ولم يقدم لها المساعدة سوى قليل من أصدقائها فقط. أما الآخرون الذين مسهم الرعب فقد ركنوا بعيدا عن الخطر. ولكن، سواء في الداخل أو في الخارج كان الرومان يترقبون [كل شيء]. لقد كانوا يبادرون بسرعة، يتهيأون، يشجعون بعضهم البعض، يهاجمون الأعداء، ويحمون بأسلحتهم الحرية والوطن والأقارب. ثم إنهم حينما مكنتهم شجاعتهم من دفع الخطر، قدموا العون لحلفائهم وأصدقائهم. فالصداقات التي ضمنوها [هي نتيجة] الخدمات التي أدوها أكثر مما هي نتيجة الخدمات التي تلقوها. ولقد كانت لهم حكومة تنظمها قوانين تعرف باسم الملكية. والنخبة التي تجتمع في جسد أضعفته السنون والتي تسكنها روح تقويها الحكمة، كانت تحرص على سلامة الدولة. ونظرا لسنهم أو لتشابه مهماتهم فان هؤلاء الرجال كانوا يلقبون بالآباء.

«وحينما تم تحويل السلطة الملكية -التي تم اقرارها في البداية من أجل صيانة الحرية وتوسيع الدولة- الى نظام استبدادي متغطرس، وقع انقلاب في النظام عوض [الملكية] بحكومة سنوية موكلة الى قائدين. . . »

سالوست، مؤامرة كاطالينا، 6

4 . سلطات الملك ومجلس الشيوخ والشعب

«لقد احتفظ روملوس للملك بسلطاته : أولا رئاسة الأمور المقدسة وتقديم القرابين وانجاز كل ما نصت عليه إرادة الاله، وتدبير [أمور] العدالة حسب القانون الطبيعي والقانون الموضوع باعتباره حامي قوانين وأعراف الأجداد : محاكمة الجرائم الكبرى، احالة أقلها أهمية على الشيوخ، التنبيه الى عدم ارتكاب أي خطإ أثناء المحاكمة ؛ جمع مجلس الشيوخ واستدعاء الشعب [للاجتماع]، والتعبير عن رأيه [قبل غيره]، وتنفيذ قرارات الأغلبية.

«كما أعطى لمجلس الشيوخ شرف وسلطة القرار في كل القضايا التي يعرضها عليه الملك والتعبير عن ذلك بالتصويت. ورأي الأغلبية هو الذي ينتصر. . . وخول لجموع الشعب السلطات الثلاثة الآتية : انتخاب الحكام، المصادقة على القوانين، وتقرير [أمور] السلم والحرب عندما يطلب الملك منها ذلك. ولكن حتى في ذلك الوقت لم تكن سلطة الشعب بدون مراقبة، فهو يحتاج الى موافقة مجلس الشيوخ. ولم يكن الشعب يصوت كله بل كان يستدعى عبر الكوريات، وما كان يبدو صالحا لأغلبية الكوريات كان يسند بعد ذلك الى مجلس الشيوخ».

ديونيسوس الهاليكارناسي، II، 14، 1-3 .

5 . اصلاحات الملك سيرفيوس :

أ. التقسيم الى قبائل

«بعد أن قام توليوس باحاطة التلال السبعة بسور، قسم المدينة الى أربع مناطق. وأعطاها أسماء مشتقة من أسماء التلال : فسميت المنطقة الأولى البالاتينا، والثانية السوبورانا والثالثة الكولينا والرابعة الايسكلينا. وهكذا أصبحت المدينة التي كانت الى ذلك الحين مقسمة الى ثلاث قبائل تضم من الآن فصاعدا أربع قبائل. وقد أمر سكان كل واحدة من المناطق الأربع وكذا الفلاحين بعدم تغيير سكناهم وقبيلتهم. كما أصدر مرسوما ينص على أن عملية التجنيد ورفع الضرائب –سواء تلك التي تجمع من أجل الجيش أو تلك التي تدفع للجمهورية لأغراض أخرى– تتم في اطار القبائل المحلية الأربع التي أنشأت وليس حسب القبائل العشائرية الثلاث كما كان عليه الحال في السابق. كما عين قوادا على رأس كل واحدة من هذه القبائل. »

ديونيسوس الهاليكلرناسي، IV، 14، 1-2 .

ب. الاصلاحات السياسية والعسكرية

«. . . و اعتمادا على الثروة كقاعدة، أنشأ [أي سيرفيوس توليوس] الطبقات والستورات، وهو تنظيم يصلح في الحرب والسلم.

فمن كل الذين يتوفرون على ثروة مقدارها مائة ألف آس أو أكثر كون ثمانين سنتورة -أربعون منها [تضم] المتقدمين في السن وأربعون [تضم] الشبان، وقد أخذت كلها اسم الطبقة الأولى. ولقد كان الكبار مسؤولين عن الدفاع عن المدينة، أما الشباب فكانوا فمسؤولين عن قيادة الحروب الخارجية. وحصل هؤلاء على أسلحة دفاعية مكونة من قبعة ودرع دائري وساقيتين وترس، كلها من البرونز، وعلى أسلحة هجومية مكونة من رمح وسيف. وقد اضاف الى هذه الطبقة سنتورتان من العمال الذين يؤدون الخدمات دون سلاح وكلفهم بصيانة الآلات في أوقات الحرب. وشكل الطبقة الثانية من كل الذين يملكون ثروة تتراوح بين مائة ألف وخمسة وسبعين ألف أس. وكانت تضم عشرين سنتورة سواء من الكبار أو من الشبان. وكان لها من الأسلحة الدرع المستطيل عوض الدائري وباقي أنواع الأسلحة الأخرى باستثناء الترس. وحدد ثروة الطبقة الثالثة بخمسين الف آس، وظل عدد السنتورات دون تغيير وكذا التقسيم حسب السن. ولم يقع أي تغيير في الأسلحة باستثناء أنها لا تتوفر على الساقيتين. وكانت ثروة الطبقة الرابعة خمسة وعشرون ألف آس : أما عدد السنتورات فقد ظل نفسه في حين اختلفت الأسلحة : فلم يكن لها من الأسلحة الا الرمح والحربة. [أما] الطبقة الخامسة التي كانت أكثر عددا فقد تشكلت منها ثلاثون سنتورة كانت مسلحة بالمقلاع وقاذفات الحجر. وقد ضمت اليها عازفي الصور والمزمار الذين قسموا الى سنتورتين. وكانت ثروة هذه الطبقة أحد عشر الف آس. ومن بقية الشعب، أي الذين تقل ثروتهم عن ذلك، كون [توليوس] سنتورة وحيدة معفية من الخدمة العسكرية.

وبعد أن جهز ووزع وحدات المشاة على هذا الشكل، أنشأ اثنتي عشرة سنتورة من الفرسان تم اختيارهم من أعيان المدينة. واضافة الى ذلك أنشأ ستة سنتورات من الفرسان من تلك التي أنشأها رومولوس واحتفظ لها بالاسم الذي أعطاه لها الكهنة. ولكي يشتروا الأحصنة كانت خزينة الدولة تمنحهم عشرة آلاف آس. ولتغذيتها، فرضت على الأرامل مساهمة سنوية مقدارها ألفي آس. وهكذا، سقطت هذه التبعات عن الفقراء ليتحملها الأغنياء. ولكن اضيفت اليها التشريفات. فاذا كان الملوك الآخرون قد احتفظوا فعلا بالتقاليد التي وضعها رومولوس، [فان توليوس] لم يعط للجميع دون تمييز حقا في التصويت متساوي القوة . . . لقد وضع درجات بشكل لا يبدو معه أحد مقصيا من حق التصويت، ومع ذلك فان السلطة كلها تتركز عند أعيان المدينة. لقد كان الفرسان أول من يتم استدعاؤهم للتصويت، ثم السنتورات الثمانون للطبقة الأولى ؛ وعندما يقع خلاف بينهم وهو شيء نادر، تستدعى الطبقة الثانية للتصويت. ولا يتم النزول أبدا الى الطبقات الدنيا. . . »

تيتوس ليفوس، التاريخ الرماني، 1، 42، 5-43، 11.

6 . استبداد لوكيوس طاركينوس

«لقد أصبح لوكيوس طاركينوس الذي خلف توليوس سيد روما بقوة السلاح وليس عن طريق استعمال القوانين الموجودة. لقد وقع ذلك في السنة الرابعة من مهرجان الألعاب الأولمبية الواحد والستين، تلك التي حصل فيها أغاطارك من كورسير على جائزة المسابقة، في الوقت الذي كان فيه هرقل أركونتا [حاكما] بأثينا [435 ق. م.]. وبإظهاره احتقاره الكلي ليس فقط للشعب بل أيضا للبطاركة الذين دفعوه نحو السلطة، وبخلطه ونقضه للعادات والقوانين وكل النظام القديم الذي سهر الملوك الذين سبقوه جاهدين على وضعه كزينة حول المدينة قام بتحويل نظام حكم الدولة . . . الى استبداد مفتوح. فقد عمد أولا الى اقامة حرس يضم أكثر [الرجال] حزما سواء من الأجانب أو الأهالي : لقد كانوا مسلحين بالسيوف والرماح يسهرون الليل عند مدخل قصره، ويرافقونه نهارا الى بعض الأمكنة التي يرتادها، يضمنون له حماية دائمة ضد كل المكائد التي يمكن أن تحاك ضده. ثم انه [في مرحلة ثانية] لم يعد يظهر كثيرا في الخارج وخصوصا في أوقات محددة. واذا ما حصل وظهر في الأماكن العامة فان ذلك يكون نادرا وفي الأوقات التي لا يّنتظر فيها كثيرا. وقد كان في أغلب الأوقات يعالج أمور الدولة في بيته في اطار مناقشات ودية مع أصدقائه ومقربيه. وكان من النادر أن يباشر الأمور في الساحة العمومية. ولا يسمح بالدخول عليه الا للذين أذن لهم بذلك، وحتى هؤلاء لم يكن يخصص لهم استقبالا لطيفا، بل انه كان يبدو كطاغية قاس لا يطاق : وجه شديد الغضب أكثر قدرة على اشعار المرء بالخوف من أن يمنحه الاحساس بالارتياح. ولم يكن يفصل في القضايا المتعلقة بالعقود والاتفاقيات المتنازع حولها بالعدالة أو بالقوانين ولكن حسب هواه ومزاجه».

دونيس الهاليكارناسي، أثريات رومانية، IV ، 41 .

7 . قانون اللوحات الاثنتي عشرة

سبق أن أشرنا في الفصول السابقة الى أن النص الأصلي لقانون اللوحات الإثنتي عشرة قد ضاع وأن الشذرات التي نقلتها بعض المصادر هي التي شكلت أساس محاولة اعادة بناء النص التي قام بها بعض الباحثين المحدثين. هذه بعض تشريعات هذا القانون :

اللوحة الأولى

1. اذا استدعي شخص ما للقضاء فعليه أن يمتثل. واذا لم يمتثل فيجب اللجوء الى شهادة أحد الأشخاص ثم يقبض عليه.

2. أهو يتحايل أو يهيىء نفسه للفرار؟ فليلق عليه القبض.

3. اذا كان المرض أو الشيخوخة يجعلان [المدافع] في حالة ضعف، فان [المدعي] يقوم بتأمين وسيلة نقله.

4. كل شخص خاضع للضرائب يحصل على ضامن يكون أيضا دافعا للضرائب. أما البروليتاري فيحصل على أي متطوع.

. . .

6. هل هم في حالة تسمح لهم بالتصالح؟ فليتم إعلان ذلك فورا.

7. اذا لم يتصالحوا فعليهم أن يقدموا عرضا وجيزا لقضيتهم أمام المجالس أو في السوق قبل الزوال. وعلى الطرفين أن يكونا حاضرين طوال مدة العرض .

8. وبعد الزوال ليمنح الحق لمن حضر [منهما].

9. واذا حضر الاثنان فليكن غروب الشمس هو موعد الختام.

10. (عندما يقدم اولوجيل، الليالي الأتيكية، 16، 10، 8، نقاشا بين بعض الأصدقاء حول تحديد مفهوم لفظ «بروليتاري» يقول :

«ان ألفاظ «بروليتاريين» و«أغنياء» (assidui) و«سناتس» (Sanates)، و«كفالات» (vades)، و«كفالات ثانية» (subvades) و«غرامة 25 آس و«القصاص» و«البحث عن السرقات بالحبل والطست » قد اختفت، وكذلك كل الكلمات القديمة لقانون اللوحات الاثنتي عشرة. . . »

اللوحة الثالثة

1. عندما يتم الاعتراف بدين نقدي وتكون القضية قد بت فيها بمقتضى القانون، يطبق أجل مقداره ثلاثون يوما شرعا.

2. بعد ذلك تكبل يداه [أي الذي عليه الدين] فقط ويقتاد الى العدالة.

3. اذا لم ينفذ [المدين] الحكم، أو على الأقل اذا لم يضمنه أحد أمام المحكمة فليذهب مع الدائن مقيدا بحبل أو بسلاسل تزن 15 ليبرة [500غرام] على الأقل أو أكثر من ذلك كما يحلو [للدائن].

4. ليعش المدين على نفقته الخاصة اذا شاء. واذا لم ينفق على نفسه فليعطه الشخص الذي قيده ليبرة (500 غرام) من الحنطة كل يوم أو أكثر من ذلك اذا شاء.

5. [. . .] (هذه الثغرة التي توجد بين الفقرتين الرابعة والسادسة يمكن أن نملأها بنص لأولو جيل، الليالي الأتيكية، XX ، I، 46-47 ، الذي يقول : «ومع ذلك . . . فقد وجدت وسيلة شرعية للتفاهم، واذا لم يحصل التفاهم [يقضي المدين] ستين يوما في السجن. خلال هذه الفترة الزمنية، وبمناسبة ثلاثة أسواق متتالية، يقتاد المدين أمام القاضي والمجالس، حيث تتم المطالبة بالدين الذي حوكم من أجله. وخلال السوق الثالث يدفع المدينون رؤوسهم ثمنا للعقوبة أو يباعون وراء التبر، في البلاد الأجنبية»

6. لتقسم الحصص خلال السوق الثالث. أن تتم [القسمة] بالزيادة وبالنقصان فان ذلك لايجب أن يؤدي الى خسارة.

اللوحة الخامسة

1. (Caius, Inst., I, 144-145) لقد حرص أجدادنا بالفعل على أن تبقى النساء حتى ولو كن متقدمات في السن تحت الوصاية بسبب طيشهن. . . باستثناء الفيستالات العذارى اللاتي حرص أجدادنا على تمتيعهن بالحرية اعتبارا لتشريفات الكهنوت : ذلك اذن هو الاحتياط الذي أخذه قانون اللوحات الاثنتي عشرة.

2. (Caius, Inst., II, 47) ان أملاك المرأة التي توجد تحت وصاية قريب من جهة الأب لا يمكنها أن تؤخذ بالتقادم كالأشياء المنقولة اللهم في الحالة التي تكون فيها [هذه الأشياء] موضوع تسليم من طرفها وبموافقة من الوصي : ذلك هو الاحتياط الذي نص عليه قانون اللوحات الاثنتي عشرة.

3. أما فيما يخص حق تقرير مصير الثروة أو الوصاية على أملاك [رجل] عن طريق الوصية، فليكن مضمونا.

4. واذا توفي الشخص دون ترك وصية ودون أن يكون له وريث فان أقرب الأشخاص اليه من جهة الأب يصبح صاحب أملاكه.

5. واذا انعدم ذلك القريب فان الأقرباء من العشيرة يصبحون أصحاب الملك.

6. (Caius, Inst., I, 155) للذي لم يختر وصيا بمقتضى وصية، وطبقا لقانون اللوحات الاثنتي عشرة، فالأوصياء عليه يصبحون أوصياء بصفة شرعية.

7. أ-ب. اذا كان الشخص شديد الجنون ومحروما من شخص يحميه [ابوه أو الوصي عليه] فان أقرباءه من جهة الأب وأقرباءه من العشيرة تكون لهم السلطة عليه وعلى أمواله.

8. ج. (Ulp., Dig., 27, 10, 1) «طبقا لقانون اللوحات الإثنتي عشرة فان السفيه يستبعد عن ادارة ثروته».

(Ulp., Dig., 12, 2)" ينص قانون اللوحات الإثنتي عشرة على أن السفيه، اي الشخص الذي حرم من أملاكه، يوضع تحت قوامة أقربائه من جهة الأب.

(Ulp., Dig., 29, 1) " ان تركة العبد المعتق من طرف مواطن روماني تنتقل الى سيده بمقتضى قانون اللوحات الإثنتي عشرة اذا توفي المعتق دون ترك وصية أو وريث.

9 . (Gordien, C.T., 3, 36, 6) ان المقادير المالية التي تم تسليفها مع تعيين أسماء المدينين تقسم طبقا لقانون اللوحات الإثنتي عشرة على أجزاء التركة.

...

اللوحة السادسة

1. في حالة بيع أو نقل ملكية، فمنذ اللحظة التي يتم الاعلان عنها بصوت مرتفع تصبح شرعيتها سارية المفعول.

2 . (Cicéron, De Off., 3, 16, 65) " رغم أن قانون اللوحات الإثنتي عشرة اعتبر أن الاعلان الصريح بصوت [البائع] كضمانة كافية وعاقب المحتج بدفع القيمة مضاعفة فان المشرعين أقاموا عقوبة «التكتم.""

3 . (Cicéron, Topiques, 4, 23) " بالنسبة للعقار فان التمتع الذي يخول حق الملكية يجب أن يدوم سنتين، وسنة واحدة بالنسبة للباقي"

4 . (Caius, Inst. 1, 111) " لقد وضع فصل من فصول قانون اللوحات الإثنتي عشرة في الحسبان الحالة التي لا ترغب فيها امرأة السقوط في يد زوجها بهذه الطريقة (أي بالتقادم في التمتع)، [فنص] على أن عليها أن تغيب ثلاث ليال كل سنة : وهكذا ستحدث قطيعة في مدة سنة.

......

اللوحة السابعة

1 . (Varron, De Lingua Latina, 5, 2) " ان تأويلات قانون اللوحات الإثنتي عشرة تحدد محيط السور بالفضاء الدائري الذي يحيط به.

(Maecianus, De assis distributione. 46) أن تكون قيمة السيستير هي آسين ونصف فان قانون اللوحات الإثنتي عشرة يقدم الدليل على ذلك ما دام يطلق على قدمين ونصف اسم «القدم السيستيري».

2. [يتعلق هذا الفصل بقواعد تخطيط الحدود]

3. [يتعلق هذا الفصل بالمنازل ونوعيتها]

4 . (Cicéron, De Leg., 1, 21, 55) "ان التملك بفعل الاستغلال المستمر قد تم رفضه من طرف قانون اللوحات الإثنتي عشرة في المنطقة المتاخمة بمقدار خمسة أقدام.

5. ...

6 . (Caius. Dig., 8, 3, 8) أما فيما يخص الطرق فان عرضها حسب قانون اللوحات الإثنتي عشرة يصل في الأجزاء المستقيمة الى ثمانية أقدام، وفي المنعرجات. . . ستة عشر.

7. لتكن الطرق ملبسة [بالحجارة]. واذا لم تكن كذلك فلتترك الحيوانات [التي تستعمل في الجر] تسير عليها كما يحلو لها.

8. أ. اذا تسببت مياه الأمطار في خسائر. . .

ب. (Paul, Dig., 43, 8, 5) اذا اخترق وادي أو قناة مكانا عموميا وتسبب في خسائر لأحد الخواص فان قانون اللوحات الإثنتي عشرة قد نص على اجراء يحمي المالك من الضرر.

9. أ. (Ulpien, Dig., 43,27, 1-8) لقد أراد قانون اللوحات الإثنتي عشرة أن يفرض قطع أغصان الشجرة كلما تجاوزت خمسة عشر قدما.

ب. (Pomponius, Dig., 43,27,2) اذا مالت شجرة [أصلها] في الضيعة المجاورة بفعل الرياح وغطت ضيعتك فان قانون اللوحات الإثنتي عشرة يمنحك الحق في اتخاذ اجراءات لقطعها.

10. (Pline l'Ancien, Hist. Nat., A6, 5, 15) لقد سهر قانون اللوحات الإثنتي عشرة على اعطاء الحرية التامة [للشخص] الذي وقعت من [شجرته] بلوطة في ملك غيره من أجل جمعها.

11. (Justinien, Institutiones, 2, 1, 41)إن الأشياء التي يتم بيعها او نقلها لا تصبح في ملك المشتري إلا اذا سدد هذا الأخير ثمنها للبائع أو اذا منحه كل أنواع الاطمئنان كضمانة أو رهن : ذلك احتياط نص عليه قانون اللوحات الاثنتي عشرة.

12 . (Ulpien, 2, 4) هذا هو الشرط الذي بواسطته يمكن [لعبد] معتق بمقتضى عقد إرادي لموص مقابل دفع مقدار ألف (هذه الصيغة ترادف : «قدر معين من المال») للوريث أن يحصل على حريته حتى ولو تنازل عنه هذا الأخير : أن يسدد المقدار المذكور للمشتري. هذا ما نص عليه قانون اللوحات الاثنتى عشرة.

اللوحة الثامنة

1 ... (Cicéron, De Republica, 4, 10, 12; ap. August., De Civ. Dei, 2, 9) رغم أن لوحاتنا الإثنتي عشرة لم تعتبر الا القليل من الاساءات التي تستحق عقوبة الاعدام فانها ارتأت تطبيقه على الأقل في حالة واحدة : هي تلك التي يتم فيها جرح [شعور] شخص ما بأناشيد هجائية أو تأليف أبيات تمس كرامته.

2. اذا بتر [أحدهم] عضو [آخر] ولم يتم التصالح فليطبق القصاص

3 . (Paul, Liber singularis et titulus de Injuriis, Collatio, 2, 5, 5) " اذا اعتدى أحدهم على آخر، فلتفرض عليه غرامة تتراوح بين 5 و 20 سيستير...

. . .

5. اذا حصل ضرر . . . فليعوض

. . .

9 . (Pline l'Ancien, Hist. Nat., XVIII, 3, 12) "إذا ما وقعت غلة ناتجة عن عملية حرث فريسة قطيع في الليل أو اذا تم حصدها واذا كان الفاعل بالغا، فعقوبته الاعدام حسب قانون اللوحات الاثنتي عشرة : لقد كان يقتل شنقا [ويقدم] كقربان للالهة سيريس وهي عقوبة أشد من عقوبة جريمة القتل. أما القاصر فحسب حكم القاضي...

10 . (Caius, Libri IV Ad Legem XII Tab. Dig., 17, 9, 9) ان الذي يضرم النار في بناية أو في كومة قمح مجاورة لمنزل فليؤمر بربطه، ثم بجلده ثم بالقائه في النار ليموت، شريطة أن يكون قد فعل ذلك وهو في كامل قواه ومتعمدا. أما اذا [وقع ذلك] بالصدفة أي نتيجة اهمال فليعوّض الخسائر ، واذا كانت امكانياته متواضعة فلتخفف العقوبة.

...

14 . (Aulu-Gelle, Nuits attiques, 11, 18, 8) ... أما فيما يتعلق بالسارقين الآخرين الذين يكونون في حالة تلبس، فاذا كانوا أحرار النشأة، فان قانون اللوحات الإثنتي عشرة [يفرض] جلدهم ووضعهم تحت تصرف الذي كان ضحية السرقة شريطة أن تكون السرقة

قد وقعت في واضحة النهار وأن لا يكون السارق قد استعمل سلاحا. واذا كان عبدا ومقتنعا باختلاسه فليقبض عليه وليضرب بالقضبان ثم ليلق به من أعلى الصخرة. بالنسبة للأطفال الذين لم يبلغوا سن الرشد فقد أراد قانون اللوحات الإثنتي عشرة أن يجلدوا طبقا لحكم القاضي وأن يعوضوا الخسارة التي أحدثوها.

....

25 . (Caius, Libri IV Ad Legem XII Tab. Dig., 50. 16. 236 pr.) على الذي يصف مخدرا أن يزيد اشارة اضافية تبين ان كان جيدا أو غير صالح : ذلك لأن الأدوية هي أيضا مخدرات.

26 . (Latro. Declam. in. Cat., 19) نعلم أن قوانين اللوحات الإثنتي عشرة قد سهرت على أن لا يثير أحدهم تجمعا في المدينة أثناء الليل.

....

اللوحة التاسعة

1 - 2 (Cicéron, De Legibus, 3. 4. 11) "لا يجب أن يخول أي امتياز (أي أن لا يتم اصدار قانون ذو طابع شخصي يتعلق بحالة ما أو بشخص ما). واذا كان رأس مواطن (أي حياته) في خطر فلتستدع المجالس بمفهومها الواسع (أي السنتورية) التي ستقرر"

...

5 . (Marcianus, Dig., 48. 4. 3) لقد نص قانون اللوحات الإثنتي عشرة على أن كل من أثار تدخل عدو ما أو كل من سلم مواطنا لعدو ما ستفرض عليه عقوبة الاعدام.

6 . (Salvianus, De Gubernatione Dei. 8) اعدام شخص دون محاكمة أصدرت العقوبة : هذا ما منعته نصوص قانون اللوحات الاثنتي عشرة.

اللوحة العاشرة

1. لا يحرق ولا يدفن أي جثمان داخل المدينة.

3 . (Cicéron, De leg., 2. 23. 59) " والمصروف (الجنائزي) محدد في ثلاثة رأسيات للحداد (غطاء للرأس)، وكفن، وعشرة عازفين على الناي. وقد ألغى القانون النواح.

4. لا تندب النساء خدودهن ولتتخل عن نواح الحداد.

5 أ . اذا مات شخص ما فلا تجمع عظامه بهدف تأجيل جنازته الى موعد لاحق

ب. (Cicéron, De Leg., 2, 24, 60) وتستثنى من ذلك حالة الذي يموت في الحرب أو في الخارج.

اللوحة الحادية عشرة

1 . (Cicéron, De Rep., 2, 36-37) بعد أن انتهى مجمع [المشرعين] العشرة من تدوين ما مجموعه عشر لوحات بلغت أعلى درجة من العدل في مجال القضاء وقمة الحكمة، عينوا عشرة رجال آخرين للسنة القادمة. وقد وضع هؤلاء عبر لوحتين اضافيتين مليئتين بالقوانين الجائرة تشريعا لا إنسانيا حول الزواج، بشكل أصبح معه كل زواج بين العوام والبطاركة مستحيلا.

. . . .

اللوحة الثانية عشرة

. . . .

2. تخص الحالات التي يرتكب فيها العبيد أو أبناؤهم جنحا والتي تقضي بتحرير الأب أو بتغريمه عن الخسائر.

. . . .

5 . (Tite-Live, 7, 17, 12) " في قانون اللوحات الإثنتي عشرة هناك قانون ينص أن آخر تعبير عن ارادة شعبية يجب أن يكون له قوة القانون وأن يكون ساري المفعول"

8 . *النقباء وحق النقض*

خلال الاضطرابات التي شهدتها روما في القرن الرابع ق. م. قام نقباء العوام بشل السير العادي لمؤسسات الدولة :

«بعد أن تم انتخاب النقيبين ليكينيوس وسيكستوس قدما مشاريع قوانين كلها موجهة ضد سلطة البطاركة وتخدم مصالح العوام. أحدها كان يتعلق بالديون : بعد أن يتم حسم مجموع الأرباح التي دفعت حتى ذلك الوقت، يتم تسديد الباقي في ظرف ثلاثة سنوات بأقساط متساوية. و[مشروع] آخر كان يتعلق بمساحة الملكيات : لا يمكن لأحد أن يملك

أزيد من 500 جوجير (125 هكتار). و[مشروع] ينص على أن لا تستدعى المجالس لانتخاب الحكام العسكريين ذوي السلطات القنصلية ولكن فقط لانتخاب القناصل الذين يجب أن يختار أحدهم من العوام. كانت كلها اقتراحات مبالغ فيها لم يكن بامكانها أن تقبل دون صراعات كبرى.

انتاب الذعر البطاركة نتيجة هذا الخطر الذي هدد فجأة كل الخيرات التي تشتد رغبة رجالهم فيها : أراضي، أموال، مراتب شرفية، فأخذوا يهيجون في نقاشات عامة وخاصة. ولم يجدوا علاجا [لهذه الوضعية] سوى اللجوء الى النقض الذي سبق أن استعمل في العديد من الصراعات السياسية السابقة. [فلكي يعطلوا] اقتراحات القوانين [التي تقدم بها] النقيبان، كسبوا تأييد بعض زملائهم الآخرين. وحينما رأى هؤلاء أن ليكينيوس وسيكستيوس قد دعوا النقباء الى التصويت للتعبير [عن آرائهم] عارضوا قراءة الاقتراحات والقيام بالطقوس الرسمية التي تسبق اصدار قانون عامي plébiscite، وهم محاطون بحرس بطركي. وهكذا تم استدعاء المجلس عدة مرات دون جدوى واعتبرت الاقتراحات مرفوضة : «حسنا، صاح سيكستيوس، مادام [البعض] يريد أن يعطي لحق النقض كل هذه السلطة، فاننا سنستعمل نفس السلاح لكي نحمي الشعب. هيا أيها البطاركة، استدعوا المجالس لانتخاب الحكام العسكريين. سأعمل بطريقة تجعلكم لا تجدون سببا للابتهاج عندما تسمعون كلمة النقض هذه التي تسمعونها بسرور غامر الآن وزملاؤنا يتغنون بها بشكل جماعي». ولم تكن تهديداتهما عبثا. فقد أضحى مستحيلا عقد أي مجلس اللهم من أجل انتخاب مراقبي ونقباء العوام. . . . أما ليكينيوس وسيكستيوس فقد أعيد انتخابهما باستمرار، ومنعا عقد المجالس لتعيين الحكام العسكريين. وهكذا ظلت المدينة بدون حكام لمدة خمس سنوات.»

تيتوس ليفوس، التاريخ الروماني، VI، 35، 6-10.

9. الدستور الروماني كما قدمه مؤرخ إغريقي

«. . . وهكذا فإن ثلاثة عناصر تتمتع بالسلطة في ظل هذا الدستور . . . وبفعل نشاطها فإن كل الأمور كانت منظمة و مستمرة بشكل متوازن ومتلائم لدرجة أنه لا يمكن لأي شخص ، حتى ولو كان من أهل البلد ، أن يجزم بأن النظام بكامله كان أرستقراطيا أو ديموقراطيا أو ملكيا. هذه الحيرة هي أمر عادي جدا. ذلك أنه حينما ننظر إلى سلطات القناصل ، يبدو النظام ملكيا للغاية ، غير إنه من خلال اعتبارنا لسلطة مجلس الشيوخ ، يبدو هذه المرة وكأنه نظام حكم أستقراطي . وإذا نظرنا الآن لسلطة الشعب ، فيبدو واضحا أنه ديمقراطي. إن القطاعات التي كانت تغطيها اختصاصات كل شكل من أشكال الحكم (المذكورة) كانت ، ولا تزال - رغم بعض التغييرات الطفيفة - كالتالي :

12. فحينما يكون القناصل في روما، قبل أن يقودوا الفيالق، فان سلطتهم تشمل كل الشؤون العامة، (2) مادام الحكام الآخرون تابعين وخاضعين لهم، باستثناء النقباء، وما داموا مسؤولين عن تقديم السفارات الى مجلس الشيوخ. (3) علاوة على ذلك فهم الذين يرفعون القضايا المستعجلة لمداولات المجلس، وهم الذين يسهرون على تنفيذ قراراته. (4) بالاضافة الى أنه في قضايا الدولة التي يكون البث فيها من اختصاص الشعب، فانهم مسؤولون عن استدعاء المجالس، وتقديم الاقتراحات، والاشراف على تطبيق قرارات الأغلبية. (5) ثم ان سلطتهم فيما يتعلق بالاعداد للحرب بصفة عامة وبقيادة العمليات العسكرية هي شبه مطلقة. (6) فقد كان بامكانهم بالفعل أن يصدروا الأوامر للحلفاء كما يحلو لهم، وأن يعينوا الضباط العسكريين، وأن يجندوا الأفراد وأن يختاروهم حسب مؤهلاتهم. (7) اضافة الى ذلك كانوا يملكون السلطة التي تخولهم تطبيق الجزاء الذي يرونه (ملائما) على كل الذين يقعون تحت امرتهم أثناء الحملة. (8) كما كان باستطاعتهم أن يدفعوا المصاريف التي يقرونها من المال العام ما دام يرافقهم أمين المال الذي كان مستعدا لتنفيذ أوامرهم. (9) وهكذا فاذا اعتبرنا هذا العنصر في نظام الحكم يصبح عاديا القول بأن النظام كان . . . ملكيا محضا. واذا كان حقيقيا أن بامكان هذه السمات أو تلك التي سنعرض لها أن تعرف بعض التغيير في وقتنا أو في وقت من الأوقات، فذلك لن يمس على كل حال الحكم الذي أصدره هنا.

13. أما مجلس الشيوخ فمن جهته له السلطة على الخزينة. فهو يراقب كل المداخيل والمصاريف. (2) فبدون مرسوم صادر عن المجلس لا يمكن . . . للأمناء أن يدفعوا أي مصروف للأغراض الخاصة، باستثناء الدفوعات الخاصة بالقناصل ؛ (3) أما النفقة التي تقع على رأس مصاريف الخزينة، لكونها تمثل أثقل المصاريف، والتي يقوم بها الكنصورات كل خمس سنوات من أجل ترميم أو انشاء المباني العمومية، فهي تخضع لرخصة مجلس الشيوخ الذي يعطي موافقته للكنصورات. (4) اضافة الى ذلك فان كل الجرائم التي ترتكب في ايطاليا والتي تستدعي القيام ببحث رسمي -كقضايا الخيانة أو التآمر أو التسميم أو القتل- فانها تخضع لسلطة مجلس الشيوخ القضائية. (5) ثم انه في الحالة التي يتصرف فيها أحد الخواص أو احدى المدن في ايطاليا تصرفا يستدعي تحكيما أو توبيخا أو ارسال مساعدة أو حامية عسكرية، فان مجلس الشيوخ هو الذي يتولى القيام بكل ذلك. (6) أضف الى هذا أنه عندما يصبح ضروريا ارسال سفارة خارج ايطاليا للقيام بتحكيم أو لاسداء نصيحة بل حتى لاصدار أمر، أو لقبول استسلام (عدو)، أو لاعلان حرب، فان المجلس هو الذي يدبر ذلك. ونفس الشيء بالنسبة للسفارات التي تصل الى روما. فالاستقبال الذي يجب أن يخصص لكل سفارة والجواب الذي يجب أن يقدم هي أمور يبث فيها المجلس بمفرده. وكل القضايا التي تحدثنا عنها لا يتدخل فيها الشعب أبدا. (8) وهكذا فان

المقيم بروما أثناء غياب القناصل يجد النظام هذه المرة أرستقراطيا تماما. (9) فكثير من الاغريق ومن الملوك أيضا مقتنعون بذلك لأن الأمور التي تخصهم تحل كلها من طرف مجلس الشيوخ.

14 . في ظل هذه الظروف، عندما يتمتع مجلس الشيوخ بالسلطة في المجالات التي ذكرناها، خصوصا تلك النقطة الهامة القاضية بان كل القضايا المرتبطة بالمداخيل والمصاريف هي من اختصاصه من جهة، ومن جهة أخرى حينما يكون للقناصل مطلق السلطة لاعداد الحرب ومطلق السلط (لادارة) العمليات أثناء الحملات، من الطبيعي أن نتساءل عن خصائص وطبيعة الجزء (من السلطة) الذي ترك للشعب في هذا النظام. (3)ومع ذلك فان قسما (من السلطة) قد ترك للشعب بل انه قسم هام. (4) ففي ظل هذا الدستور يعتبر الشعب سيد التشريفات والعقوبات ؛ ومن هنا فقط والحالة هذه يتم حماية السلطات الشخصية والأنظمة الدستورية على السواء من التفكك، وباختصار حماية الحضارة كلها.

(5) عند الشعوب التي يكون فيها التفريق بين القيم مهملا أو مطبقا بشكل غير لائق مع أنه معترف به، لا يمكن ادارة قضية من القضايا بشكل سليم : اذ كيف يكون ذلك معقولا حيث يحظى الطيبون والخبيثون بنفس المكانة؟ (6) هكذا اذن فان الشعب يبث في العديد من الحالات القضائية التي تفرض فيها غرامة مالية اذا كانت الجنحة المقترفة (تستدعي دفع غرامة كبيرة وخصوصا اذا كان المتهمون من الذين سبق لهم أن شغلوا وظائف هامة. والشعب وحده المختص (بمحاكمة التهم الكبرى. (7) وبهذا الصدد يطبق في روما تقليد يستحق أن نؤيده وأن نذكر به. ففي محاكمة كبرى، عندما يكون المتهم معرضا للعقوبة، فان التقليد الروماني يمنحه الحق في مغادرة روما دونما حاجة الى التستر بقبوله النفي الاختياري ما دامت قبيلة واحدة من القبائل التي تصدر الحكم لم تصوت بعد. (8) هؤلاء المنفيون يجدون الأمن في مدينة نابلس، وبرينست، وكذلك في طيبور وفي غيرها من المدن التي تربطها بروما معاهدات. (9) ثم ان الشعب هو الذي يمنح المناصب للذين يستحقونها : انها أجمل مكافأة للفضيلة في دولة ما. (10) وله السيادة أيضا فيما يخص التصويت على القوانين. وهو الذي يناقش قضايا السلم والحرب بالخصوص. (11)بالاضافة الى أنه فيما يتعلق بالتحالفات أو نهاية الحروب أو الاتفاقيات هو الذي يؤكد ويصادق أو يرفض كل قرار. وهكذا، وبعد هذا كله، يصبح من الطبيعي هذه المرة القول بأن الشعب يملك الجزء الأكبر (من السلط) وأن النظام ديموقراطي.

15. بهذه الطريقة اذن قسمت مسؤوليات الدولة بين مختلف أشكال الحكم. والآن سنفسر كيف يمكن لكل عنصر من هذه العناصر أن يعارض اذا شاء العناصر الأخرى، أو بالعكس أن يتعاون معها. (2) حينما يرحل القنصل مع جيشه وهو مخول السلط التي

ذكرناها، يبدو وكأنه يملك سلطة مطلقة ليؤدي مهمته، (3) ولكنه يحتاج أيضا الى الشعب والى مجلس الشيوخ، اللذين بدونهما لا يمكنه أن يقود العمليات حتى النهاية. فبدون الموافقة الصريحة لمجلس الشيوخ لا يمكن تموين الفيالق بالحبوب والملابس والرواتب، بشكل تصبح معه مبادرات القواد مشلولة اذا ما اختار مجلس الشيوخ موقفا (يعبر) عن سوء النية و(يرمي) الى العرقلة. . . (6) اضافة الى ذلك يتوقف تحقيق أو عدم تحقيق مشاريع ونوايا القواد على مجلس الشيوخ. لانه هو صاحب السيادة في اتخاذ قرار ارسال جنرال جديد عندما ينهزم الجيش أو الابقاء على الجنرال السابق. ثم ان هذا المجلس يمكنه أن يضخم أو يهول من انتصارات القواد أو على العكس من ذلك أن يحط من شأنها. فالاحتفال الذي يدعى في روما ب«النصر» والذي يسمح (خلاله) للقواد أن يعرضوا أمام أنظار مواطنيهم مشاهد منجزاتهم الباهرة لا يمكن أن يقام بشكل لائق بل لا يمكن تخليده البتة في بعض الأحيان اذا لم يوافق مجلس الشيوخ ولم يمنح المال اللازم لهذا الغرض. (9) لكن على القناصل أيضا أن يبحثوا بالضرورة على موافقة الشعب حتى ولو وجدوا على بعد مسافة كبيرة من وطنهم. فالذي يصادق أو يلغي الهدن والمعاهدات هو الشعب كما أشرت الى ذلك من قبل. (10) ولكن الأهم من ذلك كله هو أنهم عندما ينهون مهامهم، يجب عليهم أن يقدموا تقريرا عن أعمالهم أمام مجلس الشعب. (11) وهكذا فان اهمال محاباة مجلس الشيوخ والشعب يشكل مجازفة بالنسبة للقناصل من جميع وجهات النظر.

16 . ولكن، ورغم كل قوته، فان مجلس الشيوخ بدوره يجد نفسه مضطرا الى البحث. . . قبل كل شيء عن رضى(موافقة) الشعب في قيادة الشؤون العامة. (2)كما أنه لا يستطيع ممارسة سلطته في تقصي الحقائق والردع في الحالات الخطيرة و الهامة المتعلقة بجرائم ضد الدولة والتي يصل الحكم فيها الى عقوبة الاعدام، لا يمكنه ممارستها اذا لم يصادق الشعب على اقتراحه الأولي. (3) ونفس الشيء ينطبق على الاجراءات التي تخص مجلس الشيوخ نفسه : فإنه يقترح قانونا يحرم المجلس من جزء من سلطته التقليدية أو يبطل حقوق الأولوية وامتيازات الشيوخ أو يقلص من مداخيلهم. فان الشعب هو السيد الذي يقرر في اصدار أو عدم اصدار هذا النوع من النصوص. (4) لكن النقطة الأساسية هي أن معارضة أحد نقباء الشعب كافية لمنع المجلس من تطبيق قراراته، بل لمنعه من الاجتماع. (5) فهؤلاء النقباء يجب عليهم أن يطبقوا في كل هذه المناسبات ارادة الشعب وأن يبحثوا عن الوفاق العام مع رغباته. وهكذا، ونظرا لكل الأسباب التي ذكرناها فان مجلس الشيوخ يتخوف من الشعب ويأخذه بعين الاعتبار.

17 . وللشعب بدوره وبنفس الشكل واجبات نحو مجلس الشيوخ وعليه أن يبحث عن رضاه على المستوى العام وعلى المستوى الشخصي. (2) في الواقع، ان عددا هاما من عقود الاتفاق (العمومية) التي يصعب حصرها والتي تخص صيانة أو انشاء المباني العمومية

في ايطاليا كلها تمنح (عن طريق المزايدة) من طرف القنصورات. كما يتم كراء العديد من قنوات المياه والموانئ والغابات والمناجم والأراضي، وبشكل عام كل ما يخضع للسيطرة الرومانية. والحاصل أن كل هذه المشاريع تستأجر من قبل الشعب والكل تقريبا . . . يهتم بهذه العقود وبالموارد التي تدرها. (4) فالبعض يحصل على الأسواق لنفسه من الكنسورات، وآخرون يشتركون مع الأوائل وآخرون يعملون كمستأجرين، وآخرون يؤدون من مواردها لمالية الدولة لأجل هذه الأعمال. . . . (5) وكل هذه القضايا تخضع لسلطة مجلس الشيوخ. فهو الذي يمكنه اعطاء مهل وتخفيف الدين في حالة وقوع حدث ما، (بل يمكنه) أن يحرر (الشخص) من العقد عند الضرورة القصوى. (6) ولهذا السبب هناك ظروف يتحمل فيها هؤلاء الذين يدبرون الأموال العامة خسائر كبرى أو على العكس يحصلون على امتيازات هامة بسبب مجلس الشيوخ : ذلك لأنه يعتبر المرجع في كل تلك القضايا. ولكن الأهم من ذلك كله هو أن القضاة الذين يحاكمون أغلب القضايا الهامة التي تهدد (أمن) الدولة أو الخواص يتم اختيارهم من بين أعضاء المجلس. هناك شيء آخر : فمادام أن كل المواطنين خاضعين لرحمة المجلس ويخضعون لتقلبات الضرورة فانهم يحترسون من المعارضة والتصدي لهذه الرغبات (أي رغبات الشيوخ). (9) وكذلك الشأن بالنسبة للقناصل، فالشعب يتردد كثيرا في التصدي لمبادراتهم لأن الكل يكون تحت امرتهم خلال الحملات. . .

18 . تلك اذن هي سلطة كل عنصر من عناصر هذا النظام التي (تستعمل) لمعارضة السلطات الأخرى أو التعاون معها. (والواقع) أن هذه العناصر) تنسجم بشكل ملائم مع كل الظرفيات لدرجة أنه من المستحيل اكتشاف نظام سياسي أفضل من هذا. (2) وعندما يظهر خطر خارجي يهدد الوطن والذي يرغمهم على الوفاق والتعاون، فان النظام يكشف عن قوة كبريوصلبة لدرجة أنه. . . لا يهمل أي واجب لان الكل يتنافس في التخيل لمواجهة كل الاحتمالات. ومن جهة أخرى فان القرار لا يتأخر عن الحدث، فالكل يعمل كجسد واحد وكل فرد يقدم العون قصد تحقيق المشروع. (4) لذلك كانت أصالة هذا النظام تكمن في كونه يتضمن فعالية لا تقاوم تسمح ببلوغ كل هدف يحدده. . . »

بوليبيوس ، تاريخ الرومان ، 6 ، 11 ، 11 - 18-4

10 . الجيش الروماني

«19. (1) بعد تعيين القناصل يتم تعيين الحكام العسكريين منهم 14 يؤخذون من الأشخاص الذين شاركوا في الحملات لمدة خمسة سنوات ومعهم عشرة آخرون يؤخذون من اللذين شاركوا فيها مدة عشر سنوات. (2) أما المواطنون الآخرون فعليهم بالضرورة أن يؤدوا الخدمة العسكرية اما عشر سنوات كفرسان أو ست عشرة سنة كمشاة قبل أن يبلغوا

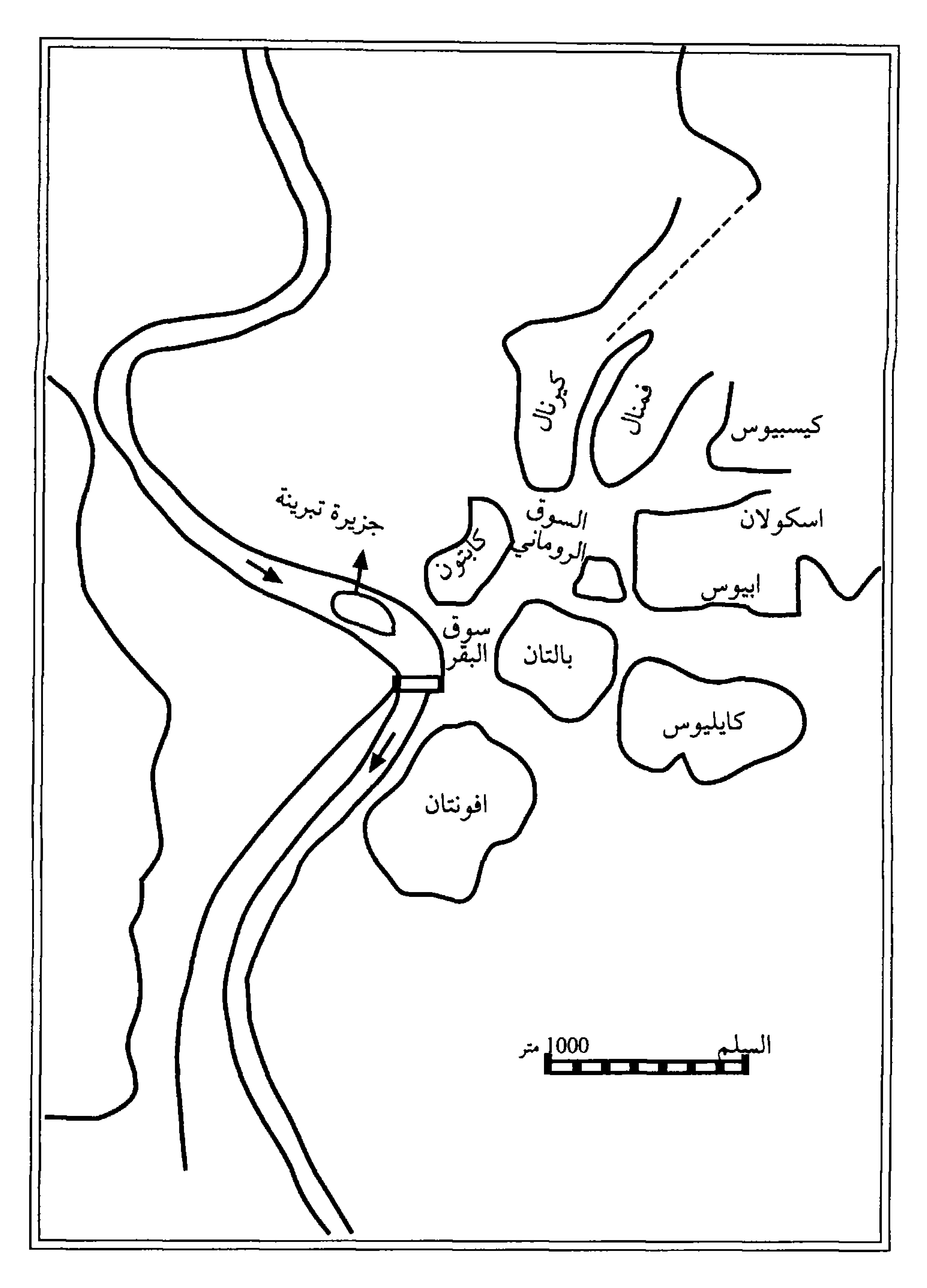
ستة وأربعين سنة باستثناء الذين يقل رأسمالهم عن 400 دراخمة (4000 آس؟) والذين يحتفظ بهم جميعا للعمل في البحرية. (3) ولكن يمكن تمتد فترة تجنيد المشاة الى عشرين سنة اذا ما دعت الضرورة الى ذلك. (5) عندما يتهيأ الحكام الذين يتمتعون بالسلطة القنصلية لتجنيد العساكر، يقومون بتحديد اليوم الذي على كل الرومانيين الذين هم في سن الجندية أن يحضر فيه. انهم يفعلون ذلك كل سنة. (6) وعندما يحل ذلك اليوم ويصل كل الخاضعين للخدمة العسكرية الى روما ثم يجتمعون في الكابتول، (7) فان الحكام العسكريين الشباب ينقسمون الى أربعة فرق تبعا للترتيب الذي عن طريقه تم تعيينهم اما من طرف القنصل أو من طرف الشعب. ذلك لأن التقسيم الرئيسي والأولي لجيشهم يقوم على أربعة فيالق. فقد جرت العادة على أن يلحق الحكام العسكريون الأربعة الذين تم تعيينهم في البداية بالفيلق الذي يحمل رقم 1، ثم الثلاثة التابعون للفيلق الثاني، ثم الأربعة اللاحقون للفيلق الثالث، فالثلاثة الأواخر للفيلق الرابع. أما الحكام العسكريون القدماء فالاثنان الأوائل منهم يلحقون بالفيلق الأول، والثلاثة التابعون بالفيلق الثاني، ثم اثنان بالثالث فالثلاثة الأواخر بالرابع.

20. وحينما يتم تقسيم وتعيين الحكام العسكريين بشكل يعطي لكل فيلق نفس العدد من الضباط، (2) يذهب هؤلاء للجلوس في مجموعات مفرقة حسب الفيالق ثم يقومون باجراء القرعة على القبائل واحدة بواحدة وينادونها حسب الترتيب الذي أسفرت عنه القرعة. (3) ثم يختارون من كل قبيلة أربعة من الجنود الشبان لهم نفس السن تقريبا ونفس القوام. . . (4) ثم يقوم ضباط الفيلق الأول باختيار واحد منهم ، ثم ضباط الفيلق الثاني ثم ضباط الفيلق الثالث وأخيرا ضباط الفيلق الرابع. (5) ثم يقترب أربعة جنود آخرين، وفي هذه المرة يقوم ضباط الفيلق الثاني باختيار أحدهم قبل غيرهم، وهكذا الى أن تنتهي (العملية) بضباط الفيلق الأول. (6)ثم يقترب أربعة جنود أخرين، وهذه المرة يقوم ضباط الفيلق الثالث باختيار أحدهم أولا لتنتهي (العملية) بضباط الفيلق الثاني. (7) وتستمر عملية الاختيار بالتناوب، بهذا النظام، الشيء الذي يؤدي الى تجنيد متساو تقريبا لكل الفيالق. (8) وعندما تتم عملية الاختيار الى أن يتم الحصول على العدد المحدد، أي 4200 من المشاة لكل فيلق أحيانا وأحيانا أخرى 5000 عندما يتجلى خطر استثنائي، (9) كان في الماضي يأتي دور الفرسان الذين جرت العادة في القديم على اختيارهم بعد 4200. أما اليوم فإن ذلك يتم في البداية حسب اختيار يقوم به القنصور بناء على الثروات. ويتم أخذ 300 فارس لكل فيلق.

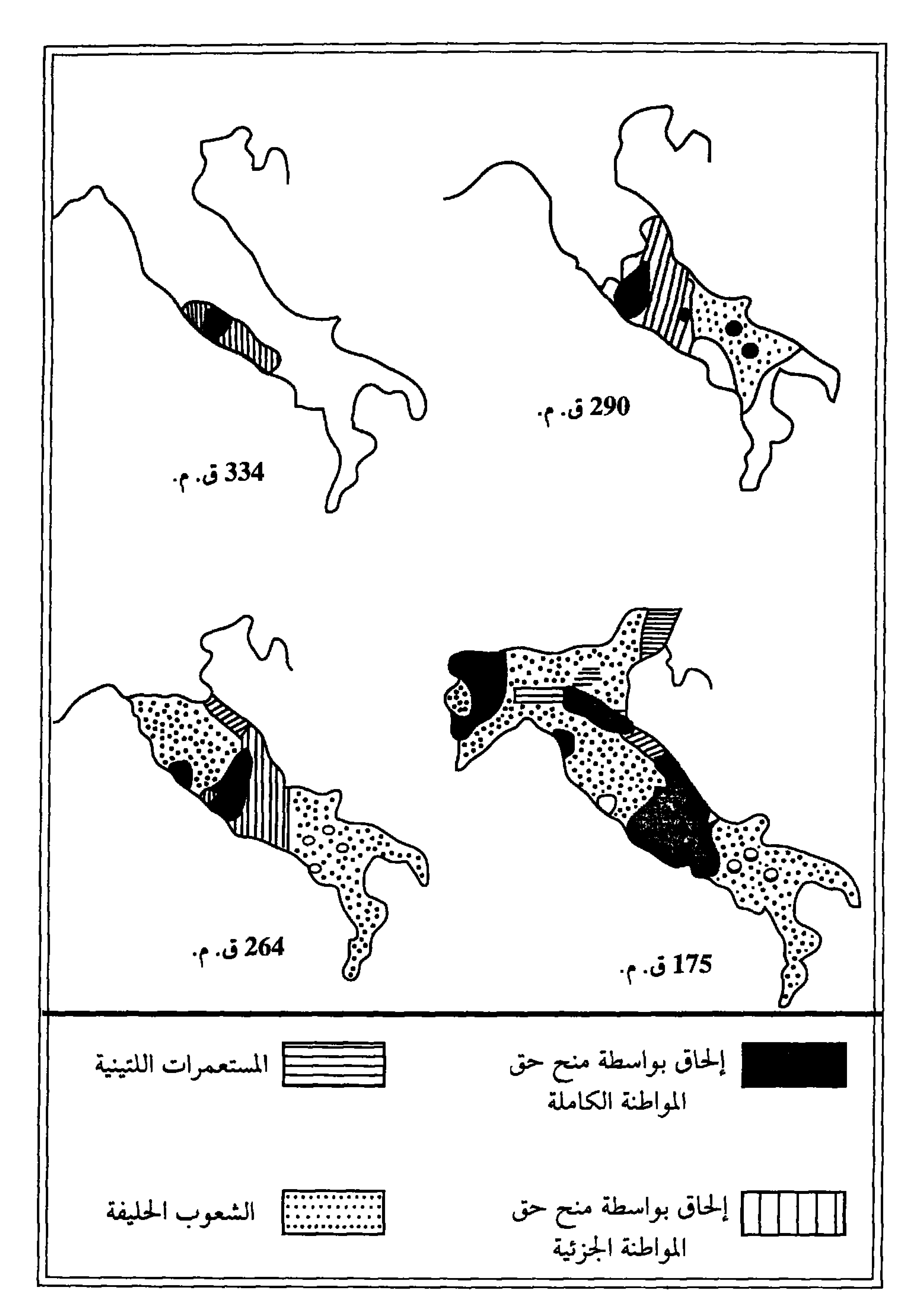
21. وعندما تنتهي عملية التجنيد حسب الشكل الذي وصفته، يقوم الحكام العسكريون المسؤولون في كل فيلق بتجميع الرجال الذين تم اختيارهم. ويقوم هؤلاء الحكام باختيار الرجل الأكثر تأهيلا من بين الجميع، (2) ويجعلونه يؤدي اليمين على الطاعة وعلى تنفيذ

أوامر رؤسائه بكل قواه. (3) ثم يتقدم الآخرون الواحد تلو الآخر لتأدية القسم. . . (4) وفي نفس الوقت يقوم الحكام الذين يتمتعون بالسلطات القنصلية باخبار سلطات المدن الحليفة في ايطاليا التي أرادوا لها المشاركة في الحملة، ويحددون لها عدد الجنود المطلوب والتاريخ والمكان الذي على الوحدات أن تحضر فيه. (5) وتطبق تلك المدن اجراءات في عملية التجنيد واليمين مماثلة لتلك التي تحدثنا عنها ثم ترسل وحداتها برفقة ضابط ودافع المال (أمين الصندوق). (6) غير أنه في روما، وبعد اداء القسم يحدد الحكام العسكريون لكل فيلق التاريخ والمكان الذي على كل الرجال أن يحضروا فيه دون سلاح، ثم يسمحون لهم بالعودة الى منازله. »

بوليبيوس ، التاريخ الروماني ، VI ، 19 ، 1-21 ، 6 .

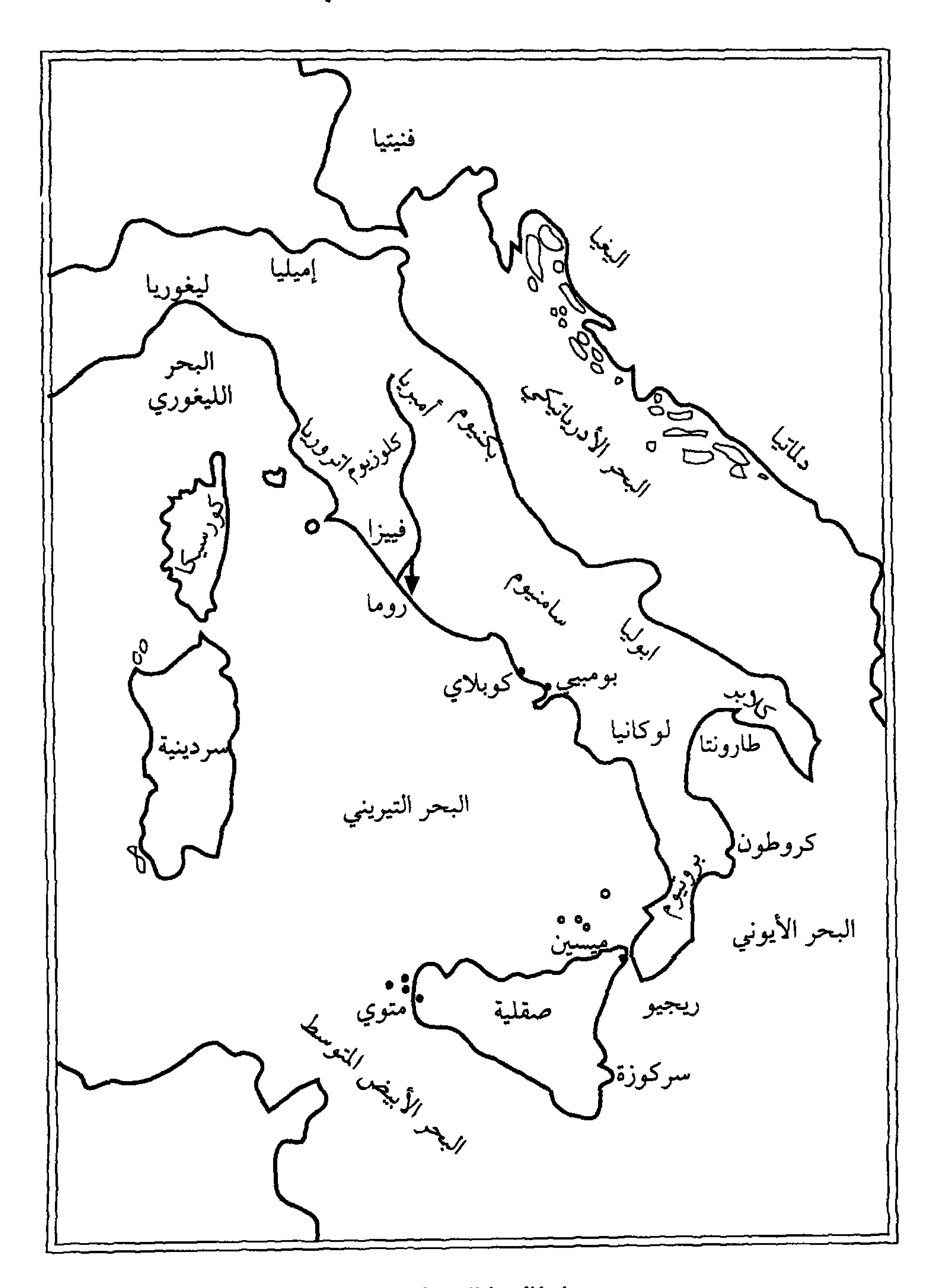


موقـع رومـا : التـلال السبعـة



تنظيم الفتح الروماني

من خلال: M. Humbert, Institutions..., Paris 1989.



إيطاليـا الرومانيـة

من خلال : F. Coarelli, Rome, Paris, 1971

بتصرف

مختارات بيبليوغرافية

حول الاطار الجغرافي والبشري يمكنك أن ترجع الى :

Le Gall J., Le Tibre, fleuve de Rome dans l'Antiquité, Paris, 1952.

Brandel F., La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II, Paris, 1949.

- La Méditerranée, Paris, 1977-1978.

وعن التأثيرات الخارجية يمكن مراجعة :

بالنسبة للأتروسكيين فقائمة المراجع أصبحت اليوم طويلة :

Bloch R., Le mystère étrusque. Paris, 1956

Pallottino M., Etruscologia, Milan, 1963, 5e éd., (trad. française par R. Bloch, La civilisation étrusque, Paris, 1949)

Heurgon J., La vie quotidienne chez les Etrusques, Paris, 1961.

Hus A., Les Etrusques. peuple secret, Paris, 1957.

أما بالنسبة للتأثيرات الفينيقية والاغريقية فيمكن مراجعة :

غانم محمد الصغير، التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط. 2، 1982.

Bonnet, Melqart, Cultes et mythes de l'Héralclès tyrien en Méditerranée (Studia Phoenicia, VIII), Namur, 1988.

Coarelli F., Il Foro boario dalla origini alla fine della Republica, Rome, 1988.

Le Glay M., Mythes, légendes et réalités culturelles. A propos de livres récents, Latomus, 1989, p. 581-589

أما عن تأسيس روما وبدايتها الأولى فنحيل القارىء على :

Momigliano A. et Schiavone (directeurs), Storia di Roma, vol. 1, Rome, 1988.

M. Crawford, Early Rome and Italy, The Oxford History of the Classical World, éd. J. Boardman, J. Griffin, O. Murray, Oxford-New York, 1986, p. 387-416.

Poncet J., Recherche sur la légende sabine des origines de Rome, Louvain, 1967.

Grandazzi A., La fondation de Rome. Réflexion sur l'histoire, Paris, les Belles- Lettres, 1991.

Bloch R.. Tite-Live et les premiers siècles de Rome, Paris. 1965.

Poncet J., Les origines de Rome: tradition et histoire, Bruxelles, 1985.

Adam R., D. Briquel, Le Miroir prénestin de l'Antiquario Comunale de Rome et la légende des jumeaux divins en milieu latin à la fin du IVe s. av. J.-C., MEFRA, 1?982, XCIV, p. 33-65.?

Dumézil G., Jupiter, Mars, Quirinus, essai sur la conception indoeuropéenne de la société et sur les origines de Rome, Paris, 1941.

- Naissance de Rome, Paris, 1944.

- La relégion romaine archaïque, Paris, 1966.

Grimal P., Rome, la littérature et l'histoire, Rome-Paris, 1986.

وعن العهد الملكي ومؤسساته :

Last H. M., "The servian Reforms", Journ. of Rom. St., 35, 145, p. 30-48.

Palmer Robert E. A., The arabic Community of the Romans, Cambridge, 1970.

Alfldi A., Early Rome and the Latins, Ann Arbor, 1963.

Nicolet Cl., "L'idéologie du système censitaire et la philosophie grecque", La filosofia greca e il diritto romano, colloque italo-français, Rome, Avril 1973, actes parus en 1976.

وعن فترة الانتقال من الملكية الى الجمهورية :

Heurgon J., Rome et la Méditerranée occidentale jusqu'aux guerres puniques (coll Nouvelle Clio", 7), Paris, 1969.

Bloch R., "Rome de 509 à 475 environ avant J.-C.", Revue des études latines, 37, 1959, p. 118-131

Richard J.C., Les Origines de la Plèbe romaine. Essai sur la formation du dualisme patricio-plébéien, Rome-Paris, 1978.

أما عن التوسع الروماني في ايطاليا فانظر :

Wuilleumier, Tarente des origines à la conquête romaine, Paris, 1939.

Lévêque P., Pyrrhus, Paris, 1957.

Carcopino J., "Pyrrhus, conquérant ou aventurier?" dans Profils de conquérants, Paris, 1961.


David J.-M., La romanisation de l'Italie, Aubier, Paris, 1994.

وعن المؤسسات يمكنك الاعتماد على :

Homo L., Les institutions politiques romaines, de la cité à l'Etat, 2e édition, avec bibliographie de J. Gaudemet, 1969.

Humbert M., Institutions politiques et sociales de l'Antiquité, Dalloz, Paris, 1984.

الفهرس

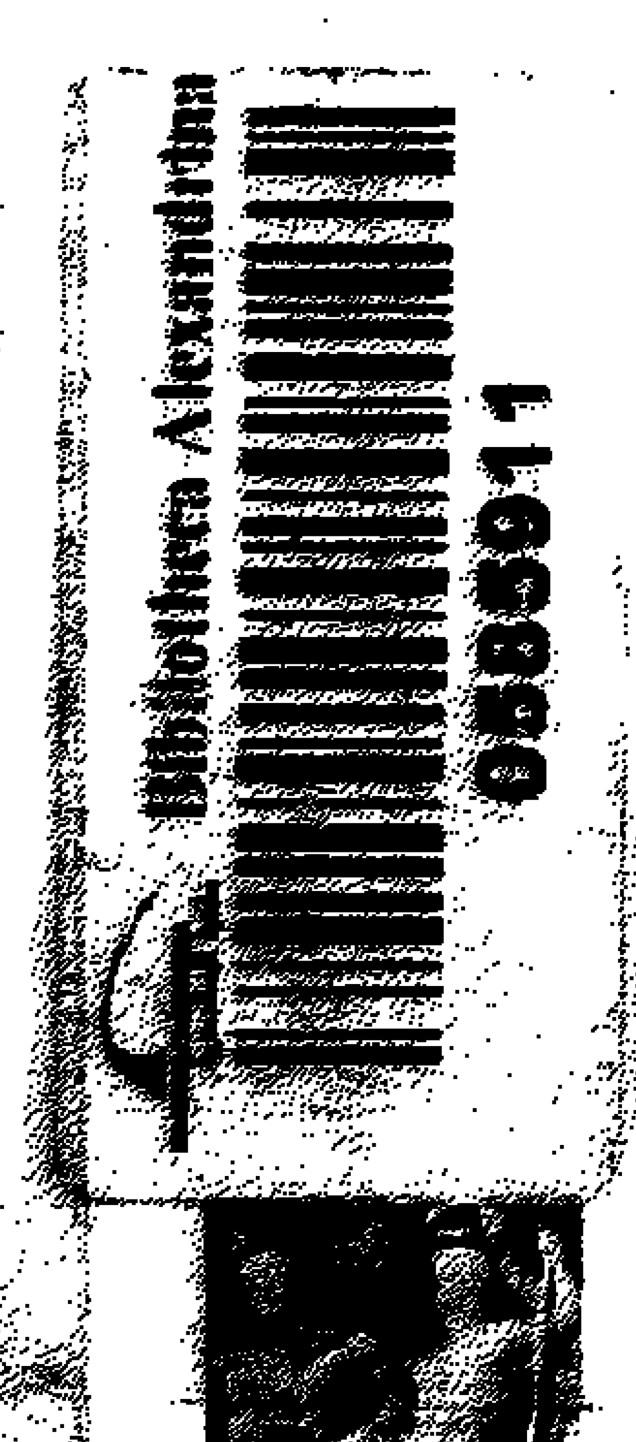


في التاريخ الرّوماني

نشأة الجمهورية

تاريخ روما يحيل إلى حضارة غريبة انقرضت منذ عدة قرون لا يمكن أن تتجاوب بالضرورة مع طرق عيشنا أوتفكيرنا. بيد أنه بالرغم من النفور الذي قد تولده لدى القارئ فإن دراستها تكتسي أهمية قصوى باعتبارها أحد المداخل الأساسية التي يستحيل بدونها فهم التطور الحالي لدول الحوض المتوسط أو بعض الظواهر التاريخية، سياسية كانت أو اجتماعية أو ثقافية، التي ميزت مسيرته. فالمهتم بتاريخ هذه "البحيرة" يلاحظ ولا شك أنها شكلت عبر التاريخ أحد المجالات الأساسية التي التقت فيها حضارات الشمال والجنوب، وحضارات الشرق والغرب. إنها قنطرة سهلت مرور الأشخاص والبضائع والأفكار أكثر مما عاقته... ولذلك فهي تعتبر عامل تكامل وتواصل في الحضارة المتوسطية أكثر منها عامل تعارض وقطيعة...

يسعى هذا الكتاب إلى تقديم بعض جوانب الحضارة التي انطلقت من شبه الجزيرة الإيطالية خلال القرن الثامن قبل الميلاد وانتشرت على ضفاف الحوض المتوسطي مؤثرة بذلك في مجريات تاريخه للجمهور العريض من القراء العرب. وهو يتناول بالدراسة نشأة روما والمشاكل المرتبطة بالفترة الملكية في قسم أول، ثم نشأة الجمهورية ومؤسساتها في قسم ثان. وستتلوه إن شاء الله أجزاء أخرى تسعى إلى تقديم عرض واف عن التاريخ والحضارة الرومانيتين.



لوحة الغلاف :
Siècle d'Auguste
Rome et Tibère

ISBN 9981-25-163-1

